سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر

خلال العصر الوسيط

منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر

خلال العصر الوسيط

رئيس المشروع : الأستاذ بن الذيب عيسى

الأعضاء : الدكتور مزهودي مسعود

الأستاذ بوطارن مبارك

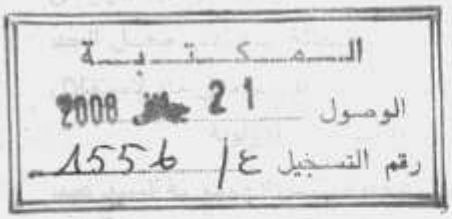

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين بمناسبة
الذكرى الـ 45 لعيد الإستقلال والشباب

منشورات المركز الوطني للدرسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

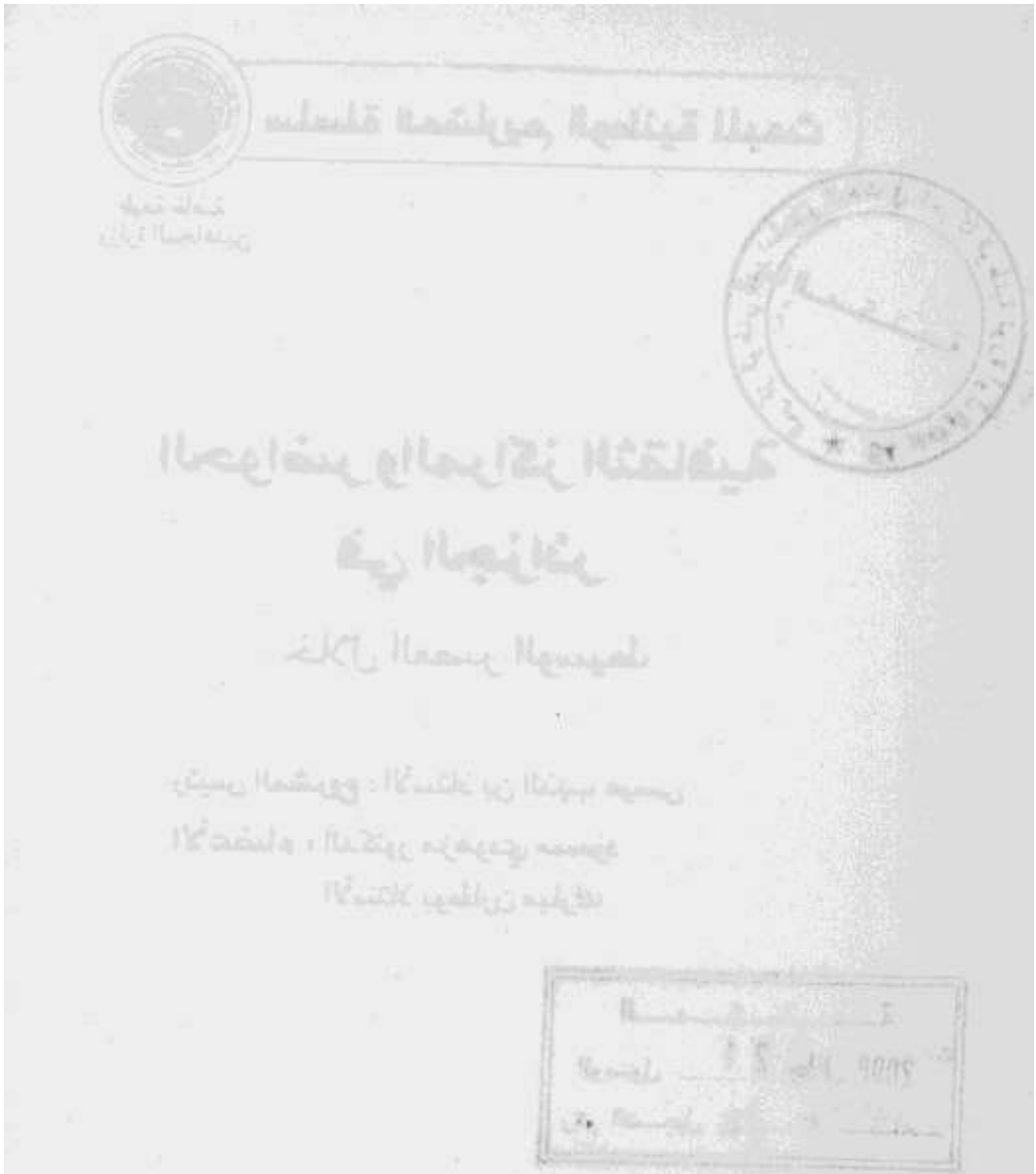

© المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية
وثورة أول نوفمبر 1954. الجزائر، 2007.

تدمك : 1 - 39 - 846 - 9961 - 978
الإيداع القانوني 1589 - 2007

جميع الحقوق محفوظة.

تصدير بقلم معالي وزير المجاهدين

كثيرا ما عادت إلى ذهني عبارة قالها المؤرخ الشاعر الموسوعي الدكتور أبو القاسم سعد الله حفظه الله، مفادها أننا شعب يحسن صناعة التاريخ ولكنه لا يجيد روايته والتأريخ لما يصنعه.

وإذا كان هذا الإستنتاج المشحون بغصّة أكيدة هو وليد معاناة البحث والإستقصاء التي تحمّلها هذا العالم الفاضل، وهو يقلب دفاتر الماضي ويدقّق ويغوص بخبرته وعلميته وسعة اطلاعه في ثنايا تاريخنا الوطني ويرى بأم عينيه كم هو قليل عدد الذين يخوضون معه غمار هذا اليم الواسع المليء بالأسرار والمكنونات، والمليء أيضا بالبحارة المزيفين أو المناوئين الذين لم ولن يدخروا ما في وسعهم للمضي في تزوير الحقيقة التاريخية أو تزييفها أو تغليفها بما يخدم الأهداف المعلنة وغير المعلنة للعدو، والتي ما اتسع حقلها و علا صوتها إلا بسبب ما بدر من المؤرخ الوطني من انسحاب وغياب وما ظهر فينا من سلوك غالب لا يعير التاريخ الأهمية التي تستحق والأولوية التي يجب أن يتبوأها .

ولله الحمد إذ وقعت همسة الدكتور أبو القاسم سعد الله الهادفة ومعها كثير من الدعوات الواعية في سمع راعية أمينة حملت همسة الاستغاثة هذه على محمل الجد وقالت معه ومع غيره من الغيورين على التاريخ الوطني، أنه حان الوقت لعمل جاد لاستغلال هذا الفضاء الحيوي وإعادة ترتيبه ليكون من بين أهم الاهتمامات الأولوية

والفضل في هذا المنحى يعود بالدرجة الأولى إلى فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة الذي ما كان ليفوت مناسبة وطنية أو محلية إلا وقد حث الهمم ونبّه إلى الآثار السيئة والثقوب الخطيرة التي بدأت تبدو على هذا المستوى أو ذاك من الأعطاب التي تصيب الذاكرة الوطنية، والتي بدأت نتائجها السلبية واضحة في وعي الأجيال الجديدة وتصرفاتها.

قالها فخامته بلغة واضحة أننا وإن كنا مجبرين على التكيف مع المستجدات الحاصلة من حولنا والمشاركة كطرف فاعل في الفضاء الإنساني الجديد، إلا أن نوعية مشاركتنا

وحماية مصالحنا مرهونتان بنجاحنا في تغذية الأجيال الجديدة بالمرجعيات الذاتية ومرتكزات القوة التي تجعلهم يشاركون ولا ينوبون يتصدرون ولا يكونون تبعا لغيرهم، وليس لبلوغ هذه الغاية من خيار غير العناية بالتاريخ وتطعيم هذه الأجيال بخلاصاته.

وقد تمّ الحرص في كل هذا الجهد المتكامل على وضع الأسس لمدرسة تاريخية وطنية لا تستغني عن المناهج العلمية الموضوعية والائتمان على الحقيقة، ولا تسعى في محصلتها إلى زرع الأحقاد كما تفعل المدرسة التاريخية الكولونيالية، ولكنها مع ذلك لا تنسى أنها إزاء بحث علمي إنساني اجتماعي في المقام الأول، وأنها تخوض غمار العمل في حقل ظل مسكوناً بالمغالطات والتعصب في الكثير من المؤلفات التي صدرت عن المؤرخين الإستعماريين، وإنه من حقها أن تعيد ترتيب الحقائق كما وقعت بالفعل وبالصورة التي تبين للأجيال كفاح آبائهم، وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله (من حفظ التاريخ زاد عقله).

في سياق هذا الجهد الذي ابتدأ منذ بضع سنوات و احتفاء بالذكرى الخامسة والأربعين لاستعادة السيادة الوطنية يقدم المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 مجموعة جديدة من البحوث العلمية التاريخية قامت بإعدادها بالتعاون مع المركز، كوكبة من الباحثين والمؤرخين والأساتذة، المعروفين بقدراتهم العلمية، وبمساهماتهم المتخصصة في هذا المجال .

وإني لأغتنم هذه الفرصة لأوجه إلى هؤلاء الأساتذة جزيل التقدير على ما تحملوه من عناء البحث والتنقيب والتدقيق ليقدموا هذا الإنتاج الذي سيكون خير عون للطلبة والباحثين والراغبين في التعرف على التاريخ الوطني من منابعه الصافية.

كما أعبر عن بالغ التقدير والشكر لجميع القطاعات التي ساهمت إلى جانب وزارة المجاهدين، في إنجاز هذا المشروع وأخص بالذكر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والوزارة المنتدبة للبحث العلمي اللذين وجدنا فيهما خير مساند في هذا المسعى الوطني الرفيع.

وفق الله الجميع في خدمة التاريخ الوطني، وتخليد مآثر الأمة الأزلية، ومن سار على الدرب وصل.

السيد : محمد الشريف عباس

تقديم بقلم مدير المركز

يتشرف المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بإصدار ثلاثين دراسة علمية، هي ثمرة عمل مشاريع البحث المنجزة في إطار البرنامج الوطني للبحث العلمي، والتي نال المركز شرف تأطيرها منذ انطلاقها إلى اليوم.

وإذ تتناول هذه الدراسات تاريخ الجزائر بكل مراحله، فإن ذلك يعتبر تأكيدا لفكرة: أن التاريخ الوطني كل لا يتجزأ على اختلاف العصور والأحداث والأزمنة التي عرفتها بلادنا، وأن هذا المكنون التاريخي، مترابطة مراحله ومتواصلة من القديم إلى الوسيط إلى الحديث والمعاصر، بما في ذلك فترتي المقاومة والثورة التحريرية.

وإذا كان الهدف البعيد في طبع ونشر هذه الأعمال هو إبراز دور المركز ومساهمته الفعالة في كتابة تاريخ الجزائر، في إطار الدور المنوط به منذ نشأته سنة 1995، فإن الهدف القريب و المباشر يتمثل في تدعيم المكتبة الوطنية بعصارة جهد ثلة من خيرة الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين المشهود لهم بالخبرة والكفاءة والاختصاص، وإثراء الرصيد العلمي والمعرفي للطلبة والمهتمين والباحثين.

ولا يفوتنا بمناسبة نشر هذه الأعمال أن نهنئ أنفسنا وشعبنا وأن نشكر وزارة المجاهدين وعلى رأسها معالي الوزير السيد محمد الشريف عباس، على رعايته واهتمامه البالغ بهذا المشروع، كما نثني على الدور الكبير الذي لعبته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الوزارة المنتدبة للبحث العلمي، الأساتذة والباحثون ،وكل الذين حرصوا وساهموا في إخراج هذا المشروع إلى النور.

د: جمال يحياوي

فهرس الموضوعات

المقدمة 11

المحور الأول :الحياة الثقافية في بلاد الزاب 16

1. بلاد الزاب : الجغرافية والسكان 16

2. الحدود الجغرافية لبلاد الزاب 17

3. طبنة في المصادر الجغرافية 19

4. الحياة الثقافية في بلاد الزاب 20

المحور الثاني : مدينة تيهرت كحاضرة ثقافية 25

أولا : عوامل ازدهار الحياة الفكرية في تاهرت 25

1. دور الأئمة الرستميين في إنعاش الفكر بتاهرت 33

2. علاقة تاهرت العلمية بالمشرق والمغرب 37

ثانيا : المراكز التعليمية في تيهرت 42

1. الكتاتيب 43

2. الحلقات والمجالس العلمية 44

3. المكتبات 45

ثالثا : العلم والعلماء في تيهرت 47

أ : العلوم النقلية 47

1. التفسير 47

2. الحديث 49

3. الفقه 50

- : العلوم العقلية 52
علم الكلام 52
لغة العربية 54
3. النحو 55
4. الأدب العربي 56
5. التاريخ 59
6. الطب 61
7. الحساب والفلك 61
المحور الثالث : الحياة الثقافية في ورجلان 64
1. نظام الحلقة ودوره في ازدهار الحركة العلمية 64
2. تمويل طلبة العلم والإنفاق عليهم 69
3. التنافس العلمي 70
4. إرساء تقاليد الحلقة 70
المحور الرابع : مدينة المسيلة كحاضرة 74
1. تأسيس مدينة المسيلة 74
2. دوافع بناء المسيلة 75
3. موقع المسيلة وتسميتها 77
4. خطط المدينة 82
5. دور المسيلة الاستراتيجي 87
6. قيام الثورات في بداية عهد القائم 88
7. الزيريون ومدينة المسيلة 92
أ - تأسيس الدولة الزيرية 92
ب - سلطة الفاطميين بالمغرب 92
ج - صنهاجة وموقفها من الأحداث 93
د - تأسيس أشير ومدى مساهمة المسيليين فيه 94

8. بعض مشاهير العلماء بالمسيلة والقلعة 94
المحور الخامس : المراكز الحضارية في دولة بني زيري 100
1. تعريف قبيلة صنهاجة 100
2. النشاط الاقتصادي لصنهاجة 102
3. الانقسامات الداخلية في القبيلة الصنهاجية 104
4 مدينة أشير (الموقع والتسمية) 104
أ - الموقع 104
ب - التسمية (يشير أو الأشير) 113
5. وصف أطلال أشير 115
6. وصف أطلال منزه بنت السلطان 117
7. وصف مدينة بنية 120
المحور السادس : مدينة بجاية كحاضرة ثقافية 122
1. عوامل ازدهار الحركة العلمية في بجاية 122
2. العلم والعلماء 125
أ - العلوم النقلية 126
ب - العلوم العقلية 132
ج - العلوم التجريبية 135
د - العلماء 138
3. المؤسسات التعليمية في بجاية 140
المحور السابع : مدينة تلمسان كمركز من المراكز الحضارية 143
1. العوامل المساعدة على ظهور مدينة تلمسان كحاضرة ثقافية 143
أولا : عناية الملوك الزيانيين بالعلم والعلماء 145
ثانيا : المدارس التلمسانية في عهد بني زيان 150
ثالثا : الرحلات العلمية 152

2. نماذج من الرحالة التلمسانيين 154
1) الفقيه ابا إسحاق إبراهيم التنسي (ت 680 هـ - 1287 م) 155
2) أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي (681 هـ - 757 هـ) 156
3) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام 156
4) أبي حجلة 157
5) أبا يحيى عبد الرحمن بن محمد بن أحمد التلمساني
(ت 826 هـ - 1422 م) 158
3. التعليم ومراحله 158
1) المرحلة الأولى من التعليم" التعليم الابتدائي" 158
2) البرامج المقررة في المرحلة الأولى" المرحلة الابتدائية" 160
3) المرحلة الثانية من مراحل التعليم" المرحلة الثانوية" 161
4) المرحلة الثالثة من التعليم المشيخة أو" التعليم العالي" 163
الخاتمة 165
قائمة المصادر والمراجع 167
أولا : المصادر 167
ثانيا : المراجع 170
ثالثا : الرسائل الجامعية 172
رابعا : الدوريات 173
خامسا : المراجع الأجنبية 174

المقدمة

تزخر الجزائر في العصر الإسلامي بالعديد من الحواضر والمراكز الثقافية التي لعبت دورا كبيرا في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية في أنحاء القطر شرقه وغربه، وهي بذلك لا تختلف عن مثيلاتها في المشرق العربي أو جاراتها في المغرب، ونظرا لنقص الدراسات في هذا الجانب كان اختيارنا لهذه الدراسة محاولين إبراز دور تلك الحواضر والمراكز والدور الذي لعبته.

وقد قسمنا موضوع الدراسة إلى سبعة (7) محاور، تناولنا في **المحور الأول** الحياة الثقافية في بلاد الزاب فعرّفنا بالمنطقة وأصل تسميتها، محاولين تحديد الحدود الجغرافية لبلاد الزاب وأبرزنا منطقة "طبنة" على أساس أنها هي الحاضرة الأساسية للمنطقة ومركز بلاد الزاب.

كما رصدنا تنقلات بعض علماء المنطقة الذين أسهموا في إثراء الحضارة العربية الإسلامية في بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) بالرغم من قلة المصادر التاريخية وندرة المعلومات المتعلقة بالجانب الثقافي، إلا أننا حاولنا بقدر الإمكان إماطة اللثام عن بعض الأسر والعائلات العربية التي اشتهرت في المنطقة بعلمها الوفير في مختلف الفنون والعلوم، أمثال اسحاق المشلوني، وأبي مضر زياد الله الطبني، وأبي القاسم بن علي الطبني، وأبي محمد القاسم بن علي الطبني، وأبي القاسم يوسف البكري وغيرهم.

أما **المحور الثاني** من الدراسة فقد خصصناه لمدينة تيهرت باعتبارها أول عاصمة مستقلة وحاضرة من الحواضر الثقافية في الجزائر، فكانت الدولة

الرستمية دولة علم ومعرفة، خاصة وأن أئمتها قد أولوا عناية كبيرة للعلم والعلماء، وكان للمساجد وحلقات العلم التي تقام بها دور كبير في نشر العلم والمعرفة .وإلى جانب المساجد كانت للكتاتيب أهمية كبيرة، إذ كانت بمثابة المدارس الابتدائية التي يتلقى فيها الصبية مبادئ اللغة العربية وحفظ القرآن والأحاديث النبوية.

ولم يكن اهتمام الأئمة الرستميين مقتصرا على المؤسسات التعليمية فقط بل تعداه إلى أكثر من ذلك فاهتموا بإنشاء المكتبات خاصة وأن معظم أئمة الدولة من العلماء الفحول الذين اشتهروا باقتنائهم للكتب من المشرق وكذا التأليف في مختلف العلوم .فكانت المكتبات بمثابة الوسيلة التي تقوم بتغذية الحركة الفكرية.

وتطرقنا إلى الدراسات المتداولة في المؤسسات التعليمية، وأهم العلوم النقلية والعقلية حيث حاولنا الإلمام بجميع العلوم التي كانت تدرس في عهد الدولة الرستمية مع ذكر أبرز العلماء في مختلف التخصصات.

في حين تناولنا في **المحور الثالث** من الدراسة الحياة الثقافية في مدينة "ورجلان" خاصة ونحن ندرك أنه بعد سقوط الدولة الرستمية في تيهرت، جرت محاولات لإحياء الإمامة في "ورجلان" وبذلك برزت هذه المدينة كحاضرة من حواضر المغرب الإسلامي بعد سقوط "تيهرت" وأصبحت وريثة الحركة العلمية .ولعل أهم ما ميز الحياة الثقافية في هذه الحقبة هو إنشاء نظام خاص للتعليم لم يعرفه أتباع المذهب الإباضي قبل هذه الفترة حيث حدد مهام القائمين على نظام التعليم كشيخ الحلقة والعرفاء والمساعدين له كما تم وضع نظام تربوي دقيق لحلقة الدروس.

كما تم إرساء تقاليد ونظام خاص بالحلقة، ونظرا لما بلغه هذا التنظيم في تنشيط الحركة الثاقافية في "ورجلان" فقد رُوعي في هذا الجانب حتى تمويل الطلبة والإنفاق عليهم، فكان همُّ الطالب هو التحصيل في حين كان التنافس العلمي والمناظرات بين العلماء هي الطابع الغالب على حياتهم.

وقد برز العديد من العلماء الذين لعبوا دورا كبيرا في ازدهار الحركة الثقافية في ورجلان وترأسوا تلك الحلقات نذكر منهم "الشيخ أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن

سهلول السدراتي" الذي تلقبه المصادر الإباضية "بشيخ الرأي الناصح" وسعيد بن زنغيل وأبا العباس بن محمد بن بكر وغيرهم.

أما **المحور الرابع** فقد تطرقنا فيه إلى مدينة "المسيلة" باعتبارها حاضرة من حواضر المغرب الأوسط فأشرنا إلى تأسيس مدينة "المسيلة" ودوافع بنائها، مع تحديد موقعها الجغرافي وتسميتها وإبراز خطط المدينة موضحين تمركز القبائل التي حلت بها واتخذتها مكانا للاستقرار بها.

كما أوضحت الدراسة موقع مدينة "المسيلة" الإستراتيجي بالنسبة لبلاد المغرب عامة والأوسط خاصة، وما حدث من ثورات بالمنطقة، وبينت الدراسة بعض مشاهير العلماء "بالمسيلة والقلعة".

أما **المحور الخامس** فقد خصصناه للمراكز الحضارية لدولة "بني زيري"، ولما كانت الإرهاصات الأولى للدولة الحمادية هي الدولة الزيرية، فمن هذا المنطلق قمنا بدراسة المراكز الثقافية التي أنشئت إبان هذه الفترة حتى نبني عليها دراستنا التي تستهدف بعض المدن الحمادية.

ولما كانت كل المصادر التاريخية أغفلت الحديث عن هذا الموضوع، اللّهم بعض الإشارات البسيطة المذكورة في سياق الحديث عن قيام الدولة الزيرية، وأن الآثار المادية لم تحفظ لنا بعض الإنجازات الثقافية والعلمية التي زخرت بها هذه المدن الزيرية، لذا اكتفينا بالحديث عن الجانب العمراني لهذه المدن.

وإن كانت الأوصاف التي وصفها بها المؤرخون أمثال "البكري" و"النويري" و"ابن خلدون" وغيرهم كثير، تدل على أن هذه المدن مجتمعة كمدينة "أشير" وغيرها من المدن الأخرى يمكن اعتبارها مراكز حضارية فعلا لأنها نقلت المجتمع الصنهاجي من البداوة والتنقل والترحال إلى مراكز تجمع نظمت فيها نفسها وفق الأنظمة السائدة آنذاك في المدن الإسلامية الأخرى، حيث تأثرت بها وأصبحت تسير عليها، وهذا دليل ملموس على التطور الحضاري الذي شهدته الدولة الزيرية في المغرب الإسلامي.

إن الحديث عن العلم والعلماء في مدينة "أشير" أثناء الفترة الزيرية يبقى ضرب من الخيال لأن كل ما كتب عن هذا الموضوع لا يعدو إلا أن يكون إشارات بسيطة في المصادر التاريخية المهتمة بهذا الموضوع.

ذلك أن جل المصادر التاريخية مرت بصمت عن هذه الفترة ولم تشر إلى علماء المنطقة أو إلى النشاطات العلمية إلا بصيغة الجمع، وفي سياقات مختلفة حيث لم تعط للموضوع أهمية، ولم تفصله جيدا، وإن كل ما كتب حوله عبارة عن إشارات لاستقدام الزيريين للعلماء من مدن أخرى وعليه فقد أولينا الاهتمام الأكبر في هذه الدراسة للجانب الحضاري.

أما **المحور السادس** فقد خصصناه إلى بروز مدينة بجاية لتحل محل القلعة وما شهدته من نشاط فكري وعلمي بلغ الآفاق فأشرنا إلى عوامل ازدهار الحركة العلمية في "بجاية الناصرية"، مع ذكر أهم العلوم التي كانت تدرس بها سواء أكانت علوم عقلية أو نقلية أو تجريبية مرورا بأهم العلماء الذين برزوا في هذه الفترة وأهم المؤسسات التعليمية المشهورة في "بجاية".

أما **المحور الأخير** من الدراسة فقد ركزنا فيه على مدينة "تلمسان" التي تعد من المدن الجزائرية التي نالت شهرة واسعة فاقت شهرتها حدود بلاد المغرب لأنها كانت تتغذى بروافد عديدة كرافد المشرق العربي، ورافد الأندلس، ضف إلى ذلك الإرث الحضاري والثقافي المغربي، خاصة، ونحن ندرك أنها كانت قفل بلاد المغرب.

فركزنا الدراسة خاصة على الفترة الزيانية، حيث أشرنا إلى العوامل التي ساعدت على تطور الحركة الفكرية بمدينة تلمسان وأحوازها، وبروزها كحاضرة من الحواضر الثقافية في الجزائر، موضحين الاهتمام والعناية التي أولاها الأمراء الزيانيون للحركة الفكرية والثقافية بها، وما صاحب ذلك من انتشار للمدارس والمؤسسات التعليمية في المدينة والإقدام الكبير الذي عرف به أهل تلمسان على العلم والرحلة من أجله مبرزين نماذج من الرحالة التلمسانيين.

وختمنا الدراسة بالإشارة إلى التعليم ومراحله باعتباره الركيزة الأساسية والهامة التي تساهم في دفع عجلة الحركة الفكرية نحو التقدم والرقي في مجالات العلوم المختلفة، والمساهمة إسهاما كبيرا في نشر الثقافة بين أفراد المجتمع فيرتقي سلوكه أخلاقيا وحضاريا.

المحور الأول

الحياة الثقافية في بلاد الزاب

1. بلاد الزاب : الجغرافية والسكان
2. الحدود الجغرافية لبلاد الزاب
3. طبنة في المصادر الجغرافية
4. الحياة الثقافية في بلاد الزاب

الحياة الثقافية في بلاد الزاب

تعد بلاد الزاب من المناطق التي لم تحض بدراسات متخصصة على الرغم من أنها لعبت دورا كبيرا في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بلاد المغرب، ويعود ذلك إلى قلة المصادر التاريخية التي اهتمت بالمنطقة من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأحداث التاريخية متناثرة بين أمهات المصادر. ولذلك فمن الصعب جدا على أي باحث أن يكتب بحثا متكامل الجوانب حول الموضوع في مدة زمنية قصيرة. وتعد هذه الورقات محاولة لكتابة تاريخ بلاد الزاب في العصر الوسيط خاصة فيما يخص الحياة الثقافية في هذا الإقليم. وقبل أن نلج إلى صلب الموضوع فمن نافلة القول أن نتطرق بصورة عامة إلى تاريخ بلاد الزاب الذي تعد مدينة طبنة أهم حواضره على الإطلاق.

1- بلاد الزاب : الجغرافية والسكان:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (زبى) : الزبية : هي الرابية التي لا يعلوها ماء، وعام أزب : أي عام مخصب كثير النبات، والزابيان : نهران بناحية الفرات، ويسمى ما حولهما من الأنهار الزوابي، وزاب يزوب إذا انسل هربا، وقال ابن الأعرابي : زاب إذا جرى. وجاء في معجم البلدان لياقوت الحموي أن زاب ملك من قدماء ملوك الفرس وهو زاب ابن توركان بن منوشهر بن ايرج بن أفريدون حفر عدة أنهر في العراق فسميت باسمه، وربما قيل لكل واحد زابي والتثنية زابيان وإذا جمعت قيل لها الزواب.[1]

1. ياقوت الحموي : معجم البلدان، مج 3، ص 124.

فمن خلال هذا النص يتضح أن تسمية الزاب أطلقت على مناطق في العراق وكذلك أطلقت على جهات وأنهار ببلاد المغرب. فهناك موقعة سميت بيوم الزاب وهي التي دارت بين الخليفة الأموي مروان بن محمد الملقب بالحمار وبين بني العباس في مكان يسمى الزاب الأعلى بين الموصل وأربيل. والزاب أيضا كورة صغيرة يقال لها ريغ، وكلمة ريغ بربرية معناها السبخة، فمن كان منها يقال له "الريغي"، والزاب أيضا كورة كبيرة ونهر بأرض المغرب بين "تلمسان" و"سجلماسة" في أقصى المغرب الأقصى[2]. وهذا يدل على أن التسمية ربما أطلقها العرب على هذه الجهة تشبيها لها بزوابي العراق وهي تسمية قديمة عكس ما يراه صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (ق 6) من أن التسمية تعود إلى ثائر يسمى أبا "زيا الفارسي" الذي ثار في هذه المنطقة في سنة 583 هـ (1187م). ويتضح مما سبق أن التسمية أطلقت على الجهة إما لكثرة نخيلها ونباتها، وإما لغزارة مياه واديها الذي ينحدر من جبل أوراس. وأما كلمة الزيبان فربما هي تحريف لكلمة الزابيان أو الزوابي.

2. الحدود الجغرافية لبلاد الزاب :

انه لمن الصعب أن نضع خريطة دقيقة لبلاد الزاب في العصر الذي نتحدث عنه وهذا يرجع إلى التباين والاختلاف بين الجغرافيين القدامى حول المدن التي تدخل في نطاق بلاد الزاب. "فالزاب الكبير" حسب "ياقوت الحموي" يشمل بسكرة، توزر، قسنطينة، طولقة، قفصة، نفزاوة، نفطة، وبادس[3] وهنا نلاحظ أن "ياقوت" لا يميز بين بلاد الجريد في إفريقية وبين بلاد "الزاب" في المغرب الأوسط لأنهما متاخمتان ببعضهما. فصاحب كتاب "الاستبصار" يذكر أن بلاد "الزاب" تقع على طرف الصحراء في سمت بلاد الجريد وهي مثلها في حر هوائها وكثرة نخلها، وهي مدن كثيرة وأقطار واسعة وعمائر متصلة[4] بل أن القلقشندي جعل "بسكرة" مدينة

2. المصدر نفسه، ص 124.

3. ياقوت :المصدر السابق، مج 3، ص 124.

4. مجهول :الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 171.

من مدن بلاد الجريد[5]. أما المقدسي فقد ذكر أن المسيلة هي مدينة الزاب، وتتبعها "مقرة"، طبنة، بسكرة، بادس تهودا، طولقة، جميلا، بنطيوس، أدنة، أشير[6] في حين أن "اليعقوبي" يضيف مدينة أخرى تابعة للزاب وهي مدينة "باغاية" الواقعة اليوم قرب مدينة خنشلة[7]. وتؤكد المصادر على أن المسيلة أصبحت عاصمة لبلاد الزاب بعد "طبنة" وامتد عملها من الحضنة إلى حدود عمل باغاية شرقا، وتولي إدارة المدينة علي بن حمدون الأندلسي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ثم خلفه ابنه "جعفر" الذي وصفه الشاعر ابن "هانئ أديب" الأندلس الذائع الصيت والذي مدح جعفرا بمدائحه الكثيرة منها قوله :

خليلي أين الزاب منى وجعفر ... وجنات عدن بنت عنها وكوثر
فقبلي نأى عن جنة الخلد آدم ... فما راقه من جانب الأرض منظر
أتى الناس أفواجا اليك كأنما ... من الزاب بيت أو من الزاب معشر
فأنت لمن قد مزق الله شمله ... ومعشره والأهل أهل ومعشر

وعلى العموم فان بلاد الزاب كانت تتكون من ثلاث مناطق هي الزاب الغربي وعاصمته "طولقة"، وطولقة عبارة عن ثلاث مدن عليها اسوار وخنادق تحيط بها الأنهار من كل جانب[8] والزاب الأوسط قاعدته "تهودة" وهي مدينة أولية بنيانها بالحجر ويمر عليها نهر يأتيها من جبل أوراس[9] ثم "بسكرة" التى يصفها "ابن سعيد" بأنها قاعدة بلاد "الزاب"، اشتهرت بنخيلها، ومنها كانت تصدر التمور الى تونس وبجاية[10]. أما الزاب الشرقي ففيه عدة مدن لكنها قليلة الأهمية بالمقارنة مع الزاب الغربي والأوسط. ومن مدن الزاب الشرقي بادس وتنومة وقيطون بياضة[11].

---

5. انظر : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج 24، ص 185.
6. المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 221.
7. انظر : صفة المغرب المأخوذة من كتاب البلدان، ص 11.
8. الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 401-400.
9. المصدر نفسه، ص 142.
10. ابن سعيد : كتاب الجغرافية، ص 126.
11. المصدر نفسه، ص 488.

3. طبنة في المصادر الجغرافية :

طبنة : بضم أوله ثم السكون ونون مفتوحة وهي أعجمية ومثلها في العربية : الطبنة وهي خطة يخطونها مستديرة وجمعها طبن، والطبنة صوت الطنبور. اشتهرت طبنة بأنها كانت قاعدة لبلاد الزاب، وهي مدينة قديمة أولية وهي مما افتتح موسى بن نصير فبلغ سبيها عشرين ألفا، سورها مبني بالطوب وبها قصر وأرباض، وداخل القصر جامع وصهريج كبير يقع فيها نهرها ومنه تسقى بساتينها. ويقال أن الذي بناها هو أبو جعفر عمر بن حفص المهلبي المعروف بهزارمرد (معناه ألف رجل لقبه الفرس بذلك لأنه كان يقوم مقام ألف فارس في الحرب نظرا لشجاعته).

والمدينة كغيرها من المدن عليها سور وعدة أبواب منها باب خاقان مبني بالحجر عليه باب حديدي وهو سري، وباب الفتح غربي، وباب تهودا، وباب كتامة. وقد شق اليها عمر بن حفص جداول الماء العذب خاصة من نهرها المعروف باسم (بيطام). فاذا حمل هذا النهر سقى جميع بساتينها حتى أن أهلها كانوا يقولون : بيطام بيت الطعام لجودة زرعها[12].

ولا غرابة في ذلك فالجغرافيون يتفقون في أن "طبنة" كانت كثيرة البساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير.كما يذكرون أن أهلها أخلاط من قريش والعرب والعجم والأفارقة والروم والبربر.كما أشاروا الى كثرة صنائعها وتجارتها وأموالها، وأن لأهلها أموال متصرفة في ضروب من التجارات[13]. ويبدو أن طبنة فقدت مركزها وتقلص نشاطها الاقتصادي بعد أن تحولت قاعدة بلاد الزاب الى "المسيلة". فابن حوقل وصف أهلها (في القرن الرابع الهجري) قائلا : صاروا بعد السعة الى الضيق والذلة والصغار والشتات والقلة مشردين في البلاد[14]. الا أنه يبدو أن المدينة انتعشت في عهد الأدريسي (ت 558هـ) اذ يذكر أن بها صنائع وتجارات وأموالا[15].

---

12. اليكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص51-50.
13. ابن حوقل :صورة الأرض، ص 85، الإدريسي : القارة الأفريقية، ص 180، أبو الفدا : تقويم البلدان، ص 181.
14. ابن حوقل : المصدر نفسه، ص 85 ، إبراهيم أحمد العدوي : بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي، ص 299-298.
15. انظر القارة الأفريقية، ص 93.

4. الحياة الثقافية في بلاد الزاب :

لا نستطيع الجزم بأن مدينة طبنة كانت مركزا من مراكز الثقافة والفكر في المغرب الأوسط إلا أنه يمكن القول بأن بعض القرى التي كانت تابعة لها إداريا شهدت قدرا من النشاط الفكري. فقد اشتهرت مدينة "بسكرة" بأنها دار فقه وعلم، وممن اشتهر من العلماء اسحاق الملشوني نسبة إلى ملشون – قرية من قرى بسكرة – قرب تهودة وهي يومئذ حاضرة العلم. كان عالما ثقة في الدراسات الدينية وبخاصة في ميدان التاريخ.

التقى بإمام القيروان وبفقيهها الإمام سحنون وتبادلا الدراسة. وقد تولى سحنون تقديم هذا العالم إلى بلاط محمد بن الأغلب لإلقاء محاضرات وعقد المجالس في التاريخ هناك في ليالي رمضان، إذ يروي أن سحنون دخل على هذا الأمير الأغلبي في أول يوم من شهر رمضان فالقاه خاليا فقال له : (أراك أيها الأمير خاليا، فقال : نعم انفردنا في الشهر المعظم وخلونا فيه، وتركنا ما كان لغير الله عز وجل، فقال سحنون : فأين أنت أيها الأمير من اسحاق الملشوني يحدثك بأخبار الأمم السالفة، فاستدعى محمد بن الأغلب هذا المؤرخ الجزائري وظل يستفيد من علمه وسعة اطلاعه.

ولا تذكر المصادر إن كان هذا العالم الجليل قد ألف كتبا في تاريخ المنطقة أم لا. أما حاضرة طبنة فقد حمل لواء ثقافتها شرقا وغربا ثلاث أسر عريقة هي : أسرة أبي مضر زيادة الله الطبني في قرطبة، أسرة أبي محمد القاسم بن علي الطبني في مصر، واشتهر جد الأسرة الأولى وهو أبو مضر زيادة الله الطبني برواية الحديث والتبحر في اللغة والأدب مع إجادة الشعر. وقد زار هذا العالم مصر وشهد مجالسها العلمية وأعجب بها، وسجل ذلك في شعر رقيق أرسله الى أبنائه بالأندلس :

يا أهل أندلس ما عندكم أدب بالمشرق الأدب النفاح بالطيب
يدعى الشباب شيوخا في مجالسهم والشيخ عندكم يدعى بتلقيب

وقد ذكر المقري في "نفح الطيب" أن أبا مضر هو أول من بنى بيت شرفهم ورفع في الأندلس صوته بنباهة سلفهم. وذكر "ابن حيان" أنه كان نديما لمحمد بن أبي

عامر، أمتع الناس حديثا ومشاهدة، وأنصفهم ظرفا وأحذقهم بأبواب الشحذ والملاطفة، وآخذهم بقلوب الملوك والجلة وأنظمهم لشمل إفادة ونجعة[16]. استقر بمدينة قرطبة، وفيها كان يعقد حلقات العلم لمريديه.

أما ابنه أبو مروان فكان من أهل الحديث والرواية رحل إلى المشرق وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز وقتل بقرطبة سنة 457 هـ واتهم ابنه باغتياله في حين يرى "ابن سعيد المغربي" أن جواريه قتلنه لتقتيره عليهن[17]. وتورد لنا المصادر التاريخية الأندلسية بعضا من نظمه كقوله :

وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم على ما به منهم حنين الأباعر
واصبر عن أحباب قلب ترحلوا ألا إن قلبي سائر غير صابر

وذكر عنه أنه لما عاد إلى قرطبة وجلس ليرى ما أخذه من العلوم اجتمع إليه في المجلس خلق عظيم. فلما رأى ذلك العدد قال :

إنى إذا أحضرتني ألف محبرة يكتبن حدثني طورا وأخبرني
نادت بمفخري الأقلام معلنة هذه المفاخر لا قعبان من لبن

ويضيف "المقري" أن أبا مروان كان يحدث عن مائتين من أهل الحديث مثل أبو عبد الله الحميدي وأبو بكر الطليطلي وأبو عبد الله بن منصور الحضرمي وأبو سعيد الرهاوي، وأبو محمد جعفر بن محمد السراج، وأبو بكر بن محمد بن أحمد بن عبد الباقي وأبو الحسن بن مشرف الأنماطي، وأبو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي، وأبومحمد شعيب بن سبعون الطرطوشي، وأبو بكر بن نعمة العابد، وأبو الحسن علي بن الحسين الموصلي الغراف، وأبو عثمان سعد بن عبد الله الحيدري من شيوخ السلفي، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمي، وأبو إسحاق الكلاعي من شيوخ أبي بحر الأسدي.

16. المقري : نفح الطيب ج 2، ص 968.
17. انظر : المغرب ج 1، ص 92.

كان أبو مروان يهتم باقتناء الكتب فقد روي ابن عساكر أنه قال : ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث أريد أن أمضي وأجيء بها[18] وتولى أبناء الأسرتين الأخريين تدريس الفقه والحديث في مصر، واشتهر منهم في ميدان رواية الحديث أبو محمد بن القاسم بن علي، وعلي بن منصور إذ تركا أعظم الأثر في هذا الميدان وأسهما في نشاط هذا اللون من الدراسات في مصر. ولم تسعفنا المصادر لتتبع أخبار هؤلاء العلماء بها.

ومن العلماء الذين حملوا لواء العلم والثقافة في بلاد الزاب عموما إثنان من خيرة الرجال ذهب أولهما شرقا والثاني غربا. أما الأول فهو أبو القاسم يوسف البسكري الذى ولد ببسكرة سنة 403 هـ (1012 م) وتلقى فيها علومه واشتهر هذا الأخير بالتخصص في علوم اللغة والقراءات حتى استدعاه إلى العراق الوزير والعالم المشهور نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشاه سنة 458 هـ للإستفادة من علمه. ثم صدر قرار بتعيينه أستاذا بمدرسة نيسابور شمال خراسان ببلاد فارس بالقرب من مرو عاصمة هذا الأقليم، والتي بقي ينشر فيها علمه إلى أن وافته المنية سنة 465 هـ (1072 م)[19].

وشهدت بلاد الزاب في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مركزا جديدا استأثر بالتفوق العلمي وهو مدينة المسيلة التي أسسها الخليفة الفاطمي المهدي سنة 315 هـ (927م). إذ انتقل إلى المسيلة مركز إدارة بلاد الزاب من طبنة، وصارت على عهد حاكمها علي بن حمدون مقصد العلماء والأدباء من كل فج، ذلك أن هذا الحاكم اشتهر بحبه للعلم وإغداقه على أهله. وعندما توفي سنة 334 هـ (946 م) خلفه ابنه جعفر الذى تابع سياسة الاهتمام بهذا المركز الهام للثقافة العربية[20]، وأنجبت المسيلة علما من أعلام الثقافة العربية بالمغرب الأوسط وهو الحسن ابن رشيق، فقد ولد بالمسيلة سنة 385 هـ (995 م) ثم ارتحل إلى القيروان وصقلية

---

18. 1المقري : المصدر نفسه ، ج 3، ص 72.

19. ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج 1 ص 422، وأنظر كذلك : إبراهيم أحمد العدوي : بلاد الجزائر، ص 304.

20. ياقوت : المصدر نفسه، ج 1، ص 422، العدوي : المرجع نفسه، ص 304.

الإسلامية، وتابع فيهما نشر الثقافة العربية. ولعل أهم عمل له يكشف عن أصالة المنبع الذي استقى منه غذاءه الفكري، ويعد كتاب (العمدة) الذي بحث فيه صناعة الشعر وفنونه ونقده وعيوبه، وفق منهج لم يسبقه فيه أحد. وقد حاول مركز الثقافة في القيروان أن ينتزع هذا العلم له بسبب طول بقائه في هذه المدينة، وسماه الحسن بن رشيق القيرواني، ولكن الأجدر نسبة هذا العالم إلى مسقط رأسه اعترافا بفضل مراكز الثقافة العربية بالجزائر كما يلح إبراهيم أحمد العدوي[21]. وتضيف المصادر عالما آخر ينتسب إلى هذه الجهة وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي يحي الطولقي ولكن للأسف لا نعرف عنه الكثير.

21. انظر : المرجع السابق، ص 302-301.

المحور الثاني

مدينة تيهرت كحاضرة ثقافية

أولا : عوامل ازدهار الحياة الفكرية في تاهرت

1. دور الأئمة الرستميين في إنعاش الفكر بتاهرت
2. علاقة تاهرت العلمية بالمشرق والمغرب

ثانيا : المراكز التعليمية في تيهرت

1. الكتاتيب
2. الحلقات والمجالس العلمية
3. المكتبات

ثالثا : العلم والعلماء في تيهرت

أ. العلوم النقلية

1. التفسير 2. الحديث 3. الفقه

ب. العلوم العقلية

1. علم الكلام 2. اللغة العربية
3. النحو 4. الأدب العربي
5. التاريخ 6. الطب
7. الحساب والفلك

مدينة تيهرت كحاضرة ثقافية

أولا : عوامل ازدهار الحياة الفكرية في تاهرت

تعد تاهرت عاصمة الدولة الرستمية من أشهر عواصم العصر الوسيط كونها تكتسي أهمية تاريخية بارزة، من حيث أنها أول عاصمة لدولة إسلامية مستقلة بالمغرب الأوسط فقد دان لها ما لم يدن لغيرها طيلة القرنين الثاني والثالث الهجري، لذلك ارتأينا أن نسلط الضوء على إحدى جوانب حضارتها والمتمثل في الحياة العلمية باعتبارها مركزا مهما من مراكز الثقافة ببلاد المغرب وتبيان دورها في إثراء الثقافة العربية الإسلامية.

ولما كان الدين الإسلامي دين عدل ومساواة ودين المحبة والإخاء قضى مجيئه على غطرسة أمراء الجاهلية وتعسفهم وفرض في تسيير شؤون الدولة إماما ينصب عن طريق بيعة تؤخذ من أعناق المسلمين وفق شروط حددها علماء الإسلام وهي العلم والورع والكفاءة والعدل، وسلامة الحواس والأعضاء كما كان الوضع سائدا إبان عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين من بعده، لكن بمجيء بني أمية تغير الوضع إذ استبدوا بالخلافة دون بيعة المسلمين بالرضا وجعلوا منها تركة تورث، والشأن نفسه عند بني العباس، لذلك ظهرت جماعة من المسلمين في العراق والجزيرة العربية تندد بهذا التعسف وتدعو إلى ضرورة الرجوع إلى نظام الخلافة الراشدة وعلى الدولة أن تتقيد بتطبيق الشرع. وهذه الجماعة التي دعت إلى ضرورة التمسك بشروط الخلافة دون شرط أن يكون الخليفة قرشي النسب انطلاقا من قوله (صلى الله عليه وسلم) : "ولوا عليكم حتى ولو كان عبدا حبشيا كأن رأسه زبيبة". وممن أخذ بهذا الحديث أتباع المذهب الإباضي. وهذه الجماعة هم من

الإباضية نسبة إلى شخصية بارزة فيهم وعالم من علمائهم وهو عبد الله بن إباض المري التميمي البصري.[22]

ويبدو أن زعماء المذهب الإباضي كانوا مطلعين على تاريخ وخصائص البربر في بلاد المغرب الذين امتازوا بالشجاعة والطموح وحبهم للحرية وتعلقهم بالعدل والمساواة وتمسكهم بالدين[23]، لذلك أرسل أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة أحد تلامذته وهو" سلمة بن سعد "إلى بلاد المغرب لينشر تعاليم المذهب في المنطقة ويهيئ الظروف حول إمكانية إقامة دولة بربوعه[24]، فكان بذلك سلمة بن سعد أول الدعاة الذين نقلوا مبادئ المذهب الإباضي إلى إفريقية في أوائل القرن الثاني للهجرة[25]. وهناك جدّ في بث آرائه، واستطاع أن يجمع حوله مجموعة من الأتباع الذين أعجبوا بتعاليم المذهب[26]، وبعث بهم إلى البصرة.

والملاحظ أن هذه البعثة لم تكن خاصة لقبيلة دون أخرى أو لجنس دون غيره بل تضم عناصر مختلفة من : البربر والعرب والفرس منهم أبو داود القبلي النفزاوي من مدينة نفزاوة جنوب افريقية، أبو درار اسماعيل بن درار الغدامسي وهو من غدامس بليبيا حاليا، عاصم السدراتي من سدراتة بالقرب من وارجلان جنوب الجزائر، وعبد الرحمان بن رستم من أصل فارسي أقام بالقيروان وانضم إليهم في البصرة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري وهو عربي من معافر اليمن[27]. تلقى هؤلاء مبادئ الفقه الإباضي في مجالس أبي عبيدة العلمية، ولما كان أبو الخطاب أقدر الطلبة من الناحية السياسية بايعوه بالإمامة عند عودتهم إلى المغرب سنة 140 هـ/758 م وعلى إثر ذلك

---

22. محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه (1963) ج 3، ص (135، 136، 137).

23. دبوز : المرجع نفسه، ص 182.

24. حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته (من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر) من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلاديين ط 1، بيروت، لبنان، 1992 م، ص 320.

25. موسى لقبال، المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج — سياسة ونظم ط 3، المؤسسة الوطنية — الجزائر ، ص 165.

26. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 332.

27. عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، من خلال آراء الشيخ يوسف أطفيش (1236-1332 هـ – 1818-1919 م)، نشر جمعية التراث قرارة — الجزائر، ص 44.

أسس أبو الخطاب دولته التي اشتملت على إقليم طرابلس بما فيها فزان، وعين عبد الرحمن بن رستم قاضيا، ثم استولى أبو الخطاب على القيروان بعد استغاثة سكانها بعد أن عاث فيها الصفرية فسادا(*)[28]، حيث يذكر الدرجيني، أن امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة إلى الإمام أبى الخطاب تشكو إليه جور و"رفجومة"[29] فكان أن أخرج قبيلة و"رفجومة" الصفرية من القيروان سنة 141 هـ/759 م، فامتدت دولته إلى أن عمت إفريقية، وانتشر المذهب الإباضي في كل النواحي. عندها قام أبو الخطاب بتعيين عبد الرحمان بن رستم على القيروان، وعاد أدراجه إلى طرابلس، وكان من الممكن أن يكتب لدولته البقاء والاستمرار لولا إصرار الخليفة أبا جعفر المنصور على القضاء على الدولة الناشئة قبل أن يشتد عودها وتهدد التواجد العباسي في المنطقة، فسيّر لهم جيشا بقيادة محمد بن الأشعث، فتمكن هذا الأخير من إلحاق الهزيمة بأبي الخطاب في معركة كبيرة قتل فيها عند تاورغا سنة 144 هـ/761 م[30].

لما وصلت الأخبار لعبد الرحمان بن رستم بما وقع لصاحبه وهو في الطريق لمساندته أيقن أنه لا جدوى من مواصلة مسيره، أمام إصرار المنصور على عودة المغرب الأدنى إلى الحظيرة العباسية والمحافظة على طرابلس كونها تعد الطريق الذي يصل القيروان بمصر وبغداد، عندها أدرك عبد الرحمان أن زرع الدولة العادلة في هذه الربوع لم يعد يجدي لأن الشجرة ترسخ جذورها في مجرى وادي عنيف[31].

فحمل أهله وولده ولحق بإباضية المغرب الأوسط من البربر، ونزل على لماية(*) لحلف قديم بينه وبينهم[32]، وللأخوة المذهبية[33]، ووصل وادي سوفجج، عندها

(*) الصفرية : وهم أتباع عبد الله بن الصفار و إليه النسبة، قيل سموا بذلك لصفرة وجوههم من كثرة العبادة.

28. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 321.

29. الدرجيني، أبي العباس احمد سعيد، طبقات المشايخ بالمغرب، حققه وقام بطبعه إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ج1، 26.

30. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 321-322.

31. محمد علي دبوز، المرجع السابق، ص 216-241.

(*) لماية : وهم بطون فاتن بت تمصيت، ولهم بطون كثيرة، وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط، ولما سرى المذهب الخارجي في البربر اخذوا برأي الإباضية. انظر ابن خلدون، العبر، ص 246.

32. ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1968 م، ص 247.

33. جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 م، ص 28.

اجتمع الإباضيون وبايعوا عبد الرحمان بن رستم إماما عليهم لكونه (لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه)[34]، ولعلمه باعتباره أحد حملة العلم الخمسة ولتجربته في الحكم حيث كان قاضيا لأبي الخطاب.

ويذكر الدرجيني أن أهل الخير والصلاح وذوي الآراء السديدة تشاوروا فيمن يرون لذلك أهلا من القبائل فوجدوا من كل قبيلة رأسا أو رأسين، فكل منهم أهل لذلك، فقال فضلاؤهم أن عبد الرحمان بن رستم ممن لا تجهلون فضله وهو أحد حملة العلم وعامل الإمام أبي الخطاب[35]، وبعد مبايعته إماما على أهل الدعوة الإباضية يشير الدرجيني أنهم اتفقوا على أن ينتخبوا موضعا يبنون فيه مدينة تكون حصنا لهم، فأرسلوا رجالا من ذوي المعرفة وفرقوهم في الجهات يتخيرون مكانا يصلح لبناء مدينة، ورجعوا وقد وقع اختيارهم على تاهرت[36].

لما وافق عبد الرحمان على اتخاذ منطقة تاهرت مقرا له، اتفق مع أهل المدينة وهم قوم مستضعفين من صنهاجة على أن يؤدوا إليهم الخراج من الأسواق ويسمحوا لهم ببناء المدينة فاختطوا وبنوا[37] تاهرت[38]. فكانوا يبنون بالنهار فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بناءهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلي وهي الحديثة[39].

---

34. ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين - تحقيق و تعليق محمد ناصر، إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، ص 29.

35. الدرجيني، المصدر السابق، ص 42.

36. الدرجيني، المصدر نفسه، ص 41 ياقوت الحموي : معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ج 2، ص 10.

37. ياقوت، معجم البلدان : المصدر السابق ج 2، ص 10.

38. تاهرت : مدينة كبيرة من مدن المغرب الوسط، كانت فيما سلف مدينتين كبيرتين، إحداهما قديمة والأخرى محدثة، فالقديمة منها ذات سور على قمة جبل ليس بالعالي، وبها خيرات المزارع والمياه المتدفقة، وهي في سفح الجبل يدعى جزول ولها ثلاثة أبواب باب الصفا وباب المنازل وباب المطاحن. وتتميز بقساوة المناخ. وتاهرت الحديثة في قبليها لواتة، وهوارة وغربيها زواغة وبجوفها مطماطة وزناتة ومكناسة وفي شرقيها حصن هو تاهرت القديمة أنظر : الحميري محمد عبد المنعم،كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ساحة رياض الصلح، بيروت، ص 126.

39. الدرجيني، المصدر سابق – ص 43.

وكان للموقع الحصين دورا أساسيا في اختيار المنطقة إلى جانب عوامل أخرى تمثلت في خصوبة أراضيها الزراعية وقابليتها للنمو التجاري[40] فبنى عبد الرحمان بن رستم تاهرت الجديدة بعيدة بأميال عن تاهرت القديمة وبنى الجامع في مركزها ودار الإمامة إلى جانبه ثم ابتنى الناس منازلهم وأنشأ سورا حول المساحة المبنية. وبذلك استطاع عبد الرحمان بن رستم أن يؤسس دولته سنة 160 هـ/777 م وعاصمتها تاهرت[41]، إذ لم تلبث هذه المدينة أن ازدهرت وأصبحت قبلة للتجار، والعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامي حتى أصبحت تدعى بعراق المغرب تشبيها لها بالعراق[42]، إلا أن إحسان عباس يشير أن تسمية تاهرت بعراق المغرب جاءت نتيجة لكثرة الأجناس العراقية التي هاجرت إليها من البصريين والكوفيين[43].

وكان لحسن سيرة الإمام عبد الرحمان الذي لم ينقم عليه أحد طيلة فترة حكمه، ولم تظهر في أيامه خلافات، بل عم الأمن والاستقرار[44] طوال أيام حكمه. كما أن طبيعة التنظيم الإباضي لا يقبل جباية الضرائب على المتاجر باعتبارها مغارم، من الأسباب التي شجعت التجار على ارتياد تاهرت[45]. وعندما وصلت أخبار حسن سيرة ابن رستم وعدله وتنظيمه للإدارة والاقتصاد إلى إباضية المشرق، قرروا أن يرسلوا إليه بأموال تعينه على تدعيم أركان الدولة، فبلغت حوالي ثلاثة أحمال، فقبل بها عبد الرحمان بن رستم وجعل منها (ثلثا في الكراع وثلثا في السلاح وثلثا في فقراء الناس وضعفائهم) عندها تحسنت أحوال الدولة داخليا وشرع في البناء، فاتسع العمران، وهاجر إليها الناس من كل الأمصار، وانتعش الاقتصاد وساد الرخاء.

---

40. إحسان عباس، المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين، مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية الجزائر، العدد 45 السنة الخامسة جمادى الأولى 1395 هـ ماي 1975 م، ص 21.
41. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 223.
42. أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997 م، ص 47.
43. إحسان عباس، المرجع السابق، ص 25.
44. الدرجيني، المصدر السابق، ص 42.
45. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج1،منشأة المعارف بالإسكندرية، ص 311.

ثم تلقى عبد الرحمان بن رستم معونة ثانية من المشرق بلغت عشرة أحمال من المال وكانت أحوال الدولة قد تبدلت إلا أن ابن رستم رد هذه الأموال لأنه لم يعد بحاجة إليها ورأى أن تدفع لمن يستحقها من فقراء وضعفاء أهل المشرق، فعظم شأن عبد الرحمان وزاد في قدره لدى قومه، (ورأوا أنه لو كان طالب دنيا لرغب في الأموال)[46].

وظل الحال على ذلك في أيام عبد الرحمان بن رستم إلى أن وافته المنية وتوفي سنة 171 هـ/778 م[47]، إلا أن ابن عذارى يذكر أنه توفي في سنة 168 هـ[48]. وكان قبل وفاته قد أوصى بان يختار خلفه من بين سبعة رجال من رؤساء المذهب عينهم بأسمائهم وأضاف إليهم ابنه عبد الوهاب، وبعد مناقشات بين أفراد الشورى انحصر الاختيار بين مسعود الأندلسي وعبد الوهاب، وانسحب مسعود واستقر الأمر لابنه عبد الوهاب، ربما لكونه كان أصلح الباقين وأنه ابن الإمام الأسبق فكانت الوراثة بذلك الطريق الطبيعي للدولة[49].

وعرف عبد الوهاب بأنه (ملكا ضخما وسلطانا قاهرا)[50] اكتسب من والده قوة الشخصية والجد في السياسة وتسيير شؤون الإدارة حتى أن المصادر الإباضية تقول بأنه (اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع للإباضية قبله ودان له ما لم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد من قبله)[51].

وبفضل مميزات شخصيته استطاع عبد الوهاب أن يؤمن عاصمة دولته تاهرت ويتخلص من الواصلية(*) الذين كانت لهم أطماع في الدولة بإيعاز من الأدارسة، كما

---

46. ابن الصغير، المصدر السابق، ص 32، 34، 35، 38، 40.
47. محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقتها بالمغرب الإسلامي والأندلس 160 هـ / 296 هـ) ط 3، ص 108.
48. ابن عذارى، المصدر السابق، ص 196.
49. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 324.
50. ابن الصغير، المصدر السابق، ص 43.
51. ابن الصغير : المصدر نفسه، ص 45.
(*) الواصلية : هي مذهب واصل ابن عطاء الغزال من أئمة البلاغة وعلم الكلام، وطائفته من المعتزلة.

عقد صلحا مع الأغالبة المجاورين لهم، وبذلك دعم عبد الوهاب نفوذ دولته على الصعيد الداخلي والخارجي[52]، وساد الأمن والهدوء إلى أن وافته المنية سنة 208 هـ[53].

وقد تولى الإمامة من بعده ابنه أفلح[54] وعرف زمانه بالقوة والعزة وازدهار الدولة (حتى نشأ له البنون وبنو البنين وتوسع في ملكه وابتنى القصور واتخذ بابا من حديد... وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمشتغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات)[55].

وعرفت تاهرت مظاهر حضارية في عهده لم تشهدها في الفترات السابقة[56]. فلما توفي أفلح سنة 258 هـ ترك إمامة الدولة من بعده لابنه أبي بكر وكانت الدولة قوية بقوة أركانها وحسن تسييرها، بحاجة فقط إلى من يحافظ على استمرارها، إلا أن عهد أبي بكر بن أفلح اتسم في عمومه بالضعف.

فقد عرفت الدولة فتنة ابن عرفة صهره الذي عظم نفوذه في الدولة، وانقسمت العاصمة تاهرت إلى كتل اجتماعية متنافرة لكل منها أطماع في الحكم[57]، ويذكر ابن عذارى أنه اختلفت عليه الأمور إلى أن أخرجه أهل تاهرت من المدينة ثم أعادوه إلى أن مات فيها[58]، فولى من بعده أبو اليقظان، ولما توفي أبو اليقظان سنة 281 هـ خلفه ابنه أبو حاتم، فعرفت الدولة على عهده تناحر وانقسام وصراع بين الطوائف داخل مدينة تاهرت التي تضم عدة مذاهب اسلامية(*)، إلى جانب ذلك التنافس الذي ظهر بينه وبين عمه يعقوب[59].

---

52. بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط 1، نشر جمعية التراث، القرارة 1985 م.
53. بحاز : المرجع نفسه، ص 208.
54. ابن عذارى، المصدر السابق ج 1، ص 197.
55. ابن الصغير، المصدر السابق، ص 61.
56. محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 149.
57. بحاز ابراهيم بكير، المرجع السابق، ص 122، 123، 124.
58. ابن عذارى، المصدر السابق، ص 197.
(*) من المالكية والصفرية والمعتزلة والشيعة.
59. بحاز ابراهيم بكير، المرجع السابق، ص 126.

ويصف ابن عذارى الوضع قائلا : (لما اختلف عليه الناس واضطرب أمره، وقامت بينه وبين أهل تيهرت حروب عظيمة إلى أن خرج منها وولى أهلها يعقوب بن أفلح إلا أنه لم يدم طويلا فخلع وعاد الأمر إلى أبي حاتم بن أبي يقظان الذي دخل تاهرت ثم قتله بنو أخيه سنة 294 هـ، فوليها يقظان بن أبي يقظان)[60]، الذي قاطعته الإباضية لأنه اغتصب الحكم، فلم ينصروه[61]، فاضطرب أمره إلى أن تم قتله من قبل أبي عبيد الله الشيعي وذلك في شوال سنة 296 هـ، أين انتهت دولة بني رستم في تاهرت[62]، حينها يمكن القول أن تاهرت عرفت أوج ضعفها بعد إمامة أفلح بن عبد الوهاب ومع ذلك نشهد لها ازدهار وتقدم حضاري رفيع وأمن مستقر ورخاء. ومما لا شك فيه أنها عرفت اهتمامات كبيرة بالعلم والمعرفة ففيما تمثل اهتمام الرستميين بالعلم ؟

لما بدأت الحركة الإباضية في انتشارها بالمغرب الأوسط على شكل حركة علمية تربوية[63] كونت سلطة روحية وسياسية تمثلت في الدولة الرستمية عاصمتها تاهرت، لذلك فإن الفكر في تلك الربوع قد انحصر في تعاليم المذهب الإباضي.

ولما كان من شروط الإباضية العلم في تولي الإمامة في الدولة، كان معظم الحكام الرستميين من العلماء لذلك لم يكن من الغريب أن يولي هؤلاء عناية فائقة بالعلم، فبرزت لهم نشاطات تنبض بالحيوية في نشره تمثلت في بناء دور للتعليم ونشرها بين جميع طبقات المجتمع التاهرتي، فنبغوا في العلوم الدينية، واهتموا بمختلف فنون العلم الأخرى، حتى أن بعض المؤرخين يردون سبب انهيار دولة بني رستم وسقوط العاصمة تاهرت لانشغالهم بالعلم وانكبابهم عليه وأهملوا دعائم الدولة الأخرى كتكوين جيش نظامي يسهر على حماية الدولة من الأخطار الخارجية.

---

60. ابن عذارى، المصدر السابق، ص 197.
61. بحاز ابراهيم بكير، المرجع السابق، ص 126.
62. ابن عذارى، المصدر السابق، ص 197.
63. عمرو خليفة النامي، ملامح عن الحركة العلمية بورجلان ونواحيها منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري، مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية الجزائر، العدد 43/42، ص 15.

وقد ساهمت عدة عوامل في ازدهار الحياة الثقافية والاقتصادية في الدولة، خاصة تشجيع أهل المشرق لها وتدعيمها ماديا ومعنويا مما أدي إلى ازدهار تاهرت العاصمة خلال القرنين الثاني والثالث الهجري بصورة مطردة، وأضحت مدينة حاضرة تضاهي قرطبة والقيروان وغيرها من المدن الشهيرة في درجة العلم[64].

1. دور الأئمة الرستميين في إنعاش الفكر بتاهرت :

لما أدرك الأئمة الرستميون أن الحفاظ على الشريعة الإسلامية وترسيخ المبادئ الإباضية في أذهان الناس أقوى من السيطرة عليهم بالقوة[65] ولكونهم من العلماء، ساهموا في نشر العلم والمعرفة بين مختلف طبقات المجتمع التاهرتي[66]، فكانوا يرون أن ثمرة العلم العمل به[67]، لذلك أقاموا المجالس والحلقات العلمية بالمساجد وغيرها، يلقنون الناس الدروس في فنون العلم خصوصا العلوم الشرعية مثل (الأصول والفقه والتفاسير وفنون الرد على المخالفين وعلم اللغة والنحو والإعراب والفصاحة)[68]. ولم يقتصر الأئمة في تلقين الدروس على مجالس العلم فقط بل بالمسجد كذلك[69]، وبذلك يثبت ما يرويه "الشماخي" عن أحد الرستميين أنه قال (معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعلم منزلة يبيت فيها القمر)[70].

حرص الأئمة بتاهرت على تزودهم بالعلم من خلال اقتناء الكتب وقراءتها مما أثمر في انتعاش العلوم الدينية[71] وأضحت تاهرت بذلك من المراكز الثقافية الكبرى

---

64. بن يوسف الشيخ سليمان داود، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، 1993 ص 60.
65. عبد الحفيظ منصور، السياسة الداخلية للإمارة الرستمية (160–296 هـ / 909 – 777 م) رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية قسم التاريخ 1421–2001 م، ص 223.
66. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ج 2، ص 574.
67. محمد علي دبوز، المرجع السابق، ص 369.
68. الشماخي : المصدر السابق، ص 193.
69. سليمان داود بن يوسف، مجهودات الدولة الرستمية في نشر الحضارة الإسلامية، الأصالة منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 50/49 السنة السادسة رمضان، شوال 1397 هـ سبتمبر، اكتوبر 1977 م، ص 95.
70. الشماخي، المصدر السابق، ص 193.
71 عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص 89.

في بلاد المغرب، يؤمها الطلاب من سائر الانحاء[72]، كما قصدتها مختلف الفرق والمذاهب نظرا لتسامح الأئمة مع أتباع المذاهب الأخرى على الرغم من كثرة المناظرات والجدل الذي اشتد بين الأتباع، وكان لا بد من التسلح بوسائل العلم والمعرفة لإيجاد الحجة والإقناع مما فتح المجال نحو حرية التعبير، فظهرت المناظرات التي أدت بدورها إلى البحث دوما على طرائق الاستدلال القائمة على العقل لمجابهة النظير[73] فكان ذلك من عوامل تطور الفكر جعل من تاهرت مركز إشعاع ثقافي بفضل اعتناء وتشجيع أئمتها.

لقد كان الإمام عبد الرحمن بن رستم (160 هـ – 171 هـ) (776 م – 787 م) من كبار العلماء فقد كان يقضي وقت فراغه في الدرس والتدريس والتأليف[74]، فألف كتابا في تفسير القرءان[75] وآخر عبارة عن ديوان خطب[76]، ولا يستبعد أن يكون الإمام يلقي دروسا على المصلين يوم الجمعة في مسائل دينية مختلفة[77]، بالرغم من أن ابن الصغير لم يشر إلى ذلك سواء لعدم إطلاعه أو سماعه بمؤلفات عبد الرحمان بن رستم وهذا ما نستشفه من حديثه عن الإمام عبد الوهاب (لم يكن لأبيه عبد الرحمان كتاب معروف من تأليفه)[78].

ولا شك أن شغف عبد الرحمان بالعلم واهتمامه به قد أورثه لأبنائه من بعده لذلك عرف ابنه عبد الوهاب خليفته في الإمامة (171 هـ – 208 هـ) (787 م – 823 م) بالعلم وحبه له لأنه ترعرع في بيت علم على يد أبيه عبد الرحمان وبعض العلماء أمثال أبو داود القبلي وغيرهم[79].

---

72. محمود اسماعيل عبد الرازق : الخوارج في المغرب الإسلامي دار العودة، بيروت، ص 222.
73. عبد الحفيظ منصور المرجع السابق، ص 223.
74. محمد علي دبوز، المرجع السابق ص 372.
75. الشماخي، المصدر السابق، ص 193.
76. عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص 220.
77. بحار ابراهيم بكير، المرجع السابق، ص267.
78. ابن الصغير، المصدر السابق، ص 45.
79. أبي زكرياء بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، حققه إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 3، الجزائر، 1984، ص 100.

فكان لهذا الإمام دورا كبيرا في تنشيط حركة العلم بتاهرت إذ يذكر أبو زكريا أن عبد الوهاب بعث ألف دينار إلى إخوانه من أهل المشرق بالبصرة ليشتروا له بها الكتب، فلما وصلهم المال اجتمعوا واتفقوا أن يشتروا بها ورقا وحبرا وأقلاما وعولة الكتاب وأخذوا في النسخ فنسخوا له أربعين حملا من الكتب فبعثوا بها إليه[80]، فلما بلغته قيل أنه تجرد من ثيابه إلا السراويل وشمر وجد في قراءتها ليلا، فكانت تلك عادته إذا فرغ من الصلاة ينظر كتابا وكان ذلك حتى في بعض أوقات النهار، فلما ختمها قال : "الحمد لله" إذ وجدت جميع ما فيها محفوظا عندي ولم استفد منها إلا مسألتين ولو سئلت عنها لأجبت فيها قياسا[81].

فكان ذلك تعبيرا عن سعة علمه وقابليته للاكتساب مهما كانت الظروف سواء في حر الصيف أو برد الشتاء[82]، فإصراره على التحصيل المعرفي، دفعه ذات ليلة هو وأخوه (يتعلمان مسائل الفرائض فلم يصبح عليهما إلا وهما يورثان أهل المشرق وأهل المغرب)[83].

كما تتفق معظم المصادر والمراجع على سعة علم الإمام أفلح بن عبد الوهاب (208 هـ – 258 هـ) (823 م – 871 م)، ويبدو أنه سلك سيرة أبيه في التدريس حيث يذكر الشماخي عن أبي زكرياء (أنه قعد بين يديه أربع حلق قبل بلوغه يتعلمون منه فنون العلم)، فنبغ في الفقه والأصول والنحو وعلم الغبار والنجامة[84]، وانفرد بأقوال في علم الكلام[85].

وكان الإمام أفلح دوما يحث الطلبة على العلم وطلبه، ويشير بحاز ابراهيم إلى ما ذكره الوسياني عن الإمام قال (عليكم بدراسة كتب المسلمين لاسيما كتاب أبي سفيان محبوب بن الرحيل)[86]، هذا ما يعكس حرص الإمام على تحصيل الطلبة العلم

---

80. الشماخي، المصدر السابق، ص 162.
81. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 574.
82. أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 99.
83. محمد علي دبوز، المرجع السابق، ص 372.
84. الشماخي والمصدر السابق، ص 139.
85. علي يحي معمر، الإباضية في الجزائر، الحلقة الرابعة، ج (1)، ص 69.
86. بحاز ابراهيم بكير، المرجع السابق، ص 270.

لبناء مجتمع متحضر. كما برع الإمام في الأدب فكان شاعرا إذ عرف عنه أنه ألف ديوان شعر[87] من ضمنه قصيدة يحث فيها الطلبة ويشجعهم على العلم فقال :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا يُريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حي وان مات ذو علم وذو ورع ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا

ثم يقُول :

العلم در له فضل ولا أحد في الناس يدري لذاك الدر مقدارا
للعلم فضل على الأعمال قاطبة عن النبيء روينا فيه أخبارا
يقول طالب علم بات ليلته في العلم أعظم عند الله أخطارا
من عابد سنة لله مجتهدا صام النهار وأحيى الليل أسهارا

– كما اشتهر الإمام أفلح بعلم الحساب والفلك[88].

وعن الإمام أبي بكر (258 هـ – 261 هـ) (871 م – 874 م) : يذكر "ابن الصغير" أنه كان (يحب الآداب والأشعار، وأخبار الماضين) فمن البديهي أن يكون الإمام قد نبغ في الآداب والأشعار وعلم التاريخ، وأن هذه العلوم عرفت ذروتها ونشاطها في عهده[89]. وفي إمامة أبي اليقظان محمد بن أفلح (261 هـ – 281 هـ) (874 م – 894 م) يذكر "علي يحي معمر" أن هذا الإمام ثابر في استدراك إمارته لما فاتها من ازدهار ونمو خلال الفتن والحروب واشتغل بطلب العلم[90] حيث جمع ما بين العلم والعمل فبلغ في فنون العلم الكثير حتى أن نفوسه كانت لا تعدل عهده إلا بعهد جده "عبد الرحمن"، وكانت تتخذ من باب داره مسجدا، إذ كانوا يتدارسون حوله، فمنهم قُرّاء للقرآن ومتحدثين في فنون العلم، ومنهم من يجعله مصلى له. كما عرفت له كتبا كثيرة في الاستطاعة "بلغت أربعين كتابا[91] وتآليف أخرى في الرد على أهل الخلاف[92].

87. محمد علي دبوز، المرجع السابق، ص 375.
88. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 457.
89. يحاز ابراهيم، المرجع السابق، ص 271.
90. علي يحي معمر، المرجع السابق، ص 75.
91. الشماخي، المصدر السابق ص (221-222).
92. الدرجيني، المصدر السابق ، ص 84.

وكان الإمام كأسلافه شغوفا بإلقاء الدروس لما له من رصيد علمي واسع، إذ تتلمذ على يديه العديد من الطلبة من بينهم "ابن الصغير" الذي كان يحضر مجالسه العلمية[93]، ويذكر هذا الأخير عن نفسه ذلك حيث يقول (وقد لحقت أنا بعض أيامه وحضرت مجلسه)[94]، وقد ترك الإمام رسائل منها رسائله في القرآن الكريم[95].

أما الأئمة المتأخرين فلا شك أنهم حذوا حذو أسلافهم في العلم والاعتناء به رغم أن عهدهم عرف بتراجع قوة الدولة سياسيا واقتصاديا وبداية تحرش الشيعة بإمارة تاهرت[96].

ويتضح ذلك من خلال جواب يعقوب بن افلح لسؤال أهل "ورجلان"، عما إذا كان يحفظ القرآن فرد يعقوب (معاذ الله أن ينزل على موسى وعيسى ما لم أحفظه وأعرف معناه فكيف بكتاب أنزله الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم)[97]. كما عبر لهم عن ضعف أهل الدعوة واستحالة إحياء الإمامة في "وارجلان" في قوله المشهور : "لا يستتر الجمل بالغنم".

2. علاقة تاهرت العلمية بالمشرق والمغرب :

لما كان التبادل الثقافي والتنوع الفكري بين الدول من أهم العوامل التي تبعث روح الحيوية والنشاط في الحياة العلمية، كان الأئمة الرستميون في طليعة الذين حرصوا على بناء علاقات علمية من شأنها أن تغذي الحياة الفكرية بربوعها لما لهم من صلة بالمشرق، نظرا للارتباط المذهبي، ضف إلى ذلك علاقات الرستميين بجيرانهم المغاربة القائمة على سياسة حسن الجوار، وبناء على ما سبق نتساءل إلى أي مدى ساهمت تلك العلاقات السياسية والفكرية في ازدهار الحركة العلمية بتاهرت ؟.

93. عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص 223.
94. ابن الصغير، المصدر السابق، ص 92.
95. عبد الحفيظ منصور المرجع السابق، ص 223.
96. بحار ابراهيم، المرجع السابق، ص 273.
97. أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 190.

كان من مظاهر اهتمام الرستميين في تاهرت بالعلوم الدينية، اجتهادهم في آداء ركن من أركان الإسلام وهو الحج، فمن خلاله يتسنى لهم التقرب أكثر من الله عز وجل والإطلاع على العلوم الشرعية هناك، خصوصا من المغاربة البربر الذين حسن إسلامهم، فكانت تخرج من تاهرت قوافل لآداء فريضة الحج[98]، وليس أدل على ذلك ما عزم عليه الإمام عبد الوهاب على المسير إلى الحج، فنزل "نفوسة"، غير أن أهلها منعوه من ذلك خوفا عليه من أن يحبسه بنو العباس فتتعطل شؤون المسلمين[99]. ولا شك أن تلك القوافل من الحجاج كانت لها اتصالات بمشائخ المشرق وعلمائه، فقد كان "لابن محبوب" وأبيه من علماء المشرق خيام تعرف بمضارب محبوب وكان يقصدها المغاربة لأخذ العلم[100].

لم يكن الحج الوسيلة الوحيدة التي ينهل من خلالها الحجاج علوم ومعارف المشرق بل كانت هناك رحلات العلماء طلبا للعلم ولا تعطينا المصادر نماذج كثيرة عن تلك الرحلات العلمية سوى رحلة "بكر بن حماد" الشاعر التاهرتي الذي زار بغداد والبصرة وكان له أن التقى بعلمائها، و"عبد العزيز بن الأوز" الفقيه، كما زار نفاث بن نصر النفوسي بغداد، الذي نسخ ديوان "جابر بن زيد" الأزدي العماني في بغداد والذي اختلف مع الإمام "أفلح" حين أفتى في مسالة من المسائل التي لم يرضى عنها، ولما هدده هذا الأخير لجأ إلى المشرق، وكانت له مع الخليفة العباسي لقاءات واستطاع "نفاث" أن يحل له مسألة حين عجز علماء بغداد عن حلها، ومقابل ذلك نال جائزة تمثلت في ديوان جابر بن زيد الأزدي إمام المذهب الإباضي، وقد قدم به إلى تاهرت[101] ولا شك أنه قد أثرى به المكتبة على الرغم من أن المصادر الإباضية تشير إلى أنه أخفاه...

وتتحدث المصادر عن الإمام أبي اليقظان الذي سبق له وأن زار المشرق وأودع السجن، قبل توليه الإمامة، حيث أظهر علمه الواسع مما جعله محل تقدير واحترام،

98. بحاز ابراهيم، المرجع السابق، ص 392.
99. أبو زكريا، المصدر السابق، ص (114، 115).
100. بحاز ابراهيم، المرجع السابق، ص 392.
101. المرجع نفسه، ص 394.

وهناك تعلم الإمام فنون السياسة وتسيير الإدارة والحكم، وليس من المستبعد أن يكون له إطلاع على فنون العلم، لذلك أراد الإمام أن تستفيد تاهرت من كل ذلك، فجمع بين العمل والعلم كما ذكرنا سابقا، لذلك شبهت أيامه بأيام جده عبد الرحمان بن رستم[102].

وبالمقابل كان المشارقة يفدون إلى تاهرت، حيث زار "أبو غانم بشر بن غانم" الخراساني "تاهرت" ووفد على الإمام "عبد الوهاب" ومعه مدونته المشهورة في الفقه، التي أودع منها نسخة منها في مكتبة المعصومة بتاهرت[103]، ومما لاشك فيه أن يزور تاهرت العديد من الإباضيين المشارقة هروبا من بطش بني العباس بهم، فنشطت حركة الهجرة إلى تاهرت. والأكيد أن لأولئك العلماء الذين زاروا المشرق والوافدون منه، دورا كبيرا في نقل العلوم والمعارف إلى تاهرت وإثراء حركة العلم بها. خاصة ونحن ندرك مدى عناية الأئمة الرستميين واهتمامهم بجلب الكتب من المشرق ونخص بالذكر الإمام عبد الوهاب والأحمال التي جاءته من إخوانه بالبصرة فاجتهد في قراءتها هذا علاوة عن الرسائل التي كان يبعث بها علماء تاهرت إلى علماء المشرق يستفتونهم في أمور دينهم[104].

وتذكر المصادر أن الإمام عبد الوهاب أرسل إلى علماء المشرق يستفتيهم في أمر ابن فندين وافتراقه، فيعمل بموجب ما يرونه ويجيبونه فحمل الأمناء رسالته (فلما بلغوا مصر صادفوا بها شعبيا أبو المعرف وشيعته فقصوا عليه الأخبار وما جرى من موت الإمام عبد الرحمان واتفاق الناس على تقديم عبد الوهاب وذكر يزيد بن فندين الشرط الذي اشترطه وسألوا سائر علماء الدين بها فجاءت الفتوى على أن الإمامة تامة والشرط باطل)[105].

---

102. بحاز ابراهيم بكير، المرجع السابق، ص (394-395).
103. الشماخي، المصدر السابق، ص 228.
104. بحازر ابراهيم، المرجع السابق، ص (395-396).
105. الشماخي، المصدر السابق، ص (146-147).

وعندما لم يتسن للإمام عبد الوهاب الذهاب للحج بناءا على منع أهل نفوسة له وقولهم... (لسنا ندعك أن تمض مخافة عليك من المسودة أن يأخذونك ويحبسونك، فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله وأحكامه(، عندها أرسل الإمام إلى إخوانه بالمشرق من ذوي العلم والورع المقدمين في ذلك العصر، أبو عمر الربيع بن حبيب وابن عباد، فأجابه الربيع بأن من كان مثله) في العناء لأمور المسلمين وتحمل أمانتهم وخاف على نفسه من المسودة أن يبعث لحجه وهو حي).

أما عن ابن عباد فرد عليه أنه من كان مثله (على الصفة المذكورة من العناء لأمور المسلمين فليس عليه حج، لأن أمان الطريق من الشروط التي يجب بها الحج على من استطاعه)[106]. فكان إذا لتلك العلاقة العلمية بين تاهرت والمشرق ثمارها في تنمية الفكر وازدهاره بتاهرت. ونظرا لما تتميز به تاهرت من موقع يتوسط دول المغرب، كانت تشكل مركزا تجاريا هاما ونقطة التقاء القوافل التجارية من شتى المدن المغربية[107]، فليس من المستبعد أن تكون تلك الحيوية التي عرفتها التجارة في تاهرت قد واكبها نشاط فكري[108]، فكان التجار يفرغون سلعهم وينشرون علومهم ومعارفهم خاصة وأن البعض منهم كان يجمع بين العلم والتجارة.

وتزامن ذلك مع ما عرفته القيروان عاصمة الأغالبة من حركة علمية نشيطة، إذ زخرت بدور العلم والعلماء وتعددت بها فنونه، فلم تكن تلك العاصمة بمعزل عن تاهرت بل كانت هناك حركة تأثير وتأثر، سواء عن طريق قوافل الحج، أو التجارة أو تنقل العلماء، فكان لهؤلاء دور هام في نشر معالم الحضارة العربية الإسلامية، خصوصا وأن أهل القيروان هم مزيج من العرب والبربر، فكان من العرب علماء يحضرون حلقات العلم بتاهرت منهم محمود بن بكر[109] الذي كان (يرد على الفرق في مقالاتهم ويؤلف الكتب في الرد على مخالفيهم)[110]، لذلك من المحتمل أن أولئك

---

106. أبو زكريا، المصدر السابق، ص 115.
107. بحاز ابراهيم، المرجع السابق، ص 194.
108. المرجع نفسه، ص 382.
109. جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 111.
110. ابن الصغير، المصدر السابق، ص 93.

العلماء كانوا على اتصال مع إخوانهم العرب بالقيروان، فأسهموا بذلك في عملية التبادل الفكري، وفتح مجال الزيارات العلمية الأخرى للعلماء من القيروان إلى تاهرت خصوصا من الإباضيين أمثال أبو عبد الله فضل، سعيد الحدائي، وأبو الغدير الهواري وغيرهم نظرا لأن تاهرت كانت مركز إمامة المذهب[111].

وبحكم التسامح المذهبي الذي كان سائدا في الإمارة الرستمية، فقد وجد بها جامع خاص بالقرويين يضم بالخصوص علماء وشيوخ المذهب المالكي، الذين لعبوا دورا كبيرا في انتعاش حركة الفكر بتاهرت من خلال مشاركتهم في الجدال والمناظرات التي كانت تعقد مع علماء الإباضية وكان لعلماء تاهرت أن جابوا القيروان لكسب العلوم العربية وآدابها فربما قصدوا بيت الحكمة التي تعد أول مدرسة إفريقية للعلوم العربية[112].

أما عن علاقة تاهرت العلمية "بفاس" عاصمة الدولة الإدريسية، فقد عرفت هذه الأخيرة حركة علمية بارزة جعلت منها منطقة التقاء العلماء من كل صوب وخاصة الوافدين إليها من القيروان وقرطبة. فليس من المستبعد أن تكون تاهرت من بينهم، فساد التبادل الفكري بذلك بين تاهرت وفاس[113]، غير أن المصادر والمراجع لا تذكر الكثير عن حركة التأثير والتأثر بينهما.

والشأن نفسه مع "بني مدرار" أصحاب "سجلماسة"، فلا تذكر المصادر سوى حركة تأثير المذهب الإباضي في العاصمة الصفرية وتواجد بعض علمائه كابن الجمع الذي عرف بغزارة علمه. ويبدو أنه اشتغل بالتدريس في سجلماسة وكان من أبرز تلامذته "أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي" الذي بلغ من العلوم ما لم يبلغه معاصروه، لذلك كان مرجع سجلماسة خصوصا في المسائل الفقهية[114]. ومن المرجح أن يكون هناك تبادل فكري بين علماء الإباضية في سجلماسة وإخوانهم في تاهرت، فنشّط هذا الاحتكاك الحياة العلمية والفكرية في المنطقة.

---

111. جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 111.
112. بحاز ابراهيم، المرجع السابق، ص (383-385).
113. جودت ابراهيم، المرجع السابق، ص 119.
114. بحاز ابراهيم، المرجع السابق، ص 385.

وأما قرطبة عاصمة الأندلس التي اشتهر فيها علماء بني أمية بحبهم للعلم وتمجيده، فقد اهتموا بالعلوم الدينية واللغوية، حيث كانت رحلاتهم تشد إلى المشرق للاستفادة من علوم اللغة والأدب وغيرها من كتب التاريخ والدواوين الشعرية ثم يعودون إلى الأندلس بمختلف العلوم، وهكذا إلى أن اشتهرت قرطبة كإحدى أهم العواصم الإسلامية العلمية.

ولما كانت تاهرت تتمتع بموقع هام لحركة التجارة والتنقل من المغرب إلى المشرق، فقد كانت منطقة عبور لعلماء الأندلس إلى المشرق نظرا لما عرفته تاهرت من حركة علمية آنذاك، فمن المحتمل أن يكون هناك تأثير وتأثر بين علماء قرطبة وتاهرت[115].

ومن العلماء الأندلسيين الذين وفدوا إلى تاهرت نذكر منهم الغازي بن قيس، زياد بن عبد الرحمان اللخمي، عباس بن ناصح، ويوسف بن يحي أبو عمر وهو من طليطلة، ولما كان هؤلاء بحاجة إلى النظر والاستفادة من علوم الفقه المالكي، فمن المؤكد أنهم جالسوا علماء المالكية في تاهرت وكانت لهم بذلك مناظرات مع الإباضية.

وبالرغم من عداء بني أمية لمذاهب الخوارج باعتبارها بدعا كما يقولون، إلا أن موقفهم من المذهب الإباضي كانت له نظرة مغايرة وذلك بسبب اعتداله واقترابه من المذهب المالكي لذلك شد العديد من علماء تاهرت الإباضية رحالهم إلى الأندلس، وكان لهم أن أطلعوا على العلوم بها واتصلوا بعلماء الأندلس[116].

ثانيا : المراكز التعليمية في تاهرت

بناءا على حرص الرستميين في الحفاظ على العقيدة الإسلامية، كان المسجد ثاني أهم مبنى أقامه عبد الرحمن بن رستم بعد بناء تاهرت لأداء العبادة. ولم يقتصر دور المسجد على هذا الجانب فقط بل اتخذوه مؤسسة علمية تلتقي فيها عامة الناس

115. جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص (167-168).
116. جودت عبد الكريم، المرجع نفسه، ص (169-170).

لتلقي العلم خاصة وأن الرستميين كانت لهم اهتمامات بمختلف العلوم الشرعية فكان المسجد المؤسسة الأولى لتعليم شؤون الدين من قرآن وأحاديث، ولغة و غيرها من فنون العلم. ويذكر عن الإمام عبد الوهاب أنه قضى سبع سنوات بجبل نفوسة يدرس مسائل الصلاة بالمسجد وليس من المستبعد أن يكون قام بنفس الأمر في مساجد تاهرت[117]. أما التعليم المسجدي في العهد الرستمي فيتم على مراحل، المرحلة الأولى هي مرحلة الكتاتيب، أما الثانية فهي مرحلة الحلقات والمجالس العلمية[118].

1. الكتاتيب

تعد الكتاتيب أقدم مؤسسة تعليمية ظهرت في صدر الإسلام، وكان انتشارها في المغرب مع قادة الفتح الإسلامي، حيث نصب هؤلاء الخيام لتعليم أبنائهم القرآن الكريم والكتابة. ولعل كلمة "الكتاب" تعني المكان الذي يحفظ فيه الصبيان القرآن الكريم ويتعلمون فيه الكتابة، و هناك من يقول أن الكتاب تعني الصبيان أنفسهم.

ولما كانت الإمارة الرستمية تعج بالمساجد فقد كانت هذه الأخيرة تخصص مكانا خاصا لتعليم الصبيان القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم[119]، فانتشرت الكتاتيب في كل مكان بجانب المساجد وكان ذلك لغرضين : أو لهما أن الصبيان الذين يتلقون التعليم في الكتاب لم يبلغوا سن الرشد، فكان يحترز من النجاسة عند دخولهم المسجد الذي يشترط فيه الطهارة، وثانيهما أن طبيعة العلوم التي تدرس في الكتاتيب وهي دينيه، مرتبطة بما يقام بالمساجد، كاللغة العربية وتعلمها والتي تعد الوسيلة الوحيدة لقراءة القرآن الكريم[120].

والكتاب مقر بسيط مفروش بالحصير، يتربع فوقه التلاميذ، ويعلوهم المعلم بمصطبة من سرير أو كرسي، يحمل في يده قضيبا، ولاشك أن المعلم كان يستخدمها لتخويف أو لضرب كل من تهاون أو تماطل في حفظ لوحه من القرآن،

---

117. عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص 133.
118. بحاز، المرجع السابق، ص 276.
119. عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص (136-137).
120. بحاز، المرجع السابق، ص (176-177).

وغالبا ما يكون العقاب بالفلقة(*) داخل الكتاتيب. ويتم حفظ القرآن بواسطة لوح الخشب، حيث يكتب عليه التلميذ ثمن الحزب، أو ربعه، أو حسب إمكاناته في الحفظ ويلجأ التلميذ إلى المحي بالماء وغالبا ما يكون ذلك في الفترة الصباحية. وهناك من يمحي لوحه مرتين في اليوم حسب قدراته، وكان المعلّم بالكتاب لا يتقاضى أجرا من الدولة، بل يتحصل عليه من أولياء التلاميذ، وليس كأجرة مقابل العمل، بل كعطاء مقابل أداء الواجب على أكمل وجه والمتمثل في مبلغ سنوي أو شهري، وعادة ما يكون ذلك قدرا من القمح أو الشعير أو التمر[121].

ولا تقتصر الكتاتيب على تحفيظ القرآن الكريم فحسب، بل تعداه إلى تدريس الفقه والحديث والنحو وغيرها، وذلك لغرض تهيئة التلميذ للتبحر في مختلف العلوم فيما يعرف بحلقات العلم أو المجالس العلمية.

2. الحلقات والمجالس العلمية

لقد كانت الدروس الدينية من فقه وحديث وتفسير، وغيرها من العلوم الأخرى تلقى في الجلسات العلمية التي تقام بالمساجد وتسمى حلقات العلم يقصدها العامة والخاصة خصوصا من الطلاب[122]، ويعود الفضل الأول في انعقاد تلك الحلقات إلى الخمسة الأوائل الذين تلقوا التعليم بالبصرة وعلى رأسهم عبد الرحمان بن رستم في نقل نظام الحلقات والمجالس العلمية من البصرة إلى المغرب[123]، إذ تعد أهم دور للتعليم حيث تفتح مجالا للاستزادة والتخصص في إحدى فنون العلم. وإذا استوفى الصبي مرحلة تلقي الدروس في الكتاب ورغب في التبحر في مختلف العلوم انتقل إلى تلك الحلقات للتوسع في دراسة العلوم[124].

(*) الفلقة : إذا تهاون التلميذ في حفظ اللوح أو ارتكب خطأ ما، يأمر المعلم كبار تلاميذه بمسكه و الضغط على رجليه ومدهما فيضربه بالقضيب الطويل ضربا يتفاوت بحسب درجة الخطأ الذي ارتكبه.

121. عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص 137-138.

122. بحاز، المرجع السابق، ص 281.

123. بحاز : المرجع نفسه، ص 285.

124. محمد علي دبوز، المرجع السابق، ص 371.

وكانت الجلسات العلمية عادة ما تعقد بين الصلوات أو بعد صلاة الصبح وقد خرّجت تلك الحلقات فطاحل العلماء الذين تنافسوا في مجال العلم والمعرفة وعقدت بينهم المناظرات حتى عرفت الحياة العلمية في تاهرت بالمناظرات الفقهية والكلامية، لاسيما وأن مختلف الفرق والمذاهب كانت تحضر تلك المجالس، وبها كان ينتصب العلماء المعلمين، حيث يمنحونهم كل ما يضمن لهم الحياة اللائقة ويوفر لهم الراحة النفسية بهدف المزيد من الجد والعطاء، وكانوا يمكنونهم من الارتحال إلى الأقطار العلمية الأخرى لزيادة المعرفة واقتناء الكتب[125]، ونتيجة لذلك حرص عموم العلماء على تلقين الدروس حتى في المنازل، وعليه لم تكن تلك الحلقات العلمية بالمساجد، وحدها التي تقوم بمهمة التعليم بل كان للمنازل أيضا دور في ذلك[126]، ويذكر الشماخي أن الإمام أبا اليقظان ضرب سرادقه(*) لأمر أراده ولما برز بنفسه وعلم الناس بخروجه، خرج إليه القُرّاء والفقهاء وضربوا أخبيتهم حوله[127].

لذا فإن العلم في تاهرت لم يتخذ مكانا معينا بل كان منتشرا في الجوامع والمساجد والمنازل مما جعلها مركزا هاما لتلقي العلوم العقلية والنقلية ونشر الحضارة العربية الإسلامية في بلاد المغرب.

3. المكتبات

يعتبر الكتاب عنصرا مهما ودلالة واضحة على مدى نشاط حركة الفكر وتطورها، والمكتبة المكان الحافظ له، فإلى أي مدى نشطت حركة التأليف واقتناء الكتب ونسخها في إمارة تاهرت ؟

---

125. عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص 134.
126. دبوز، المرجع السابق، ص (176-177).
(*) سرداق، جمع سر دقات، فهو ما أحاط بالبناء.
127. الشماخي، المصدر السابق، ص 223.

لقد اهتم الأئمة الرستميون بشراء الكتب واستيرادها من مختلف الجهات القريبة والبعيدة، ومنها ازدهرت حركة التأليف، فكان الإمام عبد الرحمان بن رستم في طليعة الذين ألفوا في التفسير – كما ذكرنا ذلك سابقا[128].

وتتحدث المصادر عن الأموال الطائلة التي صرفها الرستميون في سبيل اقتناء الكتب من المشرق، وتشير إلى الإمام عبد الوهاب الذي بعث بألف دينار إلى إخوانه بالبصرة لشراء الكتب، فسهروا على نسخها و بعثوا له أحمالا منها، كذلك ما قام به عمروس بن فتح النفوسي من نسخ مدونة أبي غانم بشر بن غانم الخرساني والتي تقع في اثني عشر جزءا، ويذكر "بحاز إبراهيم" أن نسخة عمروس باقية إلى اليوم لأن النسخة التي تركها أبو غانم في تيهرت كانت قد أحرقت مع الكتب الأخرى من قبل الشيعة[129].

وإذا كان الشماخي تحدث عن خزانة الكتب التي اقتناها الإمام عبد الوهاب، فلا شك أنها كانت النواة الأولى نحو تكوين المكتبة[130].

وبذلك اشتهرت تاهرت بمكتبة المعصومة التي ضمت حوالي ثلاثمائة ألف مصنف في مختلف فنون العلم، خصوصا كتب ودواوين المذهب الإباضي[131].

فمن المؤكد إذا أن هذه المكتبة وما تحتويه من أمهات الكتب المتنوعة كانت مقصدا للطلاب والعلماء للتزود من كنوزها، وعليه تعد المكتبة من أبرز دور التعليم في تاهرت إلى جانب الكتاب والحلقات العلمية بالمساجد.

وقد اشتهرت مكتبة المعصومة بتاهرت بأن اغلب كتبها من تأليف علماء وأئمة المذهب الإباضي، وعلى هذا الأساس فإنه بمجرد دخول الفاطميين أرض المغرب ومحاولة منهم لطمس المذهب المخالف لهم أقدموا على حرقها بعدما اخذوا منها ما يهمهم في شؤون الحكم وباقي فنون العلم كالرياضيات وأضرموا النار فيما تبقى من كتب خاصة تلك التي تتعلق بشؤون المذهب الإباضي ودواوينه[132]، فلولا هذا العمل

128. عبد الحفيظ-(منصور، المرجع السابق، ص 127.
129. بحاز، المرجع السابق، ص 288، 289.
130. الشماخي، المصدر السابق، ص 222.
131. عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص 128.
132. عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص 128.

لكانت تلك المكتبة قد زودتنا بأخبار الحياة العلمية في تاهرت من خلال مصنفاتها بكل دقة وإنصاف، على الرغم من أن بعض الكتاب يبرئ الشيعة من قيامهم بهذا العمل.

ثالثا : العلم والعلماء في تاهرت

سبق وأن أشرنا إلى دور الأئمة الرستميين والعلماء في تطوير الحركة العلمية في تاهرت من خلال منجزاتهم الفكرية ونشاطاتهم في مجال العلاقات الثقافية خصوصا مع المشرق، والتي نجم عنها ثراء ونشاط دور التعليم بمختلف فنون العلم خاصة الدينية، نجد أن تلك الحركة كان لها دورا كبيرا في تعميق العقائد والأصول الفقهية وكل ما يتعلق بالمبادئ الإسلامية في أذهان المغاربة، لذلك فقد اهتموا بتدريسهم أصول المذهب الإباضي وفروعه وسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، والتفسير والحديث وسير الخلفاء الراشدين وباقي بحور العلم.

وعليه عرفت تاهرت حركة علمية مزدهرة تضاهي مثيلاتها في القيروان، وقرطبة وفاس من خلال تطور وانتشار العلوم والمعارف. وفي هذا السياق نشير إلى أهم العلوم وأبرز روادها في تاهرت.

أ : العلوم النقلية :

1. التفسير :

لما كان القرآن الكريم مصدر التشريع و استخلاص الأحكام فقد كان بمثابة المرجع الرئيسي في تنظيم حياة البشرية، لذلك اجتهدت العرب في توضيح وشرح ألفاظه ومعانيه، وإن واجههم غموض رجعوا إلى (رسول الله صلى الله عليه وسلم)، على الرغم من أن القرآن قد نزل باللغة العربية. ونظرا لعدم احتكاك المغاربة باللغة العربية إلا بعد الفتح الإسلامي، لذلك فقد عكف علماء تاهرت على شرح الألفاظ القرآنية وتفسير معانيها ولا يستبعد أن يكونوا قد استخدموا طريقة الشرح اللفظي في التفسير من العربية إلى البربرية، شفويا حتى يفهمها معظم المغاربة[133].

---

133. أبو زكريا، المصدر السابق، ص (102-103-105).

وربما يكون قد تطلب ذلك جهدا كبيرا من قبل الأئمة الرستميين نظرا لاهتمامهم المتزايد في نشر العقيدة الإسلامية على طريقة المذهب الإباضي فيتولون بأنفسهم مهمة التدريس في حلقات العلم في المساجد، إضافة إلى تواجد متخصصين في تفسير أحكام القرآن الكريم، خصوصا فيما يتعلق بالعبادات من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج كونها تعد أهم سلوكيات الحياة الإسلامية التي يجب على المغاربة البربر كسبها[134].

ولأجل ذلك نجد الإمام عبد الوهاب قد أرسل إلى أهل نفوسة يطلب منهم أن يبعثوا له جيشا يكون فيه رجل عالم بفنون التفسير، للرد على الواصلية، وهو محمد بن يانس الذي قدم تاهرت وخاطب الإمام قائلا (أما أنا يا أمير المؤمنين، فقد كفيتك فنون التفاسير إن شاء الله)[135].

وما هذه الراوية إلا دلالة على اهتمام البيت الرستمي بعلم التفسير، فقد حدث وأن تناظر ابن الصغير المالكي المذهب مع سليمان المكني بأبي الربيع وهو إباضي، في تفسير قوله تعالى : "واللائى يئسن من المحيض من نسائكم (إلى قوله) واللائى لم يحضن"، وفي أخذ ورد بينهما، سكت أبو الربيع ولم يرد، فلما أعلم ابن الصغير غيره بما دار بينهما أخبره أن المراد من قوله تعالى :واللائى لم يحضن "التي لم يخلق فيهن الحيض وهن الكبار لا الصغار، فرد عليه ابن الصغير بأن "لم" لا توضع للمستقبل ولو أراد ما قلت لكان موضع "لم"، "لا" فيقال لا تحيض فلانة إذا نفوا عنها المحيض أي ليست ممن تحيض، وإذا قيل لم نحض فلانة معناه أنها لم تحض بعد وأنها ستحيض في المستقبل"[136].

وللحديث عن مؤلفات البيت الرستمي في علم التفسير، تذكر المصادر تفسير عبد الرحمان بن رستم[137] – وقد أشرنا إلى ذلك سابقا – ويذكر الشماخي تفسير

---

134. ابن الصغير، المصدر السابق، ص (118-119-120).
135. بحاز، المرجع السابق، ص (176-176).
136. ابن الصغير، المصدر السابق، ص (118-119-120).
137. الشماخي، المصدر السابق، ص 381.

هود بن محكم الهواري والذي يصفه بأنه (عالم متفنن غائص، وهو صاحب التفسير المعروف. وهو كتاب جليل في تفسير كتاب الله لم يتعرض فيه للنحو والإعراب بل سلك فيه على طريقة المتقدمين في التفسير)[138].

ويعتمد على أحاديث نبوية شريفة، وكذا على بعض الروايات كمصادر في تفسيره - وقد حظي هذا التفسير بمكانة مهمة لدى الإباضية. ويذكر أنه اختصم رجلان على الكتاب حتى كادت الحرب تشتعل بين عشيرتيهما مما حدى الأمر بأبي جمال المدوني أحد فقهاء الإباضية، تقسيمه مناصفة وطلب من كل واحد أن ينسخ القسم الذي لم يكن من حظه. ويقع تفسير هود بن محكم الهواري في مجلدين كبيرين يتناول فيه أسباب النزول معتمدا على أحاديث نبوية، ويشير في أغلب الأحيان إلى مصادره كابن عباس ومولاه عكرمة وابن الكلبي ومجاهد وغيرهم. ولم يسلك هود في مصنفه هذا طريقة النقل فقط، بل كان في أغلب الأحيان يسوق الرواية فينفيها نفيا قاطعا. وما يميز كتابه هذا هو استخراجها لمعاني الآيات، وما تضمنته من أحكام[139].

2. الحديث :

لقد عرف هذا النوع من العلم ضعفا لدى علماء البيت الرستمي ويظهر ذلك من خلال اعتماد الإباضية في المغرب على مؤلفات علم الحديث للعلماء الإباضية في المشرق، ومن ذلك مسند الربيع بن حبيب الأزدي الفراهيدي العماني، وأحد علماء القرن الثاني للهجرة، الذي تولى رئاسة الإباضية في البصرة بعد أبى عبيده مسلم بن أبي كريمة، وكان قد عاصر إمامة عبد الوهاب، ولما كان هذا الأخير شغوفا بالاستطلاع وجلب الكتب من المشرق فليس من المستبعد أن يكون كتاب الربيع بن حبيب في الحديث من بينهم وقد أولاه الإباضية في المغرب عناية فائقة، ولا شك أنه كان ضمن مقتنيات مكتبات "تاهرت" ولم يظهر في العموم اهتمام البيت الرستمي كثيرا بعلم الحديث، إلا ما ذكر عن اهتمامات بعض العلماء مثل عمروس

---

138. بحاز، المرجع السابق، ص 303.
139. المرجع نفسه، ص 301.

بن فتح، وأبا عبيده الأعرج، مع أن مجهودات هؤلاء في هذا العلم لا تزال غير معروفة.

أما عن العلماء غير الإباضية في تاهرت، فيشير بحاز إلى أن تاهرت" قد أخرجت كثيرا من حفاظ الحديث وثقات المحدثين "فربما المقصود منهم علماء المالكية بتاهرت أمثال أبو عبد الرحمان بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي التاهرتي عالم الحديث، كما يشير إلى أن بكرا بن حماد اختلف مع قاسم بن أصبغ في كلمة من حديث نبوي، ولما تحاكما إلى شيخ كان موجودا بالجامع الذي وقع فيه الحديث، ظهر خطأ بكر بن حماد، وإصابة قاسم بن أصبغ، فأخذ بكر بأنفه وراح يقول : رغم أنفي للحق... وعلق المقري على هذه الرواية بقوله : "هذه الحكاية دالة على عظيم قدر الرجلين"[140]، مما يدل على اهتمام بكر بن حماد بعلم الحديث، وعنه أخذ العديد من العلماء، منهم قاسم بن أصبغ، وابنه عبد الرحمان بن كر بن حماد، وقاسم بن عبد الرحمان التميمي التيهرتي[141].

3. الفقـه :

إن التمعن في آيات وسور القرآن الكريم واستخلاص أحكام الشرع عمل ضروري يستلزم حياة بشرية منتظمة، ويتجلى ذلك في معرفة الحلال والحرام، وذلك ما يعرفه ابن خلدون في مقدمته بقوله : "هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين... وهي متلقاة من الكتب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه".

وقد شغف بنو رستم بتاهرت باستخراج الأحكام من أصولها الشرعية، لذلك برز منهم العديد من الفقهاء من القضاة والمفتين وحتى المدون الضابط لهذا العلم. ومع تسامح الرستميين المذهبي ازداد علم الفقه حيوية ونشاطا، إذ كان محل تنافس ومناظرات بين الإباضية والمالكية والحنفية والصفرية والمعتزلة والشيعة، مما فتح

---

140. بحاز : المرجع السابق، ص 309.

141. المرجع نفسه، ص 312.

ذلك المجال أمام الإباضية في تاهرت نحو الاجتهاد أكثر في كسب العلم لمواجهة النظير. وهذا يحيلنا إلى ذكر الأئمة الرستميين ومجهوداتهم في ميدان الفقه. لذلك تقلدوا الإمامة في تاهرت، حيث بلغت هذه الأخيرة في عهدهم منزلة فقهية رفيعة خصوصا في عهد الإمام عبد الوهاب الذي نشط في جلب الكتب من المشرق ودراستها. ولما قرأها حمد الله على أنه لم يجهل منها إلا مسألة أو مسألتين[142]. وممن اشتهر من فقهاء تاهرت أبي عبيدة الأعرج الذي كان مشهود له بالفضل والعلم وإذا أختلف الناس في الفقه رجعوا إليه. وقد جلس ابن الصغير المالكي مؤرخ الدولة الرستمية إليه وقال عنه : "فما رأيت في سود الرؤوس رجلا أخشع منه"[143].

وكان من أهل سجلماسة وغيرهم من بلاد المغرب من يبعثون إليه بزكاة أموالهم يصرفها حيث يشاء.ومنهم عبد العزيز بن الأوز الذي كان له في الفقه باع[144]. ومن جملة الفقهاء والخطباء كذلك في تاهرت عيسى بن فرناس النفوسي، وابن الصغير الهواري إذ كان لهما شأن في الفقه، وأبو الربيع سليمان، وعثمان بن أحمد. ومن المتضلعين في الفقه ابن أبي إدريس، أحمد التيه، وأبي العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار، وأحمد بن منصور. ويجدر بنا أن نذكر أولئك الفقهاء الذين رشحهم عبد الرحمن بن رستم للإمامة مع ابنه عبد الوهاب وهم : أبا الموفق سعدوس بن عطية، شكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سدمان، ومسعود الأندلسي، وأبا قدامة يزيد بن فندين، وعمران بن مروان الأندلسي. وكان لهؤلاء منزلة رفيعة في العلم والفقه.لذلك كان ترشيحهم للإمامة التي يشترط فيها العلم، هذا إلى جانب أن المدرسة التاهرتية خرّجت العديد من الفقهاء أمدوا أمتهم بعلم الفقه منهم بوارجلان مثل الفقيه الشيخ يعقوب بن يوسف بن سهلون السدراتي المعروف بالطرفي[145].

142. بحاز : المرجع السابق، ص 312.
143. ابن الصغير : المصدر السابق، ص 95.
144. ابن الصغير : المصدر نفسه، ص 98-99. الشماخي : السير، ص 223-224.
145. بحاز : المرجع السابق، ص 313-314-319-320.

ب : العلوم العقلية

1. علم الكلام :

ويطلق عليه أيضا علم المنطق، كان الناس يتدارسونه في كل الأوقات، وذلك لإشباع حاجتهم من هواية الجدل والمناظرة. وكان هذا النوع من الثقافة شائعا في بغداد إبان القرن الثالث الهجري، ونظرا للارتباط العلمي بين المشرق وتاهرت عرف هذا النوع من العلم شيوعا واشتهرت به تاهرت، وهذا ما رفع من شأن المناظرات بها[146] خصوصا بعد ظهور الفرق التي انشقت عن المذهب الإباضي، فبرزت الفرقة النكارية[147]، التي قالت بعدم شرعية إمامة عبد الوهاب، بدعوى عدم توفر شرط العلم ووجود علماء أعلم منه وأحق بالإمامة، والفرقة الخلفية[148] التي رأت ضرورة استقلال جبل نفوسه عن الإمامة بحكم بعد الجبل عن مقر الإمامة، وتجزم بأن إمامة أفلح بن عبد الوهاب غير جائزة إذ تنقصه القدرة على تسيير شؤون الدولة. فاشتركت هذه الفرق في محور جدل واحد تمثل في مسالة الإمامة.

وإزاء ذلك ظهرت فرقة الوهبية[149] للرد على مخالفيها بالحجة، وازدادت حدة المناظرات بينهما خاصة عندما أخذت تلك الفرق تقول في المسائل الفقهية إلى درجة خروج بعضها عن تعاليم الدين الإسلامي، في نظر الوهبية إذ قالوا فيهم (إذا أصبحت ولم تجد ما تتصدق به فالعن النكار)، مما يدل على حدة الخلافات المذهبية التي كانت ما بين النكارية والوهبية واعتبروهم خارجين عن الدين. وقالت الفرقة النفاثية بان الله هو الدهر الدائم، وقد كان لهذا الكلام ردود فعل. ونتيجة لهذه الخلافات ظهرت تآليف ودواوين تدافع عن معتقدات واجتهادات كل فرقة، وظهرت مؤلفات ورسائل، منها رسائل بعث بها الإمام أفلح إلى نفاث بن نصر زعيم

---

146. النكارية : هم الذين انكروا إمامة عبد الوهاب، لذلك سميوا بالنكار.

147. الخلفية : نسبة إلى خلف بن السمح.

148. النفاثية : نسبة إلى نفاث بن نصر النفوسي، الذي ظهر في عهد الإمام أفلح واتهمه بانحرافه إلى أمور اللهو والصيد، فهو لا يستحق الإمامة.

149. الوهبية : يقال أنها نسبة إلى شيعة الإمام عبد الوهاب.

الفرقة النفاثية يعظه تارة ويأمره بالتوبة عن معتقداته الباطلة، ويتوعده تارة أخري إن لم يتراجع عن آرائه[150].

ويبدو أن ما أقدم عليه الإمام عبد الوهاب لما اشتد خلافه مع الواصلية طلب من نفوسة أن ترسل إليه جيشا مع علماء نفوسة المتضلعين في مناظرة المخالفين للرد على الواصيلة التي أضحت تهدد و تنافس الوجود الإباضي.

فلبت نفوسه طلب الإمام وبعثت له الشيخ مهدي النفوسي. ويذكر الدرجيني أنه عند وصوله تاهرت كان يغيب أياما ويظهر أياما قليلة[151]، قبل انعقاد المناظرة، فلما سئل عن سبب غيابه، قال (إني رددت إلى دين الله سبعين عالما من أهل الخلاف في غيبوبتي عنكم)[152]، ولما حان موعد المناظرة مع الواصلية، وتعمق المتناظران في بحور العلم التي لم يفقهها أغلبية الناس الحاضرين، ما عدا الإمام عبد الوهاب. وأخذت المناظرة في التعمق أكثر حتى أن الإمام ذاته لم يفهمها سوى المتناظران. وفي النهاية تمكن مهدي النفوسي من الانتصار على خصمه الواصلي وكبر أصحابه ابتهاجا بالنصر.

ويبدو أن المناظرة عبرت عن مستوى علمي رفيع لدرجة أن الإمام عبد الوهاب ذاته لم يتسنى له مجاراتها رغم علمه الواسع، وهذا المستوى الذي نتحدث عنه يجعلنا نتساءل عن مضمون المناظرة، فيشير بحاز إلى أن الشيخ بكري يقول أنه يحتمل أن تكون مواضيعها حول صفات الله، وطبيعة القرآن، والحياة الأخرى[153].

كما دارت مناظرات كلامية بين الإباضة والمعتزلة حول مسألة المكان، حيث يذكر الشماخي أنه تناظر مع عبد الله بن اللمطي الذي كان غاية في علم الكلام ومن المقربين للإمام أبي اليقظان، وكان قد سأله زعيم المعتزلة (هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه إلى مكان لست فيه، قال : لا، قال هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه إلى مكان أنت فيه فقال : إذا شئت)[154].

---

150. بحاز ابراهيم ، المرجع السابق، ص (330-331).
151. الدرجيني، المصدر السابق، ص 60.
152. أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 106.
153. بحازر، المرجع السابق، ص 337.
154. الشماخي، المصدر السابق، ص 222، 223.

وعليه فإن المسائل الكلامية التي كانت بين مد وجزر، قد جعلت العلماء يطّلعون أكثر للتعمق في المسائل الدينية الفقهية وغيرها من فنون العلم، فأثرت تلك المناظرات الحياة العلمية في تاهرت.

2. اللغة العربية :

عرف عن سكان المغرب أنهم من أغلبية بربرية، لم يحتكوا بالعرب إلا بعد الفتح الإسلامي وهجرة القبائل العربية إلى تلك البقاع. وعند قيام الدولة الرستمية، سكن تاهرت العديد من العرب، وهو الأمر الذي فسره إحسان عباس في مقاله عندما أرجع تسمية تاهرت "بعراق المغرب" نظرا لكثرة العناصر العراقية من البصريين والكوفيين كما هاجر إليها العديد من القرويين وكان لكل منهم مسجد معروف بهم ورحبة[155].

فإذا كانت تاهرت بهذا الشكل في تركيبتها الاجتماعية من العنصر العربي فمن المؤكد أن تشكيلتها اللغوية كانت بذلك القدر، حيث عاشت اللغة العربية إلى جانب البربرية، وقد عنى الأئمة الرستميون باللغة العربية كونهم يدركون أن لا حياة فكرية من دونها، فهي لغة علوم الدين من فقه وغيرها من فنون العلم لذلك حرصوا على تعليم البربر اللغة العربية لتحسين إسلامهم ومعرفة شؤون دينهم. ولقد استخدم الرستميون اللغة البربرية إلى جانب اللغة العربية في حلقات العلم بالمساجد وذلك تسهيلا للبربر على فهم الدين الإسلامي. وكانت هناك كتابات نثرية كتبت باللغة البربرية منها تلك الرسائل التي بعثها الأئمة الرستميون إلى الرعية لكنها كانت تصدر باللغة العربية إذا كان يترجمها الشيخ أبو سهل النفوسي إلى البربرية في عهد الإمام افلح وكذا الإمام أبي حاتم يوسف بن أبي يقظان[156].

ومجمل القول أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية في الدولة الرستمية بفضل عناية الأئمة الرستميين بها فكان (من تعلم حرف من العربية كمن تعلم ثمانين مسألة من الفروع وتعلم مسألة الفروع كعبادة ستين سنة)[157].

---

155. إحسان عباس، المرجع السابق، ص 25.
156. إحسان عباس، المرجع السابق، ص 25.
157. بحار، المرجع السابق، ص (347-348).

3. النحو :

لقد كانت المدرسة البصرية بالمشرق قبل غيرها أولى المراكز التي اشتغلت بعلم النحو، ونظرا لاهتمام علماء تاهرت باللغة العربية وقواعدها، كان من الممكن أن ينتقل هذا العلم مع المذهب الإباضي إلى تاهرت. إلا أنه تعسر على سكان تاهرت ذوي الأغلبية البربرية من استيعابه لأنهم كانوا يحاولون التحدث بالعربية دون النظر إلى القواعد والنحو[158].

ومع ذلك فقد تحدث ابن الصغير عن أبي عبيدة الأعرج الذي كان عالما بالنحو واللغة ويذكر أنه أتاه يوما يسمع منه كتاب إصلاح الغلط الذي ألفه عبد الله بن مسلم بن قتيبة علي أبي عبيدة معمر بن المثنى – كما يذكر ذلك الشيخ سليمان داود يوسف –[159] فلما افتتح قراءته قال : (لعل ناظرا في كتابنا هذا ينفر من عنوانه ويستنفر من ترجمته ويربا بأبي عبيدة عن الزلة (فلم يهمزه ولم يمده فقال له :يربا بأبي عبيدة بهمزة الألف وضمه)[160].

ولما كانت تاهرت صاخبة بمختلف الأجناس، عرفت تعدد اللغات واللهجات بها وهذا التعدد أنجب شخصية يهوذا بن قريش التيهرتي الذي يقول عنه الكماك أنه كان (عالما بجميع تلك اللغات متضلعا فيها).

وحاول بذلك يهوذا المقاربة بين تلك اللهجات واللغات المنتشرة بتاهرت والمقابلة بينهما بعد تنظيرها، حيث ترك كتابا في هذا المجال، أكد فيه على أن العربية والعبرية والكنعانية والبربرية ذات أصل واحد، وعليه يكون يهوذا التاهرتي أول من وضع أسس النحو التنظيري[161].

---

158. نفسه ، ص 344.
159. المرجع نفسه ص 351-352.
160. بحار، المرجع السابق، ص (351-352).
161. الشيخ سليمان داود بن يوسف، المرجع السابق، ص 59.

4. الأدب العربي :

لم يكن للأئمة الرستميين بتاهرت اهتمامات معتبرة بالأدب العربي، بل شغفوا بالدراسات الدينية. ولم تذكر المصادر سوى الإمام أبي بكر الذي يقول عنه ابن الصغير أنه كان محبا للآداب والأشعار، ولعله عرف الأدب ذروته إلا في عهده[162]. كما لا توجد سوى بعض المقطوعات النثرية والشعرية التي تتناثر في بعض الكتب، كالرسائل التي وجهها الأئمة الرستميون إلى الخارجين عنهم، وبعض القصائد الشعرية[163].

– النثر والشعر : لقد تفوق النثر الأدبي في ظل البيت الرستمي على نظم الشعر، وذلك لسهولة استيعابه، وقلة التعمق في أسرار اللغة ومكوناتها[164]. فقد برز النثر في الوصايا، والخطب، والرسائل، والأقاصيص التعليمية، وفيما يتعلق بالرسائل الديوانية، فيذكر عن الإمام عبد الوهاب أنه أرسل إلى أهل نفوسه في مسألة اعتلاء خلف بن السمح ولاية نفوسة بعد وفاة أبيه دون إذن من الإمام، ومما جاء في تلك الرسالة ما يلي :

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أما بعد فإني آمركم بتقوى الله تعالى، واتباع لما أمركم به، والانتهاء عما نهاكم عنه، والذي كتبتموني به من وفاة السمح وتولية بعض الناس خلفا منهم، ورد أهل الحيز ذلك فإن مولى خلفا بغير إذن إمامه قد أخطأ سيرة المسلمين..."[165].

كما كان للإمام أفلح بن عبد الوهاب عدة رسائل بعث بها إلى رعيته، منها تلك التي وجهها إلى نفاث بن نصر الذي كان قد خرج عن طاعته، حيث هدده بالعنف، ويظهر ذلك من خلال عبارات رسالته إذ لم يبتدئها بالبسملة، كدليل على شدة غضبه نذكر ما جاء فيها قوله : "من أفلح بن عبد الوهاب إلى نفاث بن نصر، أما بعد".

---

162. ابن الصغير، المصدر السابق، ص 96.
163. بحاز، المرجع السابق، ص 356.
164. عبد الحفيظ منصور : المرجع السابق، ص 92.
165. الدرجيني، المصدر السابق، ص 69.

فالحمد الله المنعم علينا والمحسن علينا الذي بنعمته تتم الصالحات ولا يهتدي مهتد إلا بعونه وتوفيقه فله المنة علينا ولا منة لنا عليه. وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه وجعلنا خلفا بعد أسلافنا الصالحين وأئمتنا المهتدين...

وقد كتبت إليك غير كتاب أنصح لك فيه وأدعوك إلى رشدك وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك إلا ما أكره ولا أرضاه لدين ولا دنيا حتى حررت كتابا منشورا على عمالنا أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين وابتدع غير طريقتهم وسار بغير سيرتهم وبنفيه وهجره وإقصائه... وإني غير كاتب إليك كتابا بعد هذا إلا أن انتهى إلينا منك ما نحبه فننزلك من أنفسنا بحيث تحب والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".

ومن هذه النماذج نلتمس خصائص النثر من إيجاز العبارة وصحة الألفاظ والتسلسل المنطقي، وبساطة الخطب، مما يوحي بجمال أسلوب الأئمة الرستميين وتمكنهم من البلاغة، والكتابة النثرية بقدر قيمة الهدف أو الموقف[166].

وتألق في هذا الفن من الأدب الإمام افلح بن عبد الوهاب، وذلك لحرصه الكبير على تعليم الطلبة وتشجيعهم على طلب العلم، وقد كتب قصيدة في هذا السياق وكنا قد أدرجنا منها أبياتا له في السابق – وهي تقع في أربعة أربعين بيتا، ونذكر منها أبياتا أخرى يحث فيها على طلب العلم :

أشدد إلى العلم رحلا فوق راحلة * وصل إلى العلم في الآفاق أسفارا
واصبر على دلج الأغساق معتسفا * مهامه الأرض أحزانا وأقطارا
حتى تزورا رجالا في رحالهم * فضلا فأكرم بأهل العلم زوارا

وتبعا لذلك ختم قصيدته فيقول :

وكن بربك لا بالناس معتصما * كفى بربك رزاقا و غفارا
خير العبادة عبادة الله إن له * لطفا خفيا يرد العسر أيسارا
سبحانه الصمد لا شيء يشبهه * أقررت لله بالتوحيد إقرارا

166. بحاز، المرجع السابق، ص (357، 358، 359).

ومن أبرز شعراء تاهرت نجد الشاعر بكر حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي التاهرتي، الذي ارتحل إلى المشرق سنة 217 هـ حيث كان التقائه بشعراء عصره أمثال :دعبل الخزاعي، وأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وأبي الحسن علي بن الجهم، حيث تأثر بكر بهؤلاء واتسعت مداركه في الشعر، كما كان ارتحاله إلى القيروان أين احتك بأناس عريقين في عروبتهم، كان لديهم رصيدا مما اكتسبوه من تطور الشعر عند العرب المشارقة، فكان لذلك تأثيره على لسان بكر بن حماد في الشعر فعرف بنبوغه فيه ونظم في أغراضه المختلفة كالوصف، والمدح، والهجاء، والرثاء، والزهد[167].

ونذكر بعض ما ورد عنه من قصائد شعرية، في غرض الاعتذار، والزهد، والهجاء فيقول الشاعر بكر في أبيات يستعطف فيها الإمام أبي حاتم يوسف ويعتذر إليه :

أبا حاتم ما كان بغضة ... و لكن أنت بعد الأمور أمور
فأكر هني قوم خشيت عقابهم ... فدار يتهم و الدائرات تدور
و أكرم عفو يؤثر الناس أمره ... إذا ما عفا الإنسان و هو قدير

و في الزهد و التصوف يقول :

أين البقاء و هذا إلموت يطلبنا ... هيهات يا بكر بن حماد
بينا ترى المرء في لهوا و في لعب ... حتى تراه على نعش و أعواد

وأما في الهجاء، فد عارض عمران بن حطان في قصيدته الهجائية التي يهجو فيها الإمام علي بن ابن طالب – رضي الله عنه – و يمدح قاتله عبد الرحمن بن ملجم فيقول :

قل لابن ملجم و الأقدار غالية ... هدمت و يلك للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم ... وأول الناس إسلاما و إيمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما ... سن الرسول لنا شرعا و تبيانا

---

167. بحاز، المرجع السابق، ص (361، 362، 363).

ثم يقول :

فلا عفى الله عنه ما تحمله و لا سقي قبر عمران بن حطان[168]

والجدير بالذكر،أن الشعر في تاهرت أخذ القول بالبربرية إلى جانب الشعر العربي إذ يبدو من خلال ما ذكره الشماخي عن زيديت بنت عبد الله الملوشائية لما كانت (قاعدة مع النساء وقد اجتمعن لعمل الصوف وأخذن يغنين فوعظتهن وزجرتهن وذكرتهن أمر الميعاد والحساب والقبر والموت بكلام بالبربرية له وزن وحلاوة)[169]. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن الشعر البربري لم يكن يدون بل تتناقله الشفاه[170].

ومن الملاحظ أن الشعر في تاهرت لم يلق عناية من قبل الأئمة الرستمين إذ لم تنفق أموال على الشعراء مثلما فعل المشارقة وأمراء الأندلس[171].

5. التاريخ :

إننا نشاطر بحاز فيما ذكره عن لفظة "التاريخ" كعلم، كلمة متطورة جدا عن فترة الدراسة. ومن خلال المصادر، نجد أن ابن الصغير في حديثه عن الإمام أبي بكر يذكر أنه كان محبا لأخبار الماضين، فمن الواضح أن الرستميين في تاهرت قد اهتموا بما يعرف "بالأخبار" عن أسلافهم من شيوخ المذهب الإباضي مشرقا ومغربا، فضلا عن أخبار الإسلام والمسلمين في صدر الإسلام.

ومن المؤلفين في علم التاريخ نجد لواب بن سلام بن عمروس، وكتابه "شرائع الدين" إذ يعتبر هذا الكتاب أقدم سيرة في شمال أفريقيا، على حد قول ليفيسكي، وقد روى فيه ابن سلام نبذا عن أخبار أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) كما احتفظ برسائل للإمام عبد الوهاب، منها رسالة إلى أهل طرابلس، وأخرى من عالم مشرقي

---

168. بحاز، المرجع نفسه، ص (363-364-365-366).
169. الشماخي، المصدر السابق، ص 317.
170. بحاز، المرجع السابق، ص 346.
171. عبد الحفيظ، منصور، المرجع السابق، ص 92.

إلى المغرب والتي تخص مسألة خلف بن السمح، وكان له حديث عن فقهاء المذهب الإباضي ووجودهم بالبلدان. وكثيرا ما كانت مصادره شفوية من علماء المغرب، وبعض الكتب المشرقية[172].

وعن أخبار الرستميين، اشتهر كتاب ابن الصغير، المالكي الذي بدأ تأليفه في أخبار الأئمة الرستميين منذ ولاية عبد الرحمن بن رستم حتى الولاية الثانية لأبي حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان بن أفلح، ويتوقف في السنوات القليلة السابقة لسقوط الدولة الرستمية[173].

ومن خصائص منهج ابن الصغير في نقل الروايات الإباضية خاصة، الأمانة التامة، كما تذكر وداد القاضي، ويحركه في ذلك العامل الأخلاقي، والأمانة العلمية إن صح التعبير، بحيث تقول : (وكانت له أي لعبد الرحمان بن رستم - قصص حكوها، لا يمكن ذكرها إلا على وجهها، وإن تم الصدق فيها، ولا أحرفها عن معانيها، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها إذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوي المروءات ولا من أخلاق ذوي الديانات).

فأمانة ابن الصغير العلمية، دفعته إلى استخدام حسه النقدي للروايات، كونه يتصف بصفة المؤرخ النزيه، فكان يشير في رواياته إلى النقص، وفعل ذلك عندما ذكر رواية خبر حبس آبي اليقظان ببغداد حيث لم يسم له من كان الخليفة المقتول ولا من كان الخليفة آنذاك، وعند ملاحظته الاختلاف في الرواية يعلق بقوله (والله أعلم)[174].

فكتاب ابن الصغير من أهم المصادر الذي يمكن أن يعتمد عليها في معرفة أخبار تاهرت والدولة الرستمية. استند ابن الصغير في تغطية أخباره تلك على مصدرين هما : الرواية الشفوية، إذ يذكر أنه اعتمد على أحمد بن بشير ابن أحد المقربين من الإمام أبي اليقظان، والمشاهدة المبنية على معايشته لمجرى الأحداث في الدولة الرستمية

172. بحاز، المرجع السابق، ص (367-368-369).

173. وداد القاضي، ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية، مجلة الأصالة، العدد 45، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر 1387 هـ/1977 م، ص 40.

174. بحاز ابراهيم، المرجع السابق، ص (367، 368 ،369).

أما عن الجغرافيا، فلا تذكر المصادر والمراجع عن اهتمام الرستميين بها كعلم لكن بالنظر إلى اتساع التجارة في تاهرت، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وكذا كثرة التنقلات في أغراض مختلفة، من قوافل الحج، وطلاب العلم، وهواية الترحال التي تدخل في إطار حب الاستطلاع والوصف فيتطلب كل ذلك المعرفة الجغرافية للمواقع والبلدان، والأسواق والآبار وغير ذلك من متطلبات السفر[175].

6. الطب :

لما كان البيت الرستمي بيت العلم في مختلف فنونه[176]، ونظرا لحاجة الإنسان للتطبيب فمن المؤكد أن علم الطب وجد ضالته إلى جانب العلوم الأخرى التي ازدهرت في تاهرت.

والملاحظ أن رواد هذا العلم كانوا قليلين جدا بتاهرت، ولما كانت هذه الأخيرة قد عرفت بكثرة الأجناس مع اختلاف دياناتهم، منهم اليهود الذين كان لهم درب بتاهرت يعرف بالرهادنة، والنصاري حيث توجد كنيسة واحدة على الأقل.

وقد اشتهر فيهما كثرة الأطباء، مما يجعلنا نعتقد وجود أطباء من الديانتين بتيهرت، أما عن الرستميين فقد برز في علم الطب من أحفاد عبد الرحمان بن رستم وهو، محمد بن سعيد، إلا أن المعلومات عن دوره في إثراء الدراسات الطبية في تاهرت ناقصة جدا[177].

7. الحساب والفلك :

لقد كان من بين الأئمة الرستميين الذين برزوا في علم الحساب، الإمام أفلح الذي بلغ في (حساب الغبار والنجامة مبلغا عظيما)[178]. وحساب الغبار عبارة مشتقة من الأرقام الغبارية التي كان يستخدمها سكان الهند بحيث كانوا (يأخذون غبارا

175. بحاز، المرجع نفسه ، ص (371-372-373).
176. أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 99.
177. بحاز، المرجع السابق، ص (373-374).
178. أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 136.

لطيفا ويبسطونه على لوح من خشب أو غيره ويرسمون عليه الأرقام التي يحتاجون إليها في عملياتهم الحسابية ومعاملاتهم التجارية)[179] ولما كانت للمرأة مكانتها العلمية في تاهرت فقد اشتهرت أخت الإمام أفلح التي برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم[180] حيث يذكر أبو زكرياء أن الإمام أفلح قال لها ذات ليلة (هلم نحسب ماذا يذبح في السوق غدا أولا، إن شاء الله، فحسب، فقال لها أفلح، إن أول ما يذبح في السوق بقرة صفراء وفي بطنها عجل، غير أن الذي رأيته، هو طرف ذنبه أبيض تعممه على جبهته، فحلته أبيض الجبهة ذاغرة، وإنما ذلك طرفه ذنبه)[181].

وقد اشتهر علماء تاهرت بعلم الفلك، ويبدو أنه استخدم لغرضيين الأول ديني والثاني دنيوي، فالأول يرتبط في معرفة أوقات العبادات من صلاة وصوم وغيرهما، والثاني يتعلق بالأعمال التجارية ومعرفة الجهات الأربعة وسير القوافل وكذا التنبؤ بالأحوال الجوية[182].

والظاهر أن هذا العلم كان يستهوى الرستميين إذ قال جد أفراد الأسرة (معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعرف منزلة القمر).

أما علم الحساب والفلك فقد توارثه البيت الرستمي ابتداء من عبد الرحمن بن رستم (الذي كان يعلم مسبقا أن سلالته ستلي أرض المغرب على آخر إمام وهو يعقوب بن أفلح الذي نظر في النجوم أن الإباضية أو أسرته انقرضت أيامها وزال ملكها ولا يعود إليها إلى يوم القيامة)[183].

وعلى العموم فهذه هي العلوم والمعارف التي زخرت بها تاهرت وازدهرت بها بفضل علمائها وعناية الأئمة الرستميين بها.

---

179. بحاز، المرجع السابق، ص 575.
180. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 575.
181. أبو زكرياء، المصدر السابق، ص (136-137).
182. عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص 90.
183. بحاز، المرجع السابق، ص (375-376).

المحور الثالث

الحياة الثقافية في ورجلان

1. نظام الحلقة ودوره في ازدهار الحركة العلمية
2. تمويل طلبة العلم والإنفاق عليهم
3. التنافس العلمي
4. إرساء تقاليد الحلقة

الحياة الثقافية في ورجلان

1. نظام الحلقة ودوره في ازدهار الحركة العلمية

شهدت مدينة وارجلان حركة ثقافية لم تعرفها مواطن الإباضية الأخرى بعد سقوط الدولة الرستمية سنة 296 هـ (909 م)، إذ كانت وارجلان وريثة الحركة العلمية في تاهرت. وأهم ما يميز الحياة الثقافية في هذه الحقبة التاريخية هو إنشاء نظام خاص للتعليم لم يعرفه أتباع المذهب الإباضي قبل هذه الفترة، حيث حدد مهام القائمين على نظام التعليم كشيخ الحلقة والعرفاء المساعدين له. كما تم وضع نظام تربوي دقيق لحلقة الدرس مثل أوقات الدراسة، وطريقة الامتحانات، والعقوبات.

فأما الشيخ فيعد هو المسؤول المباشر على حلقات العلم. فهو الذي يحدد المناهج المقررة، ويشرف بنفسه على قبول الراغبين في الانضمام والانخراط في هذه الحلقات. وأما العرفاء فتكمن وظيفتهم في رعاية الطلبة، ومراقبتهم في أوقات الدراسة، وأوقات الراحة. ونظرا للاهتمام الجاد بالتعليم عند أتباع المذهب الإباضي منذ ظهور حلقات جابر بن زيد وأبي عبيده مسلم بن أبي كريمة في البصرة فقد وضعت شروطا قاسية يجب أن تتوفر في المعلم، منها أن يكون عاملا بعلمه ويعمل بما يعمل، ولا يقول ما لا يفعل. وفي حالة عدم توفر هذا الشرط الأساسي فإنه لا يسمح له بالتدريس. كما يجب أن يتميز بالشفقة على المتعلمين ويرفق بهم ويساعدهم على الفهم والتعلم، فالقسوة المبالغ فيها تجعل الطلبة ينفرون منه، بالإضافة إلى أن يكون مقتنعا بأن هذا العمل التربوي الذي يقوم به هو لوجه الله تعالى، فلا يطلب مقابلا ماديا عن ذلك.

وعليه فإن نظام العزابة الذي أرسى قواعده أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي. هو نظام تربوي قبل أن يكون نظاما اجتماعيا. لذلك اعتنى شيوخ العزابة بتعليم أهل الدعوة من الطلبة، فوضعوا لهم المناهج الدراسية. وتتفق المصادر الإباضية أن أهل الحلقة صنفان : آمر ومأمور.فالآمر اثنان : شيخ الحلقة أو نائبه والعريف، والعريف صنفان : عريف منفرد وعريف غير منفرد. فالمنفرد عريفان :عريف أوقات الختمات والنوم، وعريف العرفاء وهو الذي يعلم الطلاب القرآن الكريم.أما العريف غير المنفرد فهو العريف الذي يشرف على أوقات الدراسة.وفي بعض الحالات يكون عريفا واحدا أو أكثر حسب الحاجة. أما المأمور ويعنى الذين يتلقون الأوامر، وهؤلاء ثلاثة أصناف : طلبة القرآن الكريم، طلبة العلم والأدب، والعاجزون[184].

ويعد شيخ الحلقة المسؤول الأول والمباشر عن التعليم، فهو الذي يعين العرفاء على التلاميذ، ويشرف على قبول الجدد منهم، ولا يجوز أن يتدخل أحدا غيره في مسألة القبول. كما يقوم هو شخصيا بوضع المناهج الدراسية لطلبة العلم والأدب. كما يتولى هو شخصيا تدريس بعض العلوم الصعبة التي يصعب على غيره تدريسها، فيجمع التلاميذ ويستفسر منهم عن أي صعوبات واجهتهم في مادة من المواد . يقول البرادي في كتابه "الجواهر المنتقاة فيما أهمله كتاب الطبقات" "يتعلق به (أي الشيخ) الجلوس لطلبة فنون العلم في وقت معلوم ليأخذوا عنه، ومنها الجلوس بأثر الختمة للجواب عن الأسئلة في أي فن كان"[185].

ولا تكمن مهمة الشيخ في اختبار وامتحان التلاميذ بل حتى في الإطلاع على ظروفهم الحياتية "فمن كان موسرا نظر له فيمن يخدم ما يقتات به من الطعام، ومن كان مقترا نظر له فيمن يتبرع بالخدمة والإطعام"[186]. وأما العرفاء فهم الذين يشرفون على التلاميذ حيث يراقبونهم ويرعونهم.وقد أوجد نظام العزابة أصنافا

184. الدرجيني، طبقات المشائخ، ج 1، ص 171-172، مسعود مزهودي : الإباضية في المغرب الأوسط، ص 222-223.
185. انظر، ص 207 وما بعدها.
186. الدرجيني، المصدر السابق، ج 1، ص 183-184.

للعرفاء، فمنهم عريف لتعليم القرآن الكريم، وعريفا لأوقات الدراسة، وعريفا للختمات وأوقات النوم، وعريفا لأوقات الأكل.

لقد ساهم هذا النظام التربوي المتميز في انتشار التعليم خاصة وأنه كان مجانيا، لأن الإنفاق عن هذه المهمة النبيلة يتم من الأموال التي يحصل عليها العزابة من التبرعات والزكاة والحبوس والأوقاف، ومساعدات الأغنياء وميسوري الحال من التجار. ومن الأمثلة عن ذلك ما ذكرته المصادر الإباضية من أن أبا باديس أبخت بن باديس (القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) قد تبرع بثلاثمائة بقرة للعزابة[187]. كما أن المشرفين على هذه العملية التربوية يأخذون مقدارا من المال من هذه التبرعات تشجيعا لهم للاستمرار في عملهم النبيل. وقد أفتى مؤسس نظام الحلقة أبو عبد الله محمد بن بكر بجواز أن يأخذ المعلم أجرة على تعليم القرآن الكريم حتى لا يصبح ذلك حجة" إلى ترك التعليم، فينفض إلى تمام الجهل، ويصير الناس أميين"[188].

كما كان من الأغنياء ممن يتكفلون بكل مصاريف الدراسة. فقد ذكر الشماخي في كتابه "السير" أن أبا عبد الله محمد بن سليمان النفوسي كان ينفق على تلاميذه، ووصفه قائلا : "كان ممن وسع الله عليه في كثرة العلم والمؤل والتقى، وسماحب النفس، وسخاوة القلب. كانت عنده كثرة التلاميذ يظلمهم ويصعمهم ويفسوهم من خالص ماله، فإذا أقبل الشتاء اشترى لهم أفسية جديدة فيها جفء، وإذا أقبل إلصيف اشترى لهم ما يخف"[189].

وبفضل هذا النظام التربوي الصارم أصبح المجتمع الإباضي مجتمعا متعلما، عالما بأمور دينه، قلما تجد فيه الأمي إلى يومنا هذا. وطبيعي جدا أن يعطي هذا النظام ثمراته في نبوغ العديد من الطلبة الذين كانوا يتنقلون بين الحلقات العلمية الإباضية المنتشرة بين طرابلس ووارجلان مرورا ببلاد الجريد وجزيرة جربة. فبرز

187. الشماخي : المصدر السابق، ص 382-383.
188 المصدر نفسه، ص 406-407 وأنظر كذلك : مسعود مزهودي : المرجع السابق، ص 238.
189. أنظر : ص 406-407.

العديد من العلماء الذين ساهموا في إثراء الحياة الثقافية في التجمعات الإباضية خاصة ورجلان. فقد شهدت هذه الأخيرة حركة علمية نشيطة تضاف إلى نشاطها الاقتصادي باعتبارها تقع على أحد طرق القوافل المتجهة إلى بلاد السودان. وتجمع المصادر التاريخية إلى أن بداية الحركة العلمية في المدينة كانت مع قدوم فلول الإباضية الفارين من تاهرت بعد استيلاء الشيعة عليها، فأصبحت هي البديل لتاهرت. ووفد إليها العلماء الإباضية من مختلف الجهات خاصة وأن انعزالها في الصحراء جعلها مدينة آمنة. وقد ضاق هؤلاء العلماء ذرعا نتيجة المضايقات التي عانوا منها من لدن الشيعة المتعصبين لمذهبهم. أما المناطق التي وفدوا منها فهي إفريقية وطرابلس وجبل ونفوسة وبلاد الجريد.

ومن العلماء الذين لعبوا دورا كبيرا في ازدهار الحياة الفكرية والثقافية في وارجلان الشيخ أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن سهلون السدراتي المعروف بالطرفي والذي تلقبه المصادر الإباضية ب "شيخ الرأي الناصح"، وهو من علماء القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، تولى القضاء في وارجلان، وعقد حلقة علمية في أحد مساجد المدينة. وأثمرت حلقته بتخرّج العديد من العلماء نذكر منهم :أبا صالح جنون بن يمريان، الذي تولى تسيير شؤون المدينة بعد وفاة أبي يوسف إلى جانب إشرافه على المدينة كان يقوم بالتدريس، وصفه الدرجيني قائلا : "كانت جماعة أهل وارجلان تجتمع عند الشيخ جنون، فمنهم المستفيد منه علما، ومنهم المتبرك بمشاهدته، والمشارك فيما يعرض من أمور دنياه ودينه، والمقتني خلقا يتحلى به، والمستزيد من معرفة سبب السير"[190].

ومن بقايا الأسرة الرستمية الحاكمة الذين فروا إلى وارجلان نذكر يعقوب بن أفلح الرستمي الذي عرف بعلمه خاصة نبوغه في علم التنجيم. كما برز بعده ابنه سليمان لكن هذا الأخير كان مغضوبا عليه لأنه كان يطلّع على كتب أهل الخلاف، وإفتائه بمسائل خالف فيها المذهب الإباضي مما جعله عرضة لمضايقات من قبل

190. الدرجيني : المصدر السابق، ج1، ص 144-145.

شيوخ المذهب في المدينة. ومن العلماء الذين وفدوا إلى وارجلان أبي نوح سعيد بن زنغيل. الذي حظي بترحاب كبير، وأجري عليه إخوانه الأرزاق، وأكرموه غاية الإكرام حتى يستقر بينهم ويستفيدون من علمه[191].

ويبدو أن الفضل في ازدهار الحركة العلمية في وارجلان يعود إلى الجو الذي وفره أبا صالح جنون بن يمريان للعلماء حيث – كما تقول المصادر – كانوا يقيمون عنده وينفق عليهم كما كان ينفق على التلاميذ والطلبة. وبوفاته تقلص النشاط الفكري، وظل على هذه الحال إلى أن قدم إلى المدينة مؤسس نظام الحلقة أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي فانبعثت الحركة الثقافية من جديد. ولعل أهم إنجاز تاريخي قام به هذا العالم هو وضع نظام للحلقة والذي أشرنا إليه سابقا. هذا النظام الذي دفع الحركة العلمية دفعة قوية.

وتتحدث المصادر التاريخية عن حلقة "تين يسلي" الشهيرة، وحلقة "تجديت" – قرب أريغ – ففي هذه الحلقة اجتمع فيها من أهل العلم ما لم يجتمع في غيرها حتى عدوا في الحلقة من الطلبة – إن لم تبالغ المصادر – ثمانين توأما، ومائتي طالب يحفظون مائتي كتاب، وغيرهم من الطلبة ما لا يعد بكثرة، وفيها مائتي عالم لا يرد أحدهم مسألة إلى الآخر إلا من جهة الأدب. ويحضر الصلاة ثلاثمائة فارس. ولكثرة الناس طالما نفرت الدواب من مرابضها إذا كبروا تكبيرة الإحرام[192].

ومن العلماء كذلك الذين اشتهروا في وارجلان أبا العباس محمد بن بكر (ت 504 هـ). الذي ألف الكثير من المؤلفات وهناك من يحددها بحوالي خمسة وعشرين مؤلفا. كما ساهم بدوره العالم أبا صالح الياجراني وتبغورين بن عيسى الملشوطي في إثراء الحركة الثقافية بالمدينة. وقد عرف هذا الأخير بمؤلفاته في العقيدة. أما الشيخ أبو سامان داود بن أبي يوسف فكانت له حلقة علمية التحق بها الطلاب من مختلف الأماكن. كما ساهمت حلقة أبي إسماعيل بن أيوب بن إسماعيل في الحركة العلمية.

---

191. أبو زكريا :المصدر السابق، ص 126.

192. الباروني : رسالة سلم العامة، ص 24، وانظر كذلك : مسعود مزهودي : المرجع السابق، ص 242.

2. تمويل طلبة العلم والإنفاق عليهم :

يبدو وأن ما شجع العلماء وطلبتهم على التجوال بين أهل المذهب هو أن المشائخ كانوا يتبرعون للإنفاق على الطلبة وعلى العزابة الذين كرسوا حياتهم لنشر الدعوة وإحياء الدين. ففي زمن أبي نوح سعيد بن زنغيل (الطبقة الثامنة 400-350 هـ) أحضر المشايخ سراويل مملوءة بالدراهم لتوزع على سائر العزابة على قدر ما يرون لكل واحد منهم[193]. كما كان العلماء ينفقون على الطلبة من مالهم الخاص. فقد كان أبو عبد الله محمد سليمان النفوسي (من علماء الطبقة التاسعة 450-400 هـ) ممن وسع الله عليه في العلم والمال، فكان يعلم التلاميذ ويطعمهم ويكسيهم من ماله الخاص كما مر بنا[194]. وكان أبو القاسم يزيد بن مخلد هو الآخر ينفق على طلبته تشجيعا لهم على الاستمرار في ملازمة الحلقة فهو القائل : "لو علمت مكان مسألة أستفيدها ممن فاتني بها لشددت إليها رحلي في مشرق أو مغرب ولا أخشى أن يعذبني الله إلا على الجهل[195]. "كما كانت قبائل" زناتة ولماية ومزاتة وما يحيط بهم من القبائل يبذلون الجهد في مساعدة الطلبة بتقديم المعونة والهدايا لهم[196]، ولذلك نلاحظ أن الطلبة وحتى المشايخ كانوا يرتحلون إلى حواضر أخرى للاستفادة من حلقاتها، فهذا أبو يحي بن أبي القاسم الفرسطائي انتقل من فرسطاء إلى شروس للالتحاق بحلقة "ابن ماطوس" (ط7 – 350-300 هـ) فلم يجد مسكنا يأويه حتى أنه قال : "ما أوسع شروس وما أضيقها"[197]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن علماء الإباضية كانوا يتنقلون بين جبل نفوسة وبلاد الجريد ووارجلان للإفادة من علومهم خاصة وأنهم أتباع مذهب واحد.

---

193. أبو زكريا : كتاب السيرة، ص 357 ؛ الوسياني : سير مشائخ المغرب، ص 66.
194. الدرجيني : طبقات المشائخ، ج 2، ص418 ؛ الشماخي : المصدر السابق، ص 406.
195. خليفات : النظم، ص 22.
196. الدرجيني : المصدر السابق، ج1، ص 193.
197. الشماخي : السير، ص 310.

3. التنافس العلمي :

مما يمكن ملاحظته من خلال النصوص أن حلقات الدرس لم تكن للوهبية فقط بل حتى لإتباع الفرق الأخرى التي تخالفها في بعض المسائل الفقهية. فقد ذكرت السير أن نفاث بن نصر الذي خرج عن طاعة الإمام عبد الوهاب كانت له حلقة في "تنين إن دركل"[198] ونعتقد أنه كانت للخلفية أتباع خلف بن السمح حلقات علمية يبينون فيها للناس آراءهم. وقد ساهم هذا الصراع الفكري في ازدهار الحركة الثقافية في الجبل فألف الشيوخ العديد من الأسفار للرد على آراء مخالفيهم. ولم يكن هذا الصراع الفكري والمذهبي بمنأى عن مدينة وارجلان وأحوازها.

وتجدر الإشارة في هذا المضمار إلى أنه بعد ازدهار الحركة الثقافية وكثرة العلماء تخصص البعض منهم في مستوى معين من التدريس. فقد كان أبو يعقوب بن محمد بن يدر الدرفي (الطبقة العاشرة 500-450 هجري) يجلب العزابة إلى"أمسنان" فيبتدئون عنده فيعلمهم السير والآداب ثم ينتقلون إلى الشيخ محمد بن سدرين الوسياني فيقرؤون عنه الإعراب والنحو ثم ينتقلون إلى أبي عبد الله محمد بن بكر فيعلمهم العلم والكلام والأصول والفقه[199].

4. إرساء تقاليد الحلقة :

كانت الدروس التي تلقى في المساجد أغلبها دروس الوعظ والإرشاد وتعليم ما لا يسع المسلم جهله من أمور الدين. أما دروس المجالس فكانت كثيرة ومتنوعة منها : التفسير والحديث والفقه والأخلاق وعلوم العربية وسير السلف الصالح[200]. كما كانت كتب متداولة في هذه المجالس يقرؤها الطلبة خاصة كتب الفقه. وقد أبدى أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي رأيه في بعض هذه الكتب فقال : "من

---

198. الشماخي : المصدر نفسه، ص 170.

199. الدرجيني : طبقات المشائخ، ج2، ص 397 ؛ الشماخي : المصدر نفسه، ص 517 ؛ عمرو خليفة النامي : ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان، الأصالة، عدد 42-43، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1977، ص 22.

200. الدرجيني : المصدر نفسه، ج1، ص 119 ؛ خليفات :النظم، ص 22.

يدرس كتب اللقط كمن يهيل أنواع الثمر إلى غرارته، وأن كتاب أبي غانم (مدونة أبي غانم الصفري) قد أوضح قول كل عالم من مشائخه[201]. وقد كانت أكثر مجالس أبي عبد الله محمد بن بكر في التحذير والتخويف"[202].

ويعد العالم الجليل أبو الربيع سليمان بن زرقون من الأوائل الذين اهتموا بإقامة الحلقات العلمية بعد انقراض الإمامة الرستمية. وقد وضع تقاليد جديدة لنظام الحلقة لم تكن معروفة في السابق مثل استعماله "الخطة والهجران" لأحد تلاميذه المدعو أبو عبيدة وشق بسبب مسألة أفتى فيها[203]. وتعد الخطة من أهم قواعد الحلقة التي أسسها مؤسس نظام العزابة في بداية القرن الخامس الهجري العالم أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي. والخطة والهجران إذن هي عقوبة يعاقب بها التلميذ أو الطالب متى أجرم في قول أو عمل وأن الصلاح من الإباضية يهجرونه ولا يكلمونه ولا يحق له العودة إلى المجلس إلا إذا أعلن التوبة واستغفر، فإذا قبلت توبته عاد إلى الجماعة[204]. وتعد هذه الإجراءات الجديدة التي أدخلها على نظام الحلقة هي مقدمة لكل التنظيمات والتقاليد التي أسسها من جاء بعده. وقد ساهم كذلك تلميذاه أبو القاسم يزيد بن مخلد وأبو خزر يفلى بن زلتاف الوسيانيان اللذان عاشا في النصف الأول من القرن الرابع الهجري في تطوير نظام الحلقة بحيث أصبحت لها سمات وملامح مميزة وقواعد ثابتة حيث أجبر أبو القاسم تلامذته الحضور إلى الحلقة في أوقات معينة وتناول الطعام جماعيا في وقت محدد خاصة وأنه كان ينفق على تلامذته من ماله الخاص.

ونجد أن أبا القاسم منع على طلبته الزواج فكان يقول لهم : "لأن يبلغني موت أحدكم أهون علي من أن يبلغني أنه تزوج". والغرض من ذلك رغبته في تفرغ التلاميذ للتحصيل العلمي والمعرفة. ومن التنظيمات الأخرى التي استحدثها أبو القاسم نوم الهاجرة حيث كان يلزم تلاميذته النوم في أوقات معينة[205].

---

201. الدرجيني :المصدر السابق، ج2، ص 389.
202. الوسياني : سير مشائخ المغرب : (تحقيق : إسماعيل العربي)، ص 47.
203. الشماخي : السير، ص 382 ؛ عزوز خليفات : النظم، ص 20-21.
204. الدرجيني : طبقات المشائخ، ج1، ص 177 ؛ صالح باجية : الإباضية بالجريد، ص 186.
205. الدرجيني : المصدر السابق، ج1، ص 174 ؛ عوض خليفات : المرجع السابق، ص 22.

وبعد رحيل أبي القاسم إلى مصر صحبة المعز لدين الله الفاطمي قام أبو نوح بإدخال بعض الإضافات على التقاليد السابقة، وظهرت مصطلحات لم تكن مستعملة في السابق منها "ختمة الغداة وختمة العشاء".

وظل الإباضية طيلة القرن الرابع الهجري "العاشر الميلادي" يقيمون الحلقات العلمية ويجتهدون في خلق نظام دقيق يحافظ على استمرار المذهب في مرحلة الكتمان ولكنهم لم يتوصلوا إلى وضع نظام متكامل الجوانب يطبق في مختلف المناطق التي يتواجد بها الإباضية. واستمر الوضع على هذه الحال إلى بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

عندما تمكن أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي من وضع نظام الحلقة، فهو "أول من ألهم سلوك الطريقة التي حفظ بها هذا المذهب فرسم المهمل وقيد الشارد"[206] فبعد أن درس عن الشيخ أبي زكريا فصيل بن أبي ميسور بن وجين اليراسني بجربة وأبي نوح سعيد بن زنغيل انتقل إلى مدينة القيروان لدراسة اللغة العربية والنحو. وظل بالقيروان يحضر دروس اللغويين والنحويين والبلاغيين حتى تمكن من اللغة العربية وفنونها، وانتقل إلى الحامة ببلاد الجريد ليدرس علم الفروع على يدي الشيخ أبي عمران موسى بن زكرياء. وفي تقيوس طلب منه زكريا ويونس بن الشيخ فصيل أن يرتب الحلقة فرفض، واشترط عليهم أن يبقوا معه دون أن يسألوه مدة أربعة أشهر ثم وقع اختياره على بلاد أريغ في صحراء المغرب الأوسط وارتحل إليها رفقة طلبته. وكان في انتظارهم أبا القاسم يونس بن ويزكن الوليلي الذي هيأ لهم غار في "تين يسلي" قرب أريغ وأصبح هذا الغار أول مقر لحلقة العزابة التي كونها أبو عبد الله سنة 409 هـ وسمي الغار بالتسعى نسبة إلى تلك السنة[207].

---

206. الدرجيني : المصدر نفسه والجز ذاته، ص 167.

207. أبو عبد الله محمد بن بكر :سير الحلقة، نشر ضمن، Annali Instituto Universitario Di Napoli, Nuova Serix 10 Napoli 1960, p10 ؛ أبو زكريا :كتاب السيرة، ص 252 وما بعدها ؛ الدرجيني : المصدر السابق، ج1، ص 167 ؛ معمر : الإباضية في الجزائر، ص 177-178 ؛ خليفات : النظم، ص 24-26.

المحور الرابع

مدينة المسيلة كحاضرة

1. تأسيس مدينة المسيلة
2. دوافع بناء المسيلة
3. موقع المسيلة وتسميتها
4. خطط المدينة
5. دور المسيلة الاستراتيجي
6. قيام الثورات في بداية عهد القائم
7. الزيريون ومدينة المسيلة

أ. تأسيس الدولة الزيرية

ب. سلطة الفاطميين بالمغرب

ج. صنهاجة وموقفها من الأحداث

د. تأسيس أشير ومدى مساهمة المسيليين فيه

8. الحياة العلمية والفكرية بالمسيلة والقلعة

مدينة المسيلة كحاضرة

1. تأسيس مدينة المسيلة

إن تأسيس مدينة "المسيلة" حسب المعلومات التي وصلتنا من المؤرخين والرحالة يعود إلى أوائل القرن العاشر الميلادي، حيث تنص على أنه بعد ما تمكن عبيد الله المهدي من التغلب[208] على الأغالبة بإفريقية سنة 909 م، لم تستقر له الأمور حيث وجد نفسه أمام خطر داهم من ناحية الغرب وأمام مشاكل كبيرة، تتمثل في المعارضة الخارجية، حيث كانوا يسيطرون على هذه الجهات وكان الخوارج يرون أن المذهب الشيعي مذهبا مارقا لا يتماشى مع نظرتهم الدينية، ومن هنا نستطيع القول أن العداوة بين الطرفين كانت هي بؤرة الصراع في سير أحداث تاريخ المنطقة عامة والحضنة والمسيلة على الخصوص.

وقد سارعت القبائل المستقرة من صنهاجة وكتامة إلى تأييد الفاطميين، حيث كانت هذه القبائل تشتغل بالزراعة والحرف والتجارة، وتسكن المدن والقرى، لذلك اعتمد عليها الفاطميون في نشر نفوذهم على مناطق واسعة من المغرب، ومن جهة أخرى أظهرت القبائل البدوية وعلى رأسها زناتة عداوتها للنظام الجديد، وكانت هذه القبائل تعيش على الرعي والتنقل بحثا عن الكلأ، وكانت تعترض الطرق وتستولي على القوافل وقد اشتهرت بخروجها عن السلطة المركزية، ويرجع المؤرخون أن العداوة بين زناتة وصنهاجة ترجع أساسا إلى ظروف المعيشة المختلفة.

---

208. أبي عبد الله محمد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 20.

ويمكن القول بأن الدولة الفاطمية قد طبقت سياسة جبائية قاسية على السكان،وذلك لإنجاح مشاريعها وفتوحها للمشرق وقد اتبع الفاطميون في سبيل جمع الضرائب المفروضة على القبائل أسلوب التعسف والاضطهاد، وقد حدث إن التقت جيوش الفاطميين مع قبائل زناتة ومغراوة وكان النصر حليف هذه الأخيرة، ويرى ابن خلدون[209] أن هذه الهزيمة، قد هزت المغرب كله، وجعلت الخليفة يرسل ابنه القائم إلى الميدان سنة 315 هـ[210].

2. دوافع بناء المسيلة :

يذكر ابن عذاري أن أبا القاسم لما توجه إلى المغرب وجد مقاومة عنيفة عند جبل بني برزال ومنه توجه إلى الريف حيث تمكن من إعادة السيطرة الفاطمية على هذه المناطق وبعد هذا الانتصار عاد أبو القاسم إلى العاصمة سالكا الطريق الكبير الذي يمر بالهضاب العليا والحضنة، وهنا ولحماية إفريقية من جهة الجنوب الغربي أسس في أواخر 315 هـ الموافق للفترة الممتدة من 7 مارس 927 م إلى 24 فبراير 928 م. مدينة المحمدية التي عرفت فيما بعد باسم المسيلة ويقول ابن حماد في هذا الصدد "وقد هدن أبو القاسم المغرب وقضى منه المآرب وانصرف وفي انصرافه هذا مرّ بوادي (سهر) فاختط مدينة (المسيلة)، رسمها برمحه، وهوراكب على فرسه، وأمر علي بن حمدون (بن سماك بن مسعود) الجذامي المعروف بابن الأندلسية أن يبينها ويحصنها ويحسنها ويسميها (المحمدية) باسمه ففعل. بناها وجعل لها بابين وسمى أحدهما (باب القاسمية) منسوبا إلى أبي القاسم، ويسمى الثاني (باب الأمور) ووصلت هذه البلدة من الحضارة والعمارة... وملك على ابن حمدون فيها وابنه جعفراً"[211].

---

209. ابن خلدون كتاب العبر، ج6، ص 180.

210. Paul Maiessera, M'sila du X^e au XV^e s, bulletin de societé d'histoire et de georaphie de Setif, 1941, tII, p183

211. أبي عبد الله محمد الصنهاجي : المصدر السابق، ص 24.

ونجد عند ابن خلدون بعض المعلومات القيمة التي يحاول فيها فهم الغرض من بناء المدينة وإظهار الدوافع الحقيقية التي جعلت القائم يقوم بهذا العمل، ويستخلص من كل هذا أن الأمير بعد انتصاره في المغرب الأقصى وهو في طريق العودة، كان يعرف أن القبائل الزناتية لن يهدأ لها حال، وأنها ستعود إلى الثورة، وهو يعلم أن الحدود الشمالية الغربية آمنة للحلف القوي الذي يربط الدولة الفاطمية بقبائل كتامة، وهو لا يخشى شيئا من منطقة قسنطينة الشيء الذي جعله يتأكد من أن الخطر الزناتي سيأتي عن طريق الحضنة الطبيعي، ومسالك الصحراء، وهي مواطن هذه القبائل، خاصة وأن سهول الحضنة تعتبر من أهم المسالك المؤدية إلى إفريقية والمتغلب عليها يمكنه السيطرة[212] على الطريق الرابط بين إفريقية وبقية المغرب خاصة أن هذه السهول تضيق من ناحية الشمال بين الجبال والشطوط، علاوة على أن سكان منطقة المغرب الأوسط بما فيه منطقة الحضنة كانوا معادين للخلافة الفاطمية، حيث أن قبيلة بني برزال النكارية، وقبيلة بني كملان الهوارية هما اللتان تسيطران على شمال سهول الهضبة من سفوح الجبال إلى وادي القصب.

وكانت قبيلة عجيسة البرنسية التي لعبت دورا بالغا ضد الفاطميين تسيطر على جبال المعاضيد، وأن هذا المسلك الطبيعي الهام الرابط بين جهات المغرب الشرقية والغربية يمر بأراضي هذه القبائل.

وأول شيء قام به القائم لحل هذه المشكلة هو تهجير قبائل بني كملان من شمال الهضبة إلى فحص القيروان، حيث وضعوا تحت المراقبة، علما أن تهجير هذه القبائل لا معنى له من الناحية الأمنية إذا لم يتبع بتدابير صارمة، خاصة وأن القبائل الجبلية كانت على أهبة الاستعداد لقطع هذا الطريق الاستراتيجي ونهب ما تحمله القوافل من البضائع خاصة وأن الكثير من قادة الحملة التي كان على رأسها القائم كانوا كتاميين، يسكنون الجبال، في هذا الموقع بالذات حيث تلتقي هذه المخاطر العديدة والمتمثلة في صعوبة التضاريس من جهة وعدواة السكان من جهة أخرى،

212. P. L. Cambuzat, L'évolution des cités du Tell en Ifrikya du VII^e au XI^e siècle, t II, p. 158.

عمل كل من أراد السيطرة على المغرب، ومنذ القرون العتيقة على إقامة قلعة تقيم فيها حامية عسكرية قوية تعمل على تأكيد سيطرة الدولة، فالرومان أقاموا زابي التي استعملها من بعدهم البيزنطيون[213].

وربما السؤال الذي يمكن أن يطرح هنا. لماذا لم يتخذ القائم من بقايا حصن زابي قلعة له؟ وجاءنا الجواب الأول من طرف فيرو[214] حيث جاء على حد قوله أن سكان المناطق الجبلية التي تحد الحضنة كانوا دائمي الثورة منذ العهد البيزنطي ومن الممكن أنهم تمكنوا من دخول حصن زابي وتخريبه، ومن المؤكد أن مدينة زابي خربت عقب تخريب الكاهنة لحصون المنطقة في أواخر القرن السابع الميلادي، وأن القائم لما وصل إلى المنطقة بحثا عن الموقع الذي سيؤسس فيه قلعته،لم يكن لمدينة زابي أثر يذكر، فلو كانت قائمة لما أسس الأمير مدينة المحمدية على بعد ثلاثة كيلومترات منها، وهنا لابد من القول أن البكري الذي كتب بعد حوالي قرن ونصف من هذه الأحداث يقول : (وبقبلي مدينة المسيلة موضع يعرف بالقباب فيه قباب من بنيان الأول وعلى مقربه منها مدينة للأول خربة يقال لها بشليفة فيها جدولان من ماء عذب جلبه الأول إليها يقال لها تارفا أنوودي تفسيره ساقية السمر. ..ونهر السمر الذي عليه المسيلة منبعه من عيون داخل مدينة غدير واروا)[215].

3. موقع المدينة وتسميتها :

يبدو من وصف مدينة زابي هذا أن أثار المدينة كانت ظاهرة في عهد تأسيس المسيلة، وقد جرت العادة عند الأمراء والقادة المسلمين عندما يقدمون على تأسيس مدينة ما أن يؤسسوها على أرض بكر لتكون المدينة إسلامية، كما هو الحال في الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وتاهرت وفاس، ثم أن موقع مدينة

---

213. M. L. Feraut, Histoire des villes de la province de Constantine, receuil des mémoires de la société archéologique de la province de Constantine, 15ème volume, 1871-1872, p. 372.

214. M. L. Feraut, Ibid, p. 3 et 4.

215. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، 1965، ل ص 59.

زابي، كان يشكوا من نقص المياه في حين أن الموقع الجديد لمدينة المسيلة كان يشرف على ضفاف وادي القصب. وقد صادف عبد الرحمن بن رستم عند تأسيس تاهرت نفس المشكل حيث وجد عند وصوله إلى مدينة تاهرت القديمة مدينة قائمة بأسوارها وموقعها المحصن ولكنها كانت قليلة المياه. وقد شاهد بالقرب منها نهر مينا بمياهه الكثيرة فاختار كثرة الماء لتأسيس مدينة جديدة على الأرض العذراء بدلا من تحصين الموقع والحياة داخل مدينة قديمة[216]، حيث أن خلو الموقع من المباني يمكّن المعماري من وضع مخطط للمدينة بدون قيد.

ووادي المسيلة المعروف بوادي القصب كان يسمى في تلك الحقبة بوادي السمر أووادي الرابس[217] الذي اشتهر بكثرة الأسماك وقد وصفه الإدريسي بقوله : (ويسكنها من البربر بنو برزال وزنداج وهوارة وسدراتة ومزاتة، وهذه المدينة أيضا عامرة بالناس والتجار وهي على نهر فيه ماء كثير مستبط على وجه الأرض وليس بالعميق وهو عذب فيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة ولم ير في بلاد الأرض المعمورة سمك على صفته، وأهل المسيلة يفتخرون به ويكون مقدار هذا السمك من شبر إلى ما دونه، وربما أصطيد منه الشيء الكثير، فاحتمل إلى قلعة بني حماد وبينهما ميل)[218].

ومن المؤكد أن المدينة قد أسست في منطقة قليلة الأمطار تنقص فيها مصادر المياه كالحضنة، فإن وادي القصب لا يمكن تجاهله أبدا في عملية تأسيس المدينة.

ويرى بعض المؤرخين مثل فيرو أن تسمية المدينة لها علاقة وطيدة بطبوغرافية موقعها حيث أن اسمها الأول المحمدية لم يعمر طويلا بعد موت مؤسسها. وقد سميت المدينة بالمسيلة بعد 946 م ويرجع فيرو معتمدا في ذلك على أقوال بعض

---

216. Edmant Pauty, villes spontanées et villes créées en Islam. Communication faites à l'institut des hautes études Marocaines le vendredi 18 avril 1947, p. 58.

217. M. L. Feraut, Hitoire des villes, p. 367.

218. الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 59.

مثقفي المدينة أن هذه التسمية راجعة لقرب الماء السائل من المدينة أي أنها تقع في "مسيل الماء"[219].

وهكذا فقد أسست المدينة على الضفة اليسرى من الوادي وسماها القائم باسمه (محمد) وبعد أن أعطى الأوامر ببدء الأشغال اتجه إلى عاصمة الخلافة بإفريقية، تاركا لعلى بن حمدون[220] القيام بتشييد المدينة وكان علي بن حمدون من الشخصيات البارزة في الدولة الفاطمية ومن المقربين من الأسرة الحاكمة فأبوه كان من المؤيدين للمذهب الشيعي بالمغرب وأحد رفاق الداعي الشيعي حيث ساعده مدة تتعدى العشرين سنة، وقد اتفقا على بناء المدينة مما جعل ابن حوقل الذي زارها بعد أربعين سنة من تأسيسها يصفها بقوله : (ومما يبدو لنا أن المدينة كانت عامرة يحيط بها سور من الطوب قاعدته من الطابية)[221]، وسيقوى هذا السور بآخر فيصبح للمدينة سوران، تجري بينهما قناة من الماء العذب فيحميها بذلك السور الخارجي من الأعداء، والداخلي يحمي القناة من التبذير، وكانت وظيفة هذه الأخيرة هي تمويل سكان المدينة بمياه الشرب وتمثل في نفس الوقت احتياطيا استراتيجيا من هذه المادة الحيوية، وقد زودت هذه القناة بمواسير لصرف المياه. وللمدينة حسب الكاتب بابين هما باب القاسمية الذي يحمل اسم مؤسسها وهو الباب الرسمي وباب الأمور تفتح على الأسواق والفنادق، ومما سبق يظهر أن عليا بفكره الناضج استطاع عند إنشاء هذه المدينة أن يخطو خطوة في ازدهار الفكر المعماري بالمغرب حيث تمكن من وضع الإطار الذي يربط بين ما ترنوا إليه الأمة والشكل المادي من العمران.

يلاحظ المتتبع لتاريخ المغرب الأوسط أن ظهور الدولة الفاطمية ومن بعدها الزيرية كان له أثره الواضح في إنشاء العديد من المدن في تلك الفترة كأشير

---

219. M. L. Feraut, op. cité., p. 328.

220. Camard, une famille de partisans puis adversaires des Fatimides en Afrique du nord, mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman, t II, pp. 33-49.

221. ابن حوقل : كتاب صورة الأرض، بيروت، 1979، ص 67.

والمسيلة والمدية وملیانة والقلعة وبجاية، حيث أصبحت هذه المدن مراكز حضارة وإشعاع في المغرب الأوسط، وهي ترمز إلى المستوى التطبيقي للفكر الإسلامي في مجا ل العمران، ثم أن القائم هو الذي أمر ببناء المدينة وهذا ما يؤكد اهتمام أمراء الدولة برفع مستوى العمارة والعمران حيث شارك ابن الخليفة في اختيار الموقع والموضع وإعطاء التصور العام للمدينة، وكما هو متفق عليه فالمدن تختلف وتتنوع حسب ارتباطها بالوظائف الخاصة بها وظروف نشأتها، ونوعية مواقعها ومواضعها وهذه الأمور لعبت دورا فعالا في تطور مدينة المسيلة فالمدينة منذ نشأتها كانت تمثل نقطة جذب وإشعاع ثقافي واقتصادي، الأمر الذي جعلها تتطلع لتصبح العاصمة الجهوية لهذه الناحية الواسعة.

ونجد في كتب التراث الإسلامي المهتمة بالعمران مفاهيم كثيرة رأى علماء الأمة ضرورة الأخذ بها عند اختيار مواقع المدن وتخطيطها، فابن الربيع مثلا[222] حدد ستة شروط يجب مراعاتها في اختيار موضع المدينة وهذه الشروط هي :

ا. سعة المياه المستعذبة : إذا طبقنا هذا الشرط على المدينة نجدها تمتاز فعلا بوفرة الماء الذي يمدها به وادي القصب حيث يلبي حاجات سكانها سواء للشرب أو لسقي المزارع الواسعة.

ب. إمكان الميرة ووفرتها : يعد هذا الشرط أساسي في ازدهار الحياة ورفاهية سكان المدينة لأن توفر الغذاء مطلب أساسي لنشأة المدينة واستمرار نموها . ومن هذه الناحية فإن المدينة تتوفر على محصول هائل من الثمار والحبوب التي تكفي لسد حاجة سكانها، وكان أمير المدينة يقوم بتخزين ما يزيد عن الحاجة تحسبا لنشوب حروب أو وقوع حصار على المدينة لأن مهمته هي توفير الحماية والدفاع عن المنطقة، وكانت المدينة تعتمد على إقليمها الذي ينتج محاصيل كبيرة في السنين الممطرة – فضلا عن استعمال الفلاحين لمياه وادي القصب لري

222. محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، الكويت، 1988، ص 118، 121، 122.

محاصيلهم مما يزيد من وفرة الإنتاج وقد تلجأ المدينة إلى التجارة لتزويدها بالحبوب من المناطق المجاورة.

وهنا تتضح علاقة المدينة بالريف لوجود مصالح متبادلة بينهما، ثم إن المدينة اعتمدت على الطرق والمسالك التجارية التي كانت تزودها بالكثير من السلع ولذا فإن المدينة عاشت مستوى اقتصاديا مزدهرا وعليه فقد حرس مؤسسها على أن تلعب دور المراقب للمسلك التجاري الكبير الرابط بين الشرق والغرب.

ج. اعتدال المكان وجودة الهواء : هذا الشرط من بين الشروط التي حددها ابن الربيع لاختيار مواقع المدن، وإذا حاولنا معرفة مدى تطابق هذا الشرط مع موقع مدينة المسيلة نجد أن مؤسسها قد وفق إلى حد ما، فقد أدرك ما للمناخ من أهمية في تحسين حالة السكان الصحية والزيادة في رفاهيتهم، لأن المدينة مظهر من مظاهر التفاعل بين الإنسان والبيئة، وهنا لا بد من القول أن عامل المناخ كان يراعى في تأسيس المدن من حيث إنشاء معالمها واتجاه شوارعها، ولما كانت أغلب المدن المغربية قد أنشئت في مناطق حارة فقد روعي في مدينة المسيلة بصفة خاصة، وتفاديا لارتفاع الحرارة وهبوب الرياح الساخنة أن تكون مبانيها متلاصقة، وقد تدرجت فيها مقاييس الشوارع واتخذت الواجهات والمظلات وعناصر معمارية عديدة كوسيلة لتوفير التهوئة والإضاءة، ولذلك فتحت نوافذ البيوت داخل الأفنية وأصبحت الأفنية أماكن للحياة المنزلية لما توفره من مناخ يساعد على ذلك.

د. القرب من المرعى والاحتطاب[223] : ويفصل ابن خلدون وابن الأرزق هذا الشرط فيقولان : إن من أصول جلب مواقع المدن (جلب المنافع) ومن أصول جلب المنافع قرب المرعى لسئمه وطيبته وإذ كان لابد لسكان المدينة من الدواجن والحيوانات لسد حاجيتهم من الألبان واللحوم والأصواف وللركوب كان المرعى القريب ضروريا، وبما أن الإنسان يحتاج إلى الوقود في حياته اليومية، لطهي الطعام

223. محمد عبد الستار عثمان : المرجع السابق، ص 118، 121، 122.

أو لاستعمالات حرفية أخرى، فإن وجود الغابات والمزارع والأشجار القريبة من المدينة قد تمده باحتياجاته اليومية من الحطب لعموم البلوى في وقود النار والخشب لما يحتاج إليه في البناء أو صناعة بعض الأثاث، وقد استفادت المسيلة من هذه المميزات في موقعها حيث كانت جهاتها تتميز بالطابع الرعوي فالمرعى قريب منها، ومزارع الزيتون والأشجار تحف بها، حيث وجدت بعض الغابات في المناطق الجبلية المحيطة بالسهل.

هـ. أ. إمكانية الدفاع : وهو شرط أساسي ارتبطت به مدينة المسيلة منذ تأسيسها، حيث حاول مؤسسها أن يجعل منها سدا منيعا لا تستطيع قبائل زناته ولا القبائل المتحالفة معها اجتيازه لأن المدينة اتخذت من الربوة القليلة الارتفاع والواقعة على الضفة اليسرى من وادي القصب موقعا حصينا لها.

4. خطط المدينة :

لقد استفادت المدينة من التحصين الطبيعي الذي يوفره مجرى الوادي كما أحيطت المدينة بسور قوي دعم بسور آخر وزودت بالجند والقوات للدفاع عنها وكانت أسوارها من مادة الطوب بينما بنيت أساساتها بحجارة الدبش وكانت مدينة المسيلة منذ نشأتها تحتوي على عدد من الأبراج.

لقد احترمت الشروط الأساسية لتخطيط المدن في موقع مدينة المسيلة، فقربها من مصادر الماء جعل هذا العنصر الحيوي متوفر فيها، علما أنها تقع في منطقة حارة وجافة مما يزيد من أهمية هذا العنصر الحيوي. وعمل علي بن حمدون على إيصال الماء إلى المدينة حتى يسهل على سكانها الحصول عليه وذلك بوضع شبكات توصيل الماء إلى جميع الأحياء وقد عمل هذا الوالي أيضا على إجراء الماء بين سور المدينة الذي استعمل كحاجز لرفع مستوى ماء نهر القصب ليصل بسهولة إلى المدينة بوسائل معينة لم تحدثنا عنها المصادر قد تكون قناطر للماء أو وسائل للرفع أما الأمر الثاني الذي اعتنى به هذا الأمير فهو تقدير الشوارع لأن تقديرها مهما حتى تتناسب مع حركة المرور وحتى لا تضيق فتعطل النشاط الاقتصادي

للمدينة علما أنه كان على الأمير أن يفكر في مستقبل المدينة ونموها وزيادة سكانها ونشاطها الاقتصادي ولذلك خططت بالمدينة طرق رئيسية وأخرى فرعية.

ونلاحظ بأن الطرق الرئيسية هي التي تربط بين بابيها المعروفين بالقاسمية والأمور، وقد تركت الحرية لأصحاب الخطط من القبائل والفئات المختلفة التي عمرت بها المدينة من اقتطاع الأرض. الأمر الذي حدد المسالك والأزقة بين المنازل والأحياء وجعلها نافذة. وبما أن المسيلة أنشئت على موقع خالي من المباني فقد أنشئ الجامع وسط المدينة وبالقرب منه قصر الأمير، وذلك ليتوسط الأحياء ويتعرف عليه جميع السكان ويكون قريب من كل مكان، فيسهل وصول المصلين إليه وذلك سيرا على الطريقة المتبعة في تخطيط المدن الإسلامية المبكرة، وهذا يعني أيضا أن المدينة في تلك المرحلة كانت أحادية النواة مما يفسر أن الأزقة والمسالك كانت تؤدي إلى وسط المدينة فتتصل بالشوارع الفرعية والرئيسية.

وكان المسجد الجامع يقوم بوظيفته الأساسية على اعتبار أنه مؤسسة معمارية يتوجه إليه جمهور المصلين لتأدية صلاة الجماعة، ولكي تتبوأ المدينة مكانتها المرموقة بين سائر الحواضر الإسلامية. عمل الوالي على توفير الشروط الأساسية لتقوم المدينة بدورها كاملا، حيث زودت بأسواق كانت قرب باب الأمور، وكانت هذه الأسواق والمؤسسات التجارية موزعة على مخطط المدينة بشكل يمنع الضرر الذي قد يلحق بالمدينة وسكانها، ويسهل حركة المرور في الشوارع، ويكفل توصيل الخدمات إلى سكانها.

وبما أن المسيلة كانت على اتصال بمدن أخرى وعلى ارتباط بالتجارة العالمية فقد أنشئت بها بعض الفنادق والخانات. وإذا علمنا أن القائم قد رحل قسرا سكان حمزة* لتوطينهم في المدينة. وقد سكن هؤلاء على ما يبدو في أحياء خاصة بهم لتفادي النزاعات والصراعات التي قد تنشب بين القبائل الوافدة. ولما كنا نجهل

(*) حمزة : وهي مدينة البويرة الحالية.

عدد القصور التي بناها بنو حمدون بالمدينة ومواقعها فإنه من المؤكد أن حاجتهم الملحة إلى مساعدين يقدمون لهم يد العون في تسيير شئون المدينة يقتضي إسكانهم بالقرب منهم، ولا محالة أن هناك من سكان مدينة حمزة من وقع عليهم اختيار الأمير.

يضاف إلى هذا أن رغبة أمراء المدينة في النزهة قد ساعدت دون أدنى شك على توسيع عمران المدينة خارج نطاق الأسوار. فأنشئت الحدائق والجنات والمناظر الجميلة التي يحتاج إليها الأمراء للترويح فيها عن أنفسهم من المتاعب اليومية. ومما لا شك فيه أن مدينة المسيلة أنشئت كبقية المدن الملكية مرتبطة بالدولة التي أنشأتها وبالعائلة الحاكمة التي سيرتها.كل هذه الأمور تؤكد أن المسيلة قد خططت على رسم ملكي حيث اتفق على توزيع أحيائها وقصورها ومياهها ومساجدها ودواوينها مسبقا في المخطط البدائي.

لقد تأثر تخطيط المدينة بوجود مقر السلطة فيها وبالحركة التي يجذبها هذا المركز مرورا منه وإليه حيث زاد المتوجهين إلى وسط المدينة لقضاء حاجتهم في أسواقها والقيام بواجبهم الديني في جامعها وقضاء أمورهم الإدارية في الدواوين فكان يدخل المدينة عددا كبيرا من الناس لقضاء مصالحهم خاصة وأن المدينة كانت عاصمة جهوية كبيرة عملت عائلة آل حمدون على توسيعها وتحصينها.

وهكذا فقد تأثرت المدينة في اتساعها ونمو عمرانها بالسور الذي أنشئ حولها، حيث كان له تأثير مباشر في تحديد مساحة المدينة إذ كان يمثل عائقا طبيعيا أمام نموها الأفقي، الشيء الذي جعل المدينة في حاجة متواصلة إلى البحث عن أراضي جديدة للبناء. ونظرا لانعدام الأمن خارج أسوار المدينة فلم يستطع السكان بناء أرباض بضواحيها.

كل هذا أدى إلى استهلاك الأراضي الشاغرة داخل أسوار المدينة فاستعملت كل المساحات التي كانت مخصصة للحدائق والجنات بداخلها واضطرت المدينة إلى بناء بعض القصور والمسترحات في ضاحيتها، كما بني المصلى والميدان خارجها كما جرت العادة في بعض المدن الكبرى كالقاهرة وتونس ورقادة وصبرة، ويظهر أن

المناطق التي شغلت خارج المدينة احتوت على بعض المقابر ومقرات بعض الورش لصناعة الأجر والدباغة فضلا عن وجود بعض الأسواق الأسبوعية التي يكثر فيها أهل الأرياف والحضر للبيع والشراء.

والملاحظ أن هذه المرافق التجارية كانت تقع بالقرب من باب الأمور، أما الحدائق والمتنزهات فكانت تمتد على طول ضفة وادي القصب، وكان للسور دوره في تحديد اتجاه شوارع المدينة الرئيسية عن طريق مواقع أبوابها، كما أثر في وسع أو ضيق الشوارع.

أما فيما يخص تأمين المدينة وسكانها من الآفات الاجتماعية كالسرقة فقد اعتمد سكان المدينة كغيرهم من سكان مدن المغرب على جهاز شرطه قوي، ومن المحتمل أنها كانت تقوم بعلق الأزقة والشوارع بأبواب ليلا، كما كان الحال بفاس، فتعزل الأحياء عن بعضها البعض، الشيء الذي يسهل عمل المراقبة والقضاء على الذعار واللصوص.

لقد عمد علي بن حمدون ومن جاء بعده إلى جلب أهل العلم والصنائع والعمل على تسكينهم بالمدينة بشتى الوسائل والتحفيزات وكان هدفه الوصول للاكتفاء الذاتي من ناحية المهارات التي يحتاج إليها اقتصاد المدينة لكون أن المدينة نشأت دفعه واحدة. وهذا يذكرنا بنفس العمل الذي قام به الحجاج بن يوسف عند إنشاء مدينة واسط من اقتطاع قطائع لكل واحد منهم.

لقد سلكت الأسرة الحمدونية هذا الاتجاه لعلمهم بأن إدخال هذه الطوائف هي بمثابة النسيج الحي للمدينة، لأن صرف الأموال وبناء القصور والمنازل والأسوار لا يكفي لتحفيز هؤلاء الحرفيين على البقاء بها. إن هذه الفئة النشيطة دفعت بالمدينة إلى التطور، فتقدمت الصناعات وازدهرت الخدمات والتجارة في ظل الأمن والطمأنينة الذي وفرته العائلة الحاكمة وفي إطار من النظم والقوانين التي سهرت على تنفيذها بالمسيلة ومدن إقليمها، وأسندت هذه المهمة إلى عدد من المؤسسات الإدارية التي يمثلها الوالي وأعوانه وأجهزة الأمن والقضاء والمراقبة مثل الشرطة والاحتساب. فاكتسبت المدينة صبغة إسلامية. وكل هذا يجعلنا

نقول أن الحياة السياسية بمختلف أشكالها قد انعكست بصفة واضحة على مدينة المسيلة.

لقد اتسمت المدينة منذ نشأتها بصفات النظام السياسي والفكري والاجتماعي فعكست بذلك مراحل القوة والضعف في هذا النظام، لقد كانت نشيطة ومزدهرة في عهد بني حمدون ومن جاء بعدهم، وعرفت الضعف والتدهور في عهود كثيرة أخرى كما سنراه فيما بعد.

قامت أسرة آل حمدون بتتبع مراحل إنشاء المدينة طبقا لأوامر القائم وكان علي وأخوه مطلعان على علوم زمانهم ومتأثرين بحضارة عهدهم خاصة وأنهم ينحدرون من أسرة أندلسية فاستطاعوا أن يؤسسوا وسط سهول الحضنة مدينة كبيرة تمكنت من النمو والتطور وأصبحت في وقت قصير تضاهي بعض المدن الكبرى في المغرب، وعمل آل حمدون على أن يجعلوا منها مكانا للتقارب والتعارف بين القبائل.

وبعد مرحلة التعمير عمل علي بن حمدون على خلق قاعدة اقتصادية مستقرة تعتمد عليها المدينة في نموها، فبعدما كانت تعتمد على خزينة الدولة، أي على الخراج والضرائب والغنائم الواردة من المناطق التي أخضعها الفاطميون، أصبحت المدينة فيما بعد تعتمد على مصادر دخلها، حيث قام آل حمدون بإحياء الأراضي الموات وسقيها عن طريق شق القنوات وبناء السدود لتزويد المدينة بما تحتاجه من المياه وتوجيه الزائد عن حاجتها إلى الزراعة، وقد شجع أمراء المدينة الاقتصاد وأنشئوا الأسواق لترويج محاصيلهم الزراعية والصناعية وكان الهدف من وراء ذلك الرفع من مكانة مدينتهم الاقتصادية والتجارية بين بقية المدن.

لقد تأثر تكوين المسيلة المادي بكونها عاصمة لإقليم واسع وثري، فضمت من التكوينات المعمارية ما تحتاجه هذه الوظيفة من قصور للأمراء والقادة والموظفين الكبار ودواوين وبيوت للضيافة وما يتبع ذلك من مراسيم خاصة أثرت في مجملها على تخطيط شوارعها ورسم أبوابها.

5. دور المسيلة الاستراتيجي :

بعد أن انتهت عملية بناء المدينة ولي عليها وعلى الزاب علي بن حمدون[224]، وبقت المدينة تحت سلطته أعوام طوال، عرفت فيها المدينة ازدهارا كبيرا ونموا مستمرا ذلك أن عليا كان رجل سيف وقلم تمكن بدهائه وحنكته وتجربته من نشر الأمن والطمأنينة، ووضع الأسس السليمة للإنطلاقه العمرانية. وبما أن الفاطميين أعدوا مدينة المسيلة لتؤدي دورا عسكريا استراتيجيا يتركز حول مراقبة الطريق الطبيعي الرابط بين المغرب الأوسط وإفريقية. فقد عمل هذا الوالي على جعل هذه القلعة تقوم بالدور المنوط بها،فأكثر فيها المخازن،وملأها بالمؤن، وقد ساعده في مسعاه هذا كون المنطقة غنية من الناحية الزراعية، ففي الأعوام الممطرة ننتج أراضي سهل الحضنة كما هو معروف المحاصيل الوافرة، أضف إلى هذا أن وادي القصب كان يسقي أراضي شاسعة تغرس بالحبوب فتنتج محاصيل تكفي حاجة المدينة حتى في الأعوام الشحيحة. ويشتمل السهل على الأراضي الرعوية الواسعة التي تعيش فيها الكثير من قطعان الغنم والإبل والبقر، مما جعل الجغرافيون العرب يؤكدون على أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية ويبرزون دورها كنقطة مركزية تراقب المسالك الطبيعية، فابن حوقل مثلا يعطي للمسيلة أهمية خاصة ويجعل منها ممرا رئيسيا حيث يمر بها مسلكان هامان يربطان بين القيروان وفاس الأول يمر ببلاد كتامة ويصل إلى المسيلة مارا بالهضاب العليا أي شمال بوطالب والمعاضيد، وهناك طرق أخرى تربط المسيلة بالجريد مرورا ببسكرة، وبأشير والشلف مرورا بمليانة إلى أن تصل إلى تلمسان وفاس، وكان التجار والمارون على هذه الطرق يقدمون مكوسا هامة لخزينة المدينة.

كل هذه الأمور مكنت علي بن حمدون، من تحقيق رغبات الخلفاء الفاطميين، المتمثلة في جعل المدينة مخزنا كبيرا للمؤن. خزنت فيه الحبوب والزيوت والأنواع المختلفة من الأغذية المجففة، ووضعت بداخله الكثير من الأسلحة والأدوات التي

224. ابن عذارى :المصدر السابق، ص 215.

تعتمد عليها الجيوش الكبيرة. خاصة أن مدينة المسيلة هي المدينة الوحيدة في هذه المنطقة الواسعة، الأمر الذي جعلها تتكفل باحتياجات الجيوش العديدة المتوجهة لإخماد ثورات المغرب الأوسط والأقصى على الفاطميين.

لقد امتلأت مخازن المدينة بكل احتياجات الجيوش من أغذية وأسلحة، وجاءت أعوام الجفاف فارتفعت أسعار الحبوب والأغذية فأراد ابن حمدون أن يحقق للخزينة الفاطمية دخلا وافرا ببيع جزء من الأغذية المدخرة، وأرسل يستشير القائم في هذا الأمر. وكان هذا الأخير مشغولا في أمور خطيرة، حيث وصلته الأخبار من جواسيسه المنتشرين في المغرب، فتبين له قرب العاصفة.

6. قيام الثورات في بداية عهد القائم :

توفي عبيد الله المهدي في ربيع الأول من سنة 322 هـ، وبوفاته أحس سكان المغرب بزوال قوة اضطهاده، فأطلقوا العنان لثوراتهم التي أخذت نارها تشتغل في المغرب كله[225]. وأول هذه الثورات كانت ثورة رجل عربي يعرف باسم ابن طالوت القرشي بنواحي طرابلس، الذي ادعى أنه المهدي فاتبعه البربر وناصروه ضد الفاطميين ولم تعمر هذه الثورة طويلا حيث اتضح للبربر كذبه فقتلوه وأرسلوا برأسه إلى القائم.

أما في فاس فقد ثار أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي على واليها حامد بن حمدان مما جعل القائم بالله يوجه إليه ميسور الفتى[226] لإعادة النفوذ الفاطمي إليها وتمكن هذا القائد من قتل أحمد بن بكر،لكن أهل فاس احتموا وراء أسوارهم، فحاصرهم ميسور زهاء الأربعة شهور، ثم صالحهم على أن يبايعوا القائم ويسجلوا اسمه على السكة وأقر ميسور عليهم حسن اللواتي ثم عاد إلى المهدية، وقد لعبت المسيلة دورا هاما في إمداد الجيوش الغادية إلى المغرب بما تحتاج إليه من مؤن وحيوانات نقل الخ...

---

225. ابن عذارى، ج1، ص214، ابن خلدون، ج، ص 83.

226. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية بيروت، ص 621، وانظر أيضا أبي عبد الله الصنهاجي، المصدر السابق.

أما الثورة الكبرى التي كان يترقبها القائم والتي كادت أن تعصف بكيان الدولة الفاطمية، فهي ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي، وقد استغرقت هذه الثورة طوال عهد القائم ومدة من زمن ابنه أبي العباس اسما عيل المنصور[227]. وكانت هذه الثورة بمثابة الكابوس، ومما يدل على خطورتها أن اسما عيل المنصور سجل فوزه على صاحب الحمار بتأسيس مدينة صبرة المنصورية[228] سنة 361 م.

لقد كان أبو يزيد بن مخلد بن كيداد من قبيلة بني يفرن الزناتية وأبوه تاجر من أهل توزر يشتغل في تجارة القوافل الرابطة بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء هذه التجارة التي تمر بمراحل أهمها مدينة ورجلان، وكان أهل ورجلان يتبعون المذهب الإباضي[229]، وأكثرهم حاقدين على الشيعة لكونهم من سكان تاهرت الذين هربوا من المدينة بعد سقوطها على يد الفاطميين، وكان أبو يزيد من الفارين من المدينة عند دخول الشيعة إليها[230] سنة 296 هـ حيث اتجه نحو تقيوس أحدى مدن قسطيلية المهمة، حيث أخذ يدعو هناك إلى تكفير الشيعة، والثورة ضدهم واستباحة أموالهم ودمائهم، ووجد في سكان المنطقة تجاوبا معه وذلك لتشدد الدولة الفاطمية في جمع الضرائب وبعد وفاة المهدي اتجه بدعوته إلى تغيير المنكر فزاد صيته انتشارا وكثر عدد أتباعه فخرج من ناحية الجريد متجها إلى المناطق الإباضية لنشر دعوته فرحب به سكان جبال الأوراس[231] من بني كملان وغيرهم وانظم إليه جميع أعداء المذهب الشيعي الذين كانوا يقيمون على حواف سهل الحضنة، وينتظرون الساعة السانحة للهجوم على كل من يمثل الفاطميين، لهذا الأمر طلب القائم من علي بن حمدون الاحتفاظ بما في المخازن من مؤن ومحاولة الحصول على مؤن جديدة. وذلك لأن ساعة احتياجها أصبحت وشيكة وأنها ستكون عاملا أساسيا

227. أي أنها استغرقت مدة 14 سنة.
228. ياقوت، معجم البلدان، ج 5، مادة المنصورية.
229. ابن عذارى، ج 1، ص 216.
230. د .السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، ص 623.
231. P. Maissera, Msila, p. 192

في كسب المعركة الفاصلة أو خسارتها. وفعلا بدأ صاحب الحمار يثير القبائل البربرية الواحدة تلو الأخرى، فاجتذب بذلك الأنصار والأتباع[232] وكثر عدد مناصريه. فجهر بدعوته وخرج على الشيعة ونزل من الأوراس متجها إلى إفريقية[233].

ولما رأى الخليفة القائم استفحال أمر هذا الثائر أخذ يحضر نفسه للوقوف أمامه ومن الإجراءات التي قام بها توسيع ولاية علي بن حمدون، وأخذ هذا الأخير يعمل حثيثا لحماية المنطقة حيث أسرع في تخريب ما تبقى من مدينة أدفة سنة 936 م، وتقع هذه المدينة في الثلث الأول من مسافة الطريق المؤدي من مسيلة إلى طبنة، وعلى مرحلة واحدة من المسيلة ويمكننا حسب بول ميسرة من تحديد هذه المدينة تقريبا في شرق وادي سلمان الذي سمي فيما بعد وادي أبي طويل.

وبعودة مجرى الأمور إلى الفاطميين عادت المسيلة لتلعب الدور الذي أنشئت من أجله كمدينة عسكرية ومركز إمداد ومخزن مؤن، وذلك بعدما تمكن الخليفة الفاطمي من إلحاق الهزيمة بأبي يزيد قرب المهدية سنة 945 م، واضطرار هذا الأخير إلى الفرار إلى الغرب، الأمر الذي جعل الخليفة المنصور يتابع خطاه ليتخلص منه.

خرج المنصور من القيروان متجها إلى الغرب وفي طريقه مرّ بطبنة "فمقرة" ووصل إلى المسيلة سنة 947 م وتمكن فعلا من القضاء على ثورة صاحب الحمار وقتل هذا الأخير بجبل الكيانة، أي جبل المعاضيد الحالي، وبعد هذا الانتصار العظيم عاد الخليفة إلى المسيلة التي ساهمت مساهمة كبيرة في القضاء على هذه الثورة، فأكد علي بن حمدون على ولايتها وعلى الزاب، وأذن لأخيه بالبقاء في المدينة، فأصبحت المدينة مهدا للأسرة الحمدونية، حيث قضت المدينة مدة عشرين سنة تتمتع بالاستقرار والأمن والطمأنينة مما ساعدها من الارتقاء من مستوى القاعدة العسكرية الكبيرة إلى مستوى العاصمة الجهوية الزاهرة، كما استفادت من مرحلة الهدوء والرخاء التي تبعت سنين الخراب والحرب، ونجد عند

232. ابن خلدون ج 4، ص 84.

233. ابن عذارى، ج1، ص 216، 217.

ابن خلدون أن الأميران أنشآ بالمدينة عددا من القصور والديار والمنازل الفاخرة، وعملوا على توسيع سلطانهم.

كان للظروف السياسية التي تلت تولي الفاطميين السلطة بالمدينة، أثرها المباشر على المدينة حيث تأثرت منذ نشأتها بكثرة الثورات، وبالحركات المعارضة للسلطة التي عملت على خنقها في مرحلة النشأة، فمن المعروف كما سبق أن ذكرنا أن تأسيس هذه المدينة ارتبط بمحاولة السيطرة على الحضنة خاصة وللوقوف أمام الخطر الأموي الزناتي الآتي من المغرب الأوسط والأقصى، ولا ريب أن منطق تحقيق الاستقرار كان هو الشرط الأساسي الذي ساد مرحلة التأسيس.

وبعد ذلك ظهرت مرحلة ثانية اتسمت بظهور سياسة تعمير المسيلة، ترمي إلى تحويل المدينة إلى مركز مستقر يعتمد في تطوره وازدهاره على نشاطاته الاقتصادية المختلفة، بدلا من الاعتماد على ما تقدمه خزائن الدولة، أو ما تقدمه الحرب من خراج وغنائم. وقد انعكس ذلك على الهيئة المادية للمدينة فظهر الاهتمام بزراعة الأرض وشق الأنهار وبناء الأسواق كما سبق أن ذكرنا، ومن جهة أخرى كان لاستقرار الأوضاع السياسية أو اضطرابها من حين إلى آخر أثره المباشر على عمران المدينة، ويعكس هذه الحقيقة تاريخ مدن ناحية المسيلة من طبنة ومقرة وأشير التي عايشت أحوالا مشابهة وهنا لا بد من التأكيد أن ثورة صاحب الحمار، وفيما بعدها ثورات زناتة على المسيلة، ومقارنة ما كانت عليه المدينة من عمران قبل هذه الأحداث وبعدها، لكي يتضح لنا جليا أن عمران المدينة تم على مراحل ارتبطت فيها بالحالة السياسية التي انعكست عليه سلبا وإيجابا.

إن دراسة مدينة المسيلة في عهد الأسرة الحمدونية، بينت أن هذه الأخيرة في مرحلة النشأة قامت بوظيفة العاصمة لإقليم الحضنة وكانت مقر بيت الحكم، لكن الأسرة الحمدونية لم تعمر طويلا وبفرار جعفر من المدينة وتركه لبلاد المغرب، انتقلت منها هذه الوظائف إلى المدينة الجديدة أشير.

لقد ارتبطت بعض التكوينات المعمارية في المسيلة ارتباطا واضحا بوظيفتها السياسية، ومن هذه التكوينات نذكر على وجه الخصوص قصور العائلة الحمدونية،

ودواوين حكمهم، وإدارة جيشهم، بحكم أنها الموضع الذي تدور حوله الحياة السياسية ويدار منه الإقليم والمدينة على السواء.

7. الزيريون ومدينة المسيلة :

أ. تأسيس الدولة الزيرية : كانت قبائل صنهاجة تخضع بعضها للإمارات العلوية[234]، وبعضها مستقل في جباله تحت سلطة عدد من الشيوخ والرؤساء ومن أشهر رؤسائهم مناد بن منقوش[235]. وكان لمناد سمات ميّزته عن غيده أين أجمع الرواة على أنه كان يلفت الأنظار في صباه بجمال الطلعة وحسن البنية وذكائه الحاد، وقد سماه مناد زيري.

أبدى زيري منذ صباه حبا لركوب الخيل والمنازلة، فلما شب كان يقود الغارات في أراضي زناتة التي كانت تعتبر العدو الدائم لقبائل صنهاجة، وبدء زيري يعمل على تزعم قبائل صنهاجة، ورغم معارضة العديد من فروعها تمكن من الظفر برئاسة هذه القبائل بعد صبر وجلد، وبعد معركته الشهيرة مع زناتة بأرض مغيلة، والتي تمكن فيها من سحق أعدائه، دانت له قبائل صنهاجة ورسخت زعامته عليها وبدأ يفكر في تأسيس مدينة تكون له بمثابة القلعة يستطيع من خلالها إدارة قبيلته للدولة.

ب. سلطة الفاطميين بالمغرب : قبل التحدث عن علاقة هذه الدولة الفتية بمدينة المسيلة وحاكمها،يجب علينا معرفة درجة النفوذ الفعلي للفاطميين على أرجاء المغرب، حيث كانت سلطة هؤلاء تمتد نظريا على كل الأراضي التي كانت تخضع للأغالبة. مع العلم أن نفوذ الفاطميين ظل ضعيفا في المغرب الأوسط، أما نفوذهم في المغرب الأقصى فلم يكن ليرسخ لكثرة الثورات، حيث كانت الحالة السياسية شديدة الاضطراب، وقد حاول الفاطميون الاعتماد على قبيلة مكناسة في حربهم مع الأدارسة إلا أن قبيلة مغرواة التي يتزعمها "محمد بن خزر" فوتت

234. مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2، ص 132.
235. إسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، (س ون ث)، ص 41.

عليهم الأمر[236]. وكان الخليفة أبو القاسم عبيد الله يعي الخطر المحدق حول ملكه من جراء التحالف بين الآدارسة وزناتة وبني أمية، لكنه فضل ترك الأحوال على ما هي عليه وتدعيم قبيلة مكناسة المؤيدة له.

ولما توفي عبيد الله المهدي[237] سنة 322 هـ (934 م) كانت معظم مناطق المغرب الأقصى وأجزاء شاسعة من المغرب الأوسط تتمتع بحماية بني أمية، وقد حاول الفاطميون إرجاع الأمور إلى ما هي عليه ودخلوا في معارك شاقة وكثيرة إلا أنهم لم يستطيعوا محوهذه المقاومة الشديدة لسكان المغرب الأقصى المؤيدين من السلطة الأموية[238] بالأندلس.

ج. صنهاجة وموقفها من الأحداث : من جهة أخرى فإن صنهاجة ما بعد توحيد هرم السلطة فيها، وبعد مرحلة من الحياد، تجاه الأحداث الخطيرة التي كانت تدور بالمغرب تفطنت وأصبح زعيمها زيري بن مناد يهتم بشؤون قبيلته ويحرس على مصالحها ويتابع ما يجري في بقية أنحاء المغرب، وأصبح اهتمام زيري يتجاوز النضال التقليدي بين قبيلته وبين زناتة، الأمر الذي جعله يفكر في إنشاء قاعدة تكون مركزا لنفوذه، فهو يعلم بحنكته وتجربته الطويلة أن الانتصار في المعركة سرعان ما تتبدد نتائجه بمجرد ما ينتهي تقسيم المغانم وذلك إذا لم يوطد هذا الانتصار[239] بوجود كرسي للحكم وقلعة أو مدينة تكون نواة الإشعاع به ومركز نفوذه، ووجود نواة دولة تعمل على الدفاع والاستفادة من نتائج الانتصارات العسكرية وتعزز شوكة الزعامة في القبيلة.

أما الفاطميون فإنهم تيقنوا أنه من صالحهم كل ما يجري في صنهاجة، من ظهور تيار وحدوي قوي، يقوده زيري بن مناد، هدفه هو توحيد القبيلة، حيث فهموا أنه

---

236. اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 45.
237. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 90.
238. د. رشيد بورويبة، د. موسى لقبال، د. عبد الحميد حاجيات، د. عطاء الله دهينة، د. محمد بلقراد، الجزائر في التاريخ، ج 3، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، ص 151.
239. د. رشيد بورويبة ومجموعة من المؤلفين، المرجع السابق، ص 152.

بتوحيد هذه القبيلة فإنه سيكون لهم حليف قوي يعتمدون عليه في تركيز حكمهم بالمغرب الأوسط. وقد رأينا في ما سبق أن الفاطميين كانوا قد أسسوا قلعة المسيلة لتثبيت نفوذهم بالحضنة وكانوا يتظاهرون لهم بالعداء فأصبحت قلعتهم نقطة صغيرة وسط عالم كبير يعاديهم، أما هدفهم الجديد فيتلخص في مساعدة زيري على إنشاء قاعدة متقدمة تقف ضد زحف أعدائهم من زناتة، علما أن هذه القاعدة ستكون وسط بلاد صنهاجة تحميها القبيلة من كل عدو. وأن هذه الأخيرة ستكون السند القوي لمدينة المسيلة من الناحية الاستراتيجية.

د. تأسيس أشير ومدى مساهمة المسيليين فيه : لقد قرر زيري إنشاء مدينة أشير في أيام القائم بأمر الله سنة 324 هـ وأمر بإحضار البنائين والنجارين من سوق حمزة (البويرة) ومن المسيلة وطبنة، وأرسل إلى الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله في طلب عدد من الصناع، فأرسل إليه هذا الأخير بمهندس معماري ماهر ليستعين بخبرته وأمده بكميات من مواد البناء النبيلة الغير متوفرة بالمغرب الأوسط كالحديد ومعادن أخرى. وإثر ذلك بدأ الأمير زيري بن مناد في بناء عاصمته وقد واصل العمل فيها حتى انتهى منه ثم خرج إلى طبنة والمسيلة وسوق حمزة، فنقل منها أهل العلم والحرف إلى المدينة التي هو بصدد إنشائها فعمرت بهم وذلك لحاجة المجتمع المدني لمثل هذه الطاقات، ولأن المدينة الجديدة أنشئت دفعة واحدة مما استدعى توفير هذه الطبقة من الصناع والحرفيين التي لم تكن موجودة في المجتمع القبلي والتي هي الميزة الأساسية للمجتمع الحضري، ولقد اقطع لهم زيري القطائع لاستقرارهم في أشير وشجع قدوم فئات جديدة منهم للإقامة بالمدينة علما منه أنها تشكل النسيج الحي للمدينة بما تقدمه من خدمات لا تحصى، ولا تعتبر المدينة مدينة بأتم معنى الكلمة إلا بتوفرها على هذه الشريحة من المجتمع.

8. بعض مشاهير العلماء بالمسيلة والقلعة :

لقد أدت المسيلة في العصر الوسيط دورا تاريخيا وحضاريا هاما، حيث كانت القلعة تمثل عاصمة الحماديين الأولى قبل نقلها إلى بجاية. وكانت تمثل نقطة صراع

الحركات السياسية ومركز التقاء التيارات الفكرية والأدبية في العصر الوسيط وقد زاد من أهميتها العلمية والفكرية في المقام الأول، موقعها الإستراتيجي الذي يتوسط منطقة المغرب العربي، فهي تقع على الطريق الرابط بين أفريقية والمغرب الأقصى، ثم ما عرف عن أميرها جعفر بن علي بن أحمد بن حمدون المعروف بابن الأندلسية من السماحة وكثرة العطاء وإيثاره لأهل العلم والعلماء[240] مما جعلها محط أنظار أهل العلم من الدراسين والعلماء فقصدوها من كل حدب وصوب.

وإذا كانت القلعة قد تبوأت مكانة حضارية عالية على وجه العموم، فإنها أيضا قامت بدور بالغ الأهمية في الميدان العلمي والثقافي على وجه الخصوص وذلك منذ الأيام الأولى لنشأتها وبقيت كذلك تؤدي رسالتها العلمية حتى بعد نقل العاصمة إلى بجاية بفترة طويلة. ولم تفقد مكانتها العلمية بين سائر المدن الإسلامية آنذاك. ولعل أصدق دليل على ذلك ما ورد في كتب بعض المؤرخين[241] من إشارات إلى بقاء بعض العلماء بها لمدة زمنية بلغت الأربعين سنة بعد تاريخ نقل العاصمة الحمادية إلى بجاية مما يدل على أن القلعة لم تفقد مكانتها العلمية إلا بعد مرور فترة زمنية طويلة من تأسيس مدينة بجاية. ربما كان السبب في ذلك هو خراب المدينة نهائيا، وإلا لما فقدت مكانتها واستمرت في نشر العلم والمعرفة.

ولقد سجلت لنا المصادر التاريخية تراجم مجموعة من العلماء[242] تبحروا في مختلف العلوم منهم من ولد بها وتلقى علومه بها، ومنهم من قصدها من أجل التحصيل العلمي وانتهى به المطاف إلى الاستقرار بها[243] ومنهم من نشأ بها ودرس فيها ورحل إلى مناطق أخرى إما نشرا للعلم أو لتلقي المزيد من العلم أو هروبا من بطش الغزاة الهلاليين مثل ما حدث لغيرها من المراكز الحضارية في الشرق[244]

---

240. عادل نويهض = معجم أعلام الجزائر ، بيروت، 1971، ص 52.

241. الغبريني أحمد : عنوان الدراية ، ش.و.ن.ت الجزائر، 1981 ص 192.

242. للمزيد أنظر : نفس المصدر، ابن الأبار، التكملة، الحفناوي، تعريف الخلف.

243. نور بشير: دور مدينة المسيلة والقلعة في الحياة المغربية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الملتقى الدولي الأول حول آثار قلعة بني حماد ؟

244. إسماعيل العربي : دولة بن حماد ملوك القلعة وبجاية، ش. و. ن. ت، الجزائر 1980، ص 138.

فقربهم أمراء هذه المدن وقلدوهم مناصب رفيعة تتلاءم ومكانتهم العلمية. ونذكر من هؤلاء العلماء :

- **إبراهيم بن حماد أبو إسحاق القلعي** : وهو فقيه مالكي من أهل قلعة بني حماد ورد ذكره في كتاب التكملة لإبن الأبار[245] عاش في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

- **أحمد بن محمد بن أحمد المسيلي :** نشأ بالمسيلة حيث تلقى تعليمه الأولي ثم سافر إلى تونس ودرس بها عن ابن عرفة وأبي عيسى الغبريني[246] كانت له اهتمامات كثيرة بالعلوم النقلية كالفقه والتفسير.

- **حسن بن علي بن محمد المسيلي أبو علي** : يعود أصله إلى مدينة المسيلة رحل إلى بجاية وتوفي بها سنة 580 هـ – 1185 م، كان فقيها مالكيا، حافظا ومتكلما، تولى القضاء ببجاية إلى أن دخلها بنو غانية سنة 581 هـ واحتلوها وأكرهوه على مبايعتهم فرفض واعتزل القضاء واهتم بالتدريس في مساجدها، ترك مؤلفات كثيرة[247] ذكرها الغبريني وعلّق عليها منها : التذكرة في أصول علوم الدين، النبراس في الرد على منكر القياس، والتفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات. وهو كتاب اتبع فيه منهج أبي حامد الغزالي في كتابه الإحياء في طريقة عرض القضايا وتحليلها حتى لقب بأبي حامد الصغير وقد قال فيه الغبريني : "وكلامه فيه أحسن من كلام أبي حامد وأسلم، ودل كلامه فيه على إحاطته بعلم المعقول والمنقول، وعلم الظاهر والباطن، ومن تأمل كلامه أدرك ذلك بالعلم اليقين، ولم يفتقر فيه إلى تبيين وهو كثير الوجود بين أيدي الناس، وكثرة وجود الكتاب دليل على اعتناء الناس به وإيثارهم له"[248].

---

245. التكملة لكتاب الصلة، ج 1مصر، 1956، ص 174.
246. الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، الجزائر، 1906، ص 73.
247. نفس المرجع، ص 59.
248. الغبريني، المصدر السابق؟

- يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل المعروف بابن النحوي : أصله من مدينة توزر كان فقيها مجتهدا وشاعرا نظم عدة قصائد، درس على يد أبو حامد الغزالي، طاف ببلاد المغرب لينشر مذهب أستاذه الغزالي فمكث في فاس ثم سجلماسة، وعاد إلى قلعة بني حماد وعاش فيها بقية عمره زاهدا ينشر العلم والمعرفة حتى قال فيه محمد بن علي بن حماد "كان أبو الفضل ببلادنا كالغزالي في العراق علما وعملا" مات بالقلعة سنة 401 هـ - 1110 م[249].

- محمد بن محمد بن أبي بكر المنصور القلعي أبو عبد الله : فقيه مالكي من أهل قلعة بني حماد، أخذ عن مشيخة بلاده ثم انتقل إلى بجاية واستوطنها إلى أن توفي نحو 665 هـ / 1270 م.

- المعافري : أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري، أبو العباس، نشأ بقلعة بني حماد ودرس فيها عن أبيه في نهاية القرن السادس الهجري وعلى يد الأستاذين أبو الحسن على بن محمد بن عثمان التميمي، وأبو الحسن علي بن الشكر بن عمر القلعي، وأخذ أيضا عن الخطيب المقرئ النحوي أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن محمد المعروف بابن عفراء، والفقيه الفاضل الزاهد أبي عبد الله محمد بن المعطي المعروف بابن الرماح وغيرهم.

اهتم بالفقه وعلم القراءات وعلوم اللغة ثم انتقل إلى بجاية واستوطنها فأخذ العلم فيها عن أبي زكريا الزواوي حيث ولي الخطابة بجامع القصبة وأقرأ بها واشتهر بحسن التلاوة حتى إذا كانت ليلة السابع والعشرون من رمضان امتلأ المسجد بالمصلين لسماعه، ومكث بها إلى أن وافته المنية بها، له مختصر كتاب التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو وعثمان ابن سعيد الداني[250].

---

249. عادل نويهض : مرجع سابق، ص 207، ولنظر أيضا : جورج مارسي : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمد عبد الصمد هيكل، منشاة المعارف، الأسكندرية، 1991، ص 220.

250. التبريني، مصدر سابق ص 159.

- **ابن رشيق القيرواني :** هو الحسن بن رشيق أبوعلي الشهير بالقيروان، لقب بهذا الاسم لطول مدة مكوثه بالقيروان، ولد بالمسيلة سنة 385 هـ - 995 م، اهتم بالأدب والتاريخ فدرسها عن علماء بلده ثم رحل إلى القيروان حيث لازم كبار علمائها وأخذ عنهم العلم. مدح أميرها المعز فقربه إليه وجعله كاتبا فذاع صيته بالقيروان إلى أن غزا الهلاليون افريقية، فلجأ إلى صقلية وأقام بها إلى أن توفي بها سنة 463 هـ / 1071 م[251].

وقد خلّف مجموعة من الكتب منها "العمدة في صناعة الشعر ونقده" و "أنموذج الزمان في شعراء القيروان"، و "قراضة الذهب في نقد أشعار العرب"، و "ميزان العمل في تاريخ الدول"، و "تاريخ القيروان" وكلها كتب جمع فيها بين التاريخ والأداب[252].

- **الأصم** : محمد بن عبد الله بن زكريا أبو عبد الله القلعي الشهير بالأصم :شاعر من أهل قلعة بني حماد ورد ذكره في بعض المصادر التاريخية وأثنت على شعره، سافر إلى بلاد المشرق وانتهى به المطاف في مدينتي الإسكندرية والقاهرة ومكث بهما مدة زمنية غير أنه لم ينل المكانة التي ينشدها لدرجة بلغت به عجزه عن تحصيل قوت يومه فقفل راجعا وفي طريقه مر بقوم يدعون ببني الأشقر من بلاد طرابلس الغرب فامتدحهم بقصيدة جميلة فأحسنوا إليه وأجزلوا له العطاء[253] ثم سكتت المصادر عن ذكره بعد ذلك.

---

251. عبد الرحمان الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج1، مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص 358. وانظر أيضا : جورج مارسي، مرجع سابق، ص 219.

252. عادل نويهض : المرجع السابق، ص 62.

253. نفس المرجع، ص 158.

المحور الخامس

المراكز الحضارية في دولة بني زيري

1. تعريف قبيلة صنهاجة
2. النشاط الاقتصادي لصنهاجة
3. الانقسامات الداخلية في القبيلة الصنهاجية
4. مدينة أشير (الموقع والتسمية)

- الموقع
- التسمية (يشير أو الأشير)

5. وصف أطلال أشير
6. وصف أطلال منزه بنت السلطان
7. وصف مدينة بنية

المراكز الحضارية في دولة بني زيري

1. تعريف قبيلة صنهاجة

هي قبيلة بربرية ترجع أصولها إلى العصور التاريخية القديمة، وكانت تشغل المجال الجغرافي الممتد من الحدود الشمالية الشرقية لجبال الأوراس إلى مدينة تنس، وتروي المصادر والكتب التاريخية أنها كانت تعيش حياة متنقلة بين منطقة وأخرى شبيهة بحياة بعض البدو وقبائل الطوارق الحالية[254].

أما نسبها فشأنه شأن بقية القبائل البربرية الأخرى، فهو يكاد يكون غير واضح المعالم، وقبيلة صنهاجة قسمان :صنهاجة الشمال وصنهاجة الجنوب التي يعود إليها الفضل في تأسيس دولة المرابطين والتي كان أفرادها يوصفون بالملثمين[255] لارتدائهم اللثام على وجوههم. ندع الآن صنهاجة الجنوب جانبا لأن الذي يهمنا من هذه القبيلة صنهاجة الشمال التي تمثل موضوع دراستنا هذه والتي إليها ترجع أصول الدولة الزيرية والدولة الحمادية على السواء واللتان تمثلان أساس هذه الدراسة على وجه التحديد.

يذهب ابن خلدون إلى القول أن هذه القبيلة ونقصد هنا قبيلة صنهاجة الشمالية تشكل ثلث بربر المغرب[256]، ذلك أن عناصرها كانت منتشرة في مختلف مناطق بلاد المغرب بين سهولها وجبالها، والجدير بالذكر أن هذه القبيلة لم تكن بارزة على ساحة الأحداث إلا مع مطلع القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، إذ لم يرد ذكر

254. ابن خلدون : كتاب العبر ج 6، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 179.
255. ابن عذارى : البيان المغرب، ج 1، المكتبة الأندلسية، 1980، ص 254.
256. ابن خلدون : المصدر السابق، ص 179.

اسم هذه القبيلة قبل هذا القرن ضمن مجموعة القبائل البربرية الأخرى التي وقفت بطريقة أو بأخرى في وجه الفتح الإسلامي للمغرب. وربما لا يمكن إغفال ما كان لهم من دور كبير في الحركة الخارجية بحيث اشتهروا بقسوتهم واستخدامهم العنف ضد أهل السنة وقد تجسد ذلك في وقوفهم إلى جانب الخوارج الصفرية بقيادة عبد الملك وتعاونهم من جهة أخرى مع عبد الرحمان بن رستم مؤسس مدينة تيهرت ومعاداتهم لممثل الخلافة السنية عمر بن حفص.

إن كل هذه الأحداث والنشاطات التي قامت بها هذه القبيلة، ربما هي التي جعلتها تبرز على مسرح الأحداث في القرن الرابع دون القرون السابقة.

وأما فيما يتعلق بنسبهم فقد تباينت في ذكره كتب الأنساب واختلف فيه المؤرخون فهذا مثلا ابن خلدون قسم هذه القبيلة إلى عدة فروع هي :

- تلكاتة، وأنجفة، وشرطة، ولمتونة، ومسوفة، كدالة، مندلة، بنو وارث، وبنو يتسين.

وأما أنجفة فيقسمها إلى :بنو مزورات، وبنو سليب، وقشتالة، وملوانة[257].

ويرى ابن خلدون أن صنهاجة تتكون من أكثر من سبعين بطنا[258]، لا يسع المجال هنا للإشارة إليها والإحاطة بها، فنحن سنكتفي فقط بالتطرق إلى الفروع التي لها علاقة مباشرة بتأسيس الدولتين الزيرية والحمادية واللتان تشكلان موضوع دراستنا كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك.

ولما كانت قبيلة تلكاتة هي التي عمرت المغرب الأوسط، في حين أن بقية القبائل الأخرى كانت تقطن المناطق الصحراوية، فإن حديثنا سيرتكز حول هذه القبيلة لما كان لها من دور بالغ الأهمية في تشييد المدن الصنهاجية التي تشكل موضوع هذه الدراسة.

إن قبيلة تلكاتة[259] التي هي أحد فروع صنهاجة لم تبرز على واجهة الأحداث إلا في القرن التاسع الميلادي وذلك على يد مناد بن زيري التلكاتي الصنهاجي الذي

257. ابن خلدون : المصدر السابق، ص 180.
258. المصدر نفسه، ص 180.
259. ابن خلدون : المصدر السابق، ص 180.

تبنى القضية العباسية بعدما تم إسنادها إليه من طرف الحكام الأغالبة في تونس.

لقد استقرت هذه القبيلة في مجال جغرافي شبه جاف قليل الغلات يعتمد على مياه الأمطار في الري والزراعة وعلى تربية المواشي التي تتأقلم وهذا المناخ.

إن الإطار الجغرافي الذي تقطنه قبيلة صنهاجة يتميز بصعوبة مسالكه وبوعورة تضاريسه المتكونة في الغالب من الجبال والتلال وقلة المياه التي تساعد على الزراعة، لذلك فقد كانت زراعتهم تعتمد على مياه الأمطار، فجاء جل النشاط الاقتصادي لصنهاجة معتمدا على تربية المواشي الأمر الذي جعلهم يستقرون في تجمعات بشرية صغيرة، ولا ينتقلون إلا عند الضرورة القصوى بحثا عن الغذاء لمواشيهم، ولما كانت تجمعاتهم البشرية تتخذ من المناطق الجبلية مواقع لها فكانوا يعتمدون على المراعي الجبلية أثناء فترة الصيف، ويضطرون إلى النزول إلى السهول الجنوبية القريبة منهم أثناء فصل الشتاء بحثا عن المراعي، وكانت وسيلتهم في ذلك لقطع هذه المسالك الجبلية الوعرة هي الحمير والبغال.

2. النشاط الاقتصادي لصنهاجة :

كانت القرى الصغيرة المنتشرة على الأراضي الصنهاجية والمتباعدة في الوقت نفسه مسرحا للنشاط الاقتصادي الذي يعتمد أساسا على تجمع الحرفيين يوما واحدا من كل أسبوع لعرض صناعاتهم كل حسب النشاط الذي يمتهنه من صناعة الخشب، والحديد والذهب وغزل الصوف ونسجها وصباغتها والخياطة، ومن باعة لمختلف العقاقير التي تحتاج إليها الأسرة الصنهاجية في حياتها اليومية وأعشاب طبية، وقد كان هذا النشاط الاقتصادي المتنوع هو الطابع الذي ميز مختلف التجمعات البشرية الصنهاجية انطلاقا من قصور الجنوب المشيدة على جبال العمور وانتهاء بتجمعات المناطق الوسطى.

أما نشاط الأسرة الصنهاجية، فكانت المرأة هي أبرز أعمدتها حيث كانت تتولى تدبير الشؤون المنزلية من تحضير الطعام وصناعة الصوف التي كانت العمود الفقري الذي يقوم عليه اقتصادهم، نظرا إلى الطبيعة الجغرافية التي كان يعيش

فيها الصنهاجيون والتي كانت تشجع على تربية الأغنام مما جعل هذه المادة الحيوية (الصوف) متوفرة بشكل كبير، صنعت منها المرأة الصنهاجية الألبسة الصوفية والأغطية لمقاومة برودة الجو في فصل الشتاء والتي كثيرا ما كانت تتميز بتساقط الثلوج.

كما أن الحاجة اليومية لاستعمال بعض الأواني في الإطعام والشراب دفعت بالمرأة الصنهاجية إلى تخصيص جزء من وقتها لصناعة تلك الأدوات الفخارية التي تحتاج إليها. فصنعت أواني فخارية غاية في الجمال والإتقان، وقد زاد من روعة هذه الأواني تلك الزخارف التي زينتها بها والتي دلت على طراز صنهاجي مميز في الزخرفة.

وإذا كانت هذه النشاطات المتنوعة التي كانت تقوم بها المرأة الصنهاجية إنما تدل على عظمة هذه المرأة ومساهمتها في بناء الاقتصاد الصنهاجي في ظل طبيعة لا تسمح إلا بزراعة بعض المحاصيل الزراعية القليلة بسبب ندرة المياه، فإن الرجل الصنهاجي لم يقف مكتوف اليدين أمام هذه النشاطات التي صنعتها المرأة بل ساهم أيضا بقسط كبير في بناء أسرته وتوفير ظروف الحياة اللائقة لها، وربما كان النشاط المميز للرجل الصنهاجي هو الدفاع عن أسرته خصوصا وعلى المدن الصنهاجية على وجه العموم من الأخطار التي قد تستهدف أراضيه.

لقد كانت استراتيجيته في الدفاع عن نفسه وعن مدينته أن ركن إلى الجبال والمناطق المرتفعة وتحصن بها أولا ثم مشيدا بها مدنه في مرحلة ثانية، ربما أن الطبيعة الجغرافية التي نشأ بها هي التي أملت عليه هذه الفكرة، وقد يرجع لجوءه إلى هذه المواقع الاستراتيجية المرتفعة أيضا إلى عدم امتلاكه للخيول وتربيتها، خاصة وأن هذا النوع من الحيوان كان يمثل الوسيلة الأولى في الحروب، ويمكن أيضا أن يفسر عدم تربيته لهذا النوع من الحيوان بالطبيعة الجبلية التي لا تساعد على ذلك، وقد زاد من قوة هذه الوسيلة الدفاعية الطبيعية صعوبة الوصول إليها في حالة الهجوم ومعرفته لمسالكها وتمكنه من إجادة الدفاع في ظلها.

3. الانقسامات الداخلية في القبيلة الصنهاجية :

إن الشيء الجدير بالتنويه إليه هو أن قبيلة صنهاجة التي انتشرت في مناطق شاسعة من المغرب الأوسط والتي تعيش بعض بطونها في حياة ترحال وتنقل في الصحراء، ليس لها أصل واحد ولكننا سنرى كيف أنها في كثير من الحالات استطاعت أن تكون جماعة متلاحمة موحدة، وربما أحسن دليل على ذلك هو الصلح الذي أبرم بين الحماديين والمرابطين قرب مدينة تلمسان.

لقد تمكنت قبيلة تلكاتة بفضل قوتها وحكمة شيخها وشجاعته أن توحد فخوذ قبيلة صنهاجة حولها، فمناد بن زيري هو أول من ظهرت زعامته بقوة، وهو الذي بدأ عملية التحضير الفعلي لتنظيم صفوف قبائل صنهاجة، حيث تمكن من توحيد هذه القبيلة والدفاع عن أراضيها ضد الغارات المتكررة لقبيلة زناتة، كما استطاع أيضا أن يبني علاقات طيبة مع الدولة الأغلبية وقدم لها خدمات جليلة، كما استفاد من مساعداتها المالية وكذا المساعدات الأخرى المتعلقة بميدان التسليح.

إن مساعدة الأغالبة له كانت أساسية حيث كانت تهدف إلى تمكينه من تأسيس منطقة واسعة خاضعة لسلطة قبيلة تلكاتة وهو الأمر الذي رسخه من جاء بعده من الحكام.

إن هذه الضرورة الملحة هي التي جعلت ابنه زيري بن مناد يحالف الفاطميين من أجل تقوية ساعده.

إن الاستقرار الذي نعم به الزيريون جعلهم يشيدون مدنا فاقت سمعتها بلاد المغرب الأوسط لم يبق منها اليوم إلا خرائب تدل عن الماضي المجيد لهذه الدولة.

4. مدينة أشير : الموقع والتسمية

تعتبر مدينة أشير أول الحواضر الثقافية الزيرية التي أصبحت فيما بعد تابعة للدولة الحمادية.

أ. الموقع : تتكون مدينة أشير من ثلاثة تجمعات بشرية هي : منزه بنت

السلطان، أشير وبنية، وسنحاول في هذا البحث تقديم هذه المواقع الأثرية التي كانت في يوم ما مدنا لها شأنها، ويحسب لها حسابها في المغرب الأوسط.

بتأسيس هذه المدينة يبدو أن زيري بن مناد أصبح سلطانا يحسب له ألف حساب، حيث جاءت هذه المدينة كنتاج للتنظيم الذي بلغه زيري بن مناد، والمتمثل في إنشاء إمارة ستعرف فيما بعد باسمه وذلك سنة 324 هـ / 935 م. أضف إلى هذا أن هذه الإمارة كان لابد لها من عاصمة تمثل قلب الدولة الجديدة، نظرا لِكَوْنِ قبيلة صنهاجة كانت تعيش حياة نصف بدوية، ولم تكن لها في مضاربها مدن كبيرة.

لقد ظهرت في هذه القبيلة العتيدة زعامات كثيرة، لكنها لم تحقق الملك، فالرجل الصنهاجي لم يدرك أنها لم تتمكن من إخراج القبيلة من النظام التقليدي القبلي إلى نظام الدولة، فالملك يحتاج إلى قصر يستقبل فيه ضيوفه وإلى مدينة تعرف به ويتولى فيها تدبير شؤون ملكه.

فعند زناتة لا يوجد زعيم أو قائد إلا وهو رئيس عصابة يعيش كباقي أتباعه، ثم أن سلطته الشخصية ليست سلطة وراثية، فعادة ما يخلفه عن المدن قريبا من أقربائه أو أحد أفراد القبيلة.

لقد عمل زيري بن مناد على أن لا يكون قائد عصابة، بل عمل على أن يكون ملكا محترما، فأسس مدينة محصنة وبنى فيها قصرا يضاهي في فخامته قصور مدينة القيروان أو المهدية.

إن تأسيس مدينة أشير يطرح سؤالا محيرا لم يجد له المؤرخون وعلماء الآثار المختصون بالفترة الإسلامية إلى يومنا هذا جوابا مقنعا، فالنصوص التاريخية التي هي بحوزتنا أو تلك التي تمكننا من الوصول إليها، ليست بالكثيرة ولا بالواضحة، فأكثرها تفصيلا نص النويري[260] الذي كتب في القرن الثامن الهجري (14 م)، والذي اعتمد في كتابه على كثير من المصادر التي نعرف بعضها ولم يصلنا البعض الآخر منها. وأهم ما جاء في حديثه قوله أن زيري بعدما تمعن في دراسة موضع المدينة

260. النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 6، دار الكتب المصرية، 1923، ص 485.

قال لأصحابه هذا هو المكان الذي يليق بمقامكم، ثم عمد إلى بناء المدينة وكان ذلك في عام 324 هـ / 935 م في عهد الخليفة الفاطمي القيم بن المهدي.

وخلاصة القول أن زيري بن مناد لم يكن قائدا مغامرا بل داهية يمتاز بالحكمة والذكاء الأمر الذي جعله يستطيع أن يوحد طاقات قبائل كانت متناحرة تحت سلطته ليصل إلى مبتغاه الذي كان ينشده.

لقد تمكن هذا الرجل الفذ من إيصال قبيلة تلكاتة إلى أعلى المراتب كيف لا وهو الذي كان في نعومة أظافره يتزعم أطفال القبيلة حسب ما ذهب إليه النويري[261].

إن هذه السمعة بقيت معه طول حياته، فهو يتميز بطول القامة، وبنشاط وصحة طيبة وبنظرته الحادة التي تطأطأ لها الرؤوس. لقد كان قائد حرب وزعيم بني تلكاتة، فهو الذي قادهم في غزواتهم المتكررة على مواطن زناتة، وهو الذي استطاع أن يأسر منهم الكثير وأن يقتل منهم.

لقد حضر زيري بن مناد جيشا تميز بنظامه وبطاعته العمياء، إن هذا الجيش سيمكنه إلى جانب قبيلته من السيطرة على فخوذ صنهاجة المختلفة، ولم يتمكن من هذا الأمر إلا بعد مواجهته لصراعات عديدة لم يسلم فيها أهله الذين حاربهم حتى تمكن من الوصول إلى توحيد هذه القبيلة وتنظيمها تنظيما محكما وإعدادها إعدادا جيدا لتنتقل من التنظيم القبلي إلى تكوين دولة تضاهي في تنظيمها بقية الدول الأخرى ولينتقل هو من كونه شيخ قبيلة إلى اعتلاء مرتبة الأمير أو السلطان ويتمكن من بسط نفوذه على أراضي صنهاجة.

لقد تمكن من خلال حربه مع زناتة أن يجمع عددا كبيرا من الخيول كما غنم كمية هائلة من الأسلحة مكنته فيما بعد من الوقوف لمساندة الفاطميين في أحلك أيام حكمهم عندما تمكن صاحب الحمار يزيد بن مخلد بن كداد من السيطرة على كل المغرب ولم يترك للفاطميين إلا ما هو داخل أسوار المهدية[262].

---

261. النويري : المصدر السابق، ص 485.

262. ابن عذارى : المصدر السابق، ص وانظر أيضا ابن خلدون :المصدر السابق، ص 181.

لقد جاء زيري بن مناد بالبناة والنجارين والعمال في مختلف الاختصاصات من المسيلة وحمزة (البويرة الحالية) وطبنة وطلب من الخليفة القيم أن يرسل له مهندسا عمرانيا يمتلك خبرة تفوق خبرة كل مهندسي إفريقية. وطلب منه أيضا أن يرسل إليه كمية هائلة من الحديد والمواد الإنشائية التي توجد في المغرب الأوسط، وبدأ بعد ذلك العمال يقومون بعملية بناء المدينة، وبعد الانتهاء من أعمال البناء توجه زيري بن مناد إلى طبنة والمسيلة وحمزة ليحمل منها الطبقات الفاعلة من السكان إلى عاصمته الجديدة[263]، وهكذا عمرت مدينة أشير بسكان لهم تقاليد حضرية وأصبحت من أكثر المدن تحصينا.

لقد ذكرت المصادر التاريخية أن هذه المدينة لا يستطيع أحد أن يدنو منها إلا من ناحية الشرق وأن عشرة من الرجال الأشداء باستطاعتهم أن يدافعوا عنها من هذه الناحية[264].

إن موضع المدينة يمتاز بحصانته الطبيعية الهائلة، فالمدينة أسست على رأس جبل تحيط بها فجاج عميقة إلى درجة يمكن في كثير من الأجزاء الاستغناء عن السور الذي كان يمثل الوسيلة التحصينية الأولى في أغلب المدن الإسلامية المغربية، بل قد اكتفى الزيريون بتحصين بعض النقاط الضعيفة طبيعيا من حيث التحصين ببناء أسوار لسد هذه الثغور وأن الذي زاد من قيمة هذا المكان احتواءه على عيون تسقي المدينة وأن مياها كانت غزيرة وتمتاز بجودتها.

لقد عاشت المدينة في عهد زيري بن مناد حياة امتازت بطابع الخشونة، فأهلها لم يكونوا يتعاملون بالنقود فلم نعثر على دلائل أو إشارات في الكتب التاريخية تؤكد تعامل أهل هذه المدينة بمختلف أنواع النقود من ذهبية وفضية، بل المرجح أن أهلها كانوا يقايضون القمح بالحيوان إلى غير ذلك من أنواع السلع.

إن هذا الأمر جعل الأمير الجديد يستدرك الأمر ويضرب النقود التي هي رمز سلطته وينشئ جيشا نظاميا يتقاضى أفراده راتبهم بانتظام.

---

263. ابن خلدون : المصدر السابق، ص 181.

264. البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريس، 1965، ص 60.

كان لتأسيس مدينة أشير والأمن الذي وفره النظام الجديد أن أصبحت المدينة سوقا رائجة، فانتقل السكان المحيطين بها من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار والعمل في الميدان الزراعي.

ومن جهة أخرى فقد أشار البكري[265] المعاصر للأحداث إلى أن مدينة أشير كانت من أعظم مدن المغرب ويذهب إلى القول أن هذه المدينة لم يكن لها مثيل في المنطقة من ناحية التحصين وان عشرة رجال بإمكانهم الدفاع عنها، ذلك أنه لا يوجد مسلك يربطها ببقية العالم الخارجي إلا من الناحية الشرقية، هذا المسلك الذي يؤدي إلى "عين مسعود"، ففي كل الاتجاهات الأخرى كانت الصخرة التي شيدت عليها المدينة ترتفع عن سطح الأرض بارتفاعات كبيرة بحيث لا يستطيع أحد تسلقها، زد على ذلك فإن الناحية محصنة طبيعيا لأنها منطقة جبلية ذات مسالك ضيقة ووعرة في نفس الوقت.

أما مصادر مياه المدينة فكانت في الداخل، حيث كانت تنهمر المياه من عينين هما عين سليمان وتالا نتيرغ.

لقد بنى بولوغين بن يوسف بن زيري بن مناد تحصينات المدينة سنة 367 هـ / 977 م لكنها خربت سنة 440 هـ / 1048 م من طرف يوسف بن حماد وابن زيري الذي خرب المدينة وترك جيشه ينهب ويحرق ويتعدى على أعراض الناس، إلا أن المدينة قد تمكنت بعد خمسة عشرة سنة من أن تعود كما كانت عليه في أعز أيامها.

إن المصادر التاريخية لا تتفق حول أمرين أساسيين هما تاريخ إنشاء مدينة أشير ومؤسسها، فالبكري الذي كتب في القرن الحادي عشر ميلادي وهو يعد الأقدم والذي يمكن أن يكون كتابه أصح هذه المصادر رغم عدم زيارته للمغرب واعتماده على الرواة الزائرين للمنطقة وبعض الكتابات والوثائق والشهادات المختلفة زادت من مصداقيته في الكتابة، يذكر أن الذي أنشأ مدينة أشير هو زيري بن مناد[266].

---

265. يقول البكري في هذا الصدد : "وهي جليلة حصينة يذكر أنه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما". المغرب ، ص 60.

266. البكري : المصدر السابق، ص 60.

أما النويري المتوفى سنة 733 هـ / 1332 م[267] والذي اعتمد على نصوص عديدة من ضمنها نص البكري فيبدو أنه اختلطت عليه الأمور فتارة يتحدث عن آشير وتارة أخرى عن مدينة بنية وهو يصف نفس الموقع وكأنه كان يجهل وجود مدينتين يحمل كل منهما اسما من هذه الأسماء.

أما ابن خلدون[268] الذي كتب في هذا الموضوع في القرن 15 م، فإنه لم يأت بالجديد في موضوع تأسيس مدينة أشير ومؤسسها، وكأنه كالنويري لا يعلم أن هناك تجمعين سكنيين مختلفين يسكنان جنبا إلى جنب في وقت متقارب من الزمن.

إن علماء الآثار وقفوا حيارى أمام هذه المشكلة المستعصية لولا وجود نص ابن الأثير الذي لم ينتبه إلى أهميته الكثير منهم، فهذا الأخير كتب في أواخر القرن 12 ميلادي وبداية القرن 13 م.

وقد جاء في حديثه أن بلكين تقدم نحو أعدائه وجعلهم يحاربون ويتقهقرون إلى الخلف ثم بدأ في حصار تلمسان وفي آخر المطاف أعلن سكانها الخضوع، لكنه عفى عنهم وقرر نقلهم إلى مدينة أشير حيث أسسوا مدينة جديدة سموها أيضا باسم تلمسان وقد جرت هذه الأحداث في سنة 361 هـ / 972 م[269].

ويشير نفس المؤرخ في موضع آخر من كتابه[270] أنه بعد انتصاره على أهل تلمسان قادهم إلى الموضع الذي ستنشأ فيه مدينة أشير، فلما راقهم لكثرة عيونه، أسس المدينة التي تحمل هذا الاسم أين أمر أصحابه بالإقامة فيها، لكن هذا الكلام لا يتفق مع ما جاء في نصوص أخرى حيث ترى أن زيري هو الذي أسس المدينة، ثم أن ابن الأثير نفسه يتكلم عن وفاة زيري سنة 361 هـ، إذن فالمراد به هنا هو بلكين بن زيري وهذا ما يؤكد ما جاء عند البكري[271] مع اختلاف بين البقية في تاريخ التأسيس الذي لا يتعدى عندهم عدة سنين.

---

267. النويري : المصدر السابق، ص 485.

268. ابن خلدون : المصدر السابق، ص 181.

269. ابن الأثير : الكامل في التاريخ، الفصل المنشور في الحوليات المغربية والأندلس، الجزائر، 1901، ص 377.

270. ابن الأثير، المصدر السابق، ص 372.

271. البكري : المصدر السابق، ص 60.

والحقيقة أن البكري تكلم عن بناء تحصينات ولم يتكلم عن تأسيس مدينة، إن كل هذه الأمور لا تسهل من مهمة المؤرخ للحصول على الحقيقة التي ينشدها، إلا أننا نستطيع من خلال نص ابن الأثير أن نتأكد من تأسيس التلمسانيين لمدينة أعطوها اسم مدينتهم الفعلية، فنحن نعرف أن مثل هذا الأمر قد وقع أكثر من مرة في تاريخ المغرب الوسيط، ففي فاس أسس المهاجرون إليها من مدينة القيروان عدوة سموها بعدوة القرويين، كما أسس أيضا المهاجرون إليها من الأندلس عدوة سموها بعدوة الأندلسيين[272]، والسؤال المطروح بحدة هو، هل تلمسان ذلك الزمان هي المدينة المعروفة ببنية في الوقت الحاضر ؟ ذلك أننا لسنا متأكدين من هذا الأمر جيدا، ومع ذلك نستطيع التكهن بأن بلكين فهم بسرعة قيمة موضع هذه المدينة التي أنشأها قرب العيون وعلى سطح جبل الكاف الأخضر من حيث لا يستطيع أن يسيطر على السهول المقابلة، فعمل على أن تصبح مدينة بنية عاصمة للزيريين في أول عهدهم ورحل إليها قبيلة صنهاجة، ومهما كانت الأمور فإنه يجب الاعتقاد بوجود مدينتين، الأولى أنشئت من طرف زيري والثانية من طرف بلكين، وكلاهما تحمل نفس الاسم.

إن المستكشف لموضع مدينة أشير القديمة، يلاحظ وجود عين من الماء على بعد نحو واحد كلم من مركز الموضع، هذه العين قليلة الماء وتسيل في وسط مجرى عميق وضيق.

ورغم أن البقايا الأثرية تدل على أن المدينة توجد على بضع مئات من الأقدام شرقي السور، وأن هذه الأخيرة تتمحور حول أطلال قصر زيري.

فإن مخطط هذا القصر يظهر مدى اهتمام الزيريين بالمنشآت المائية، فهناك قنوات ممدودة وهناك بيوت ماء وحمامات خاصة، وكل هذه المنشآت تدل على استعمال كميات هامة من المياه في الحياة اليومية، ونحن نرى – بعد الزيارات العديدة لأشير – بل ونعتقد اعتقادا جازما أن أمراء بني زيري قد استعملوا العيون

272. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، د.ت.، ص 417، 418.

الكثيرة الموجودة في قمة جبل الكاف الأخضر، كما هو الشأن في قلعة بني حماد ذلك أن مالاحظناه عند زيارتنا لهذه المدينة، أن المياه كانت تستجلب من أماكن بعيدة.

فالحماديون أيضا بنوا بالقلعة قصورا فخمة منها قصر البحر الذي كان به حوضا مائيا ضخما تقام فيه السباقات المائية، فالمتمعن في الثروة المائية لقلعة بني حماد يعي أنها كانت لا تكفي لسد حاجات المدينة، وقد لجأ المهندسون الحماديون إلى جلب المياه الصالحة للشرب لسد النقص المسجل في هذه المادة الحيوية من الأماكن البعيدة واستعملوا في ذلك تقنيات متقدمة.

إن موضع مدينة أشير كان موضعا استراتيجيا من الناحية الدفاعية، لكنه كان بالمقابل ضعيفا من ناحية قدراته المائية مما يفسر معاناة أهل أشير من قلة المياه ومن صعوبة جلبها وتوفيرها بكميات كافية للمدينة خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الكميات الهائلة التي تحتاج إليها المرافق العمومية وقصور الأمراء، وهذا أيضا يجعلنا نتصور الأموال الباهضة التي يجب إنفاقها من أجل توفير هذه المادة الحيوية، وعلى العكس من ذلك فإنه في جنوب أشير وعلى مسافة قصيرة منها، ووسط سهل صغير توجد قمة كاف تيسمسايل موضع مدينة بنية حيث يلاحظ وجود بقايا أطلال تتمثل في خرائب السور وبعض بقايا المسجد، كما يلاحظ بينها بقايا آثار عدد من العيون التي كانت تسقي سكان المدينة فيما مضى وهي ما زالت مستعملة إلى الآن وأن بعضها مازال يحمل أسماء قديمة ورد ذكرها عند البكري[273].

إن هذه المدينة المسماة بأشير تحتل موقعا مهما في قلب المغرب الأوسط، وتتخذ من موضعها الكائن على جبل الكاف الأخضر موقعا استراتيجيا تسيطر به على منطقة الهضاب العليا وعلى السهوب الجنوبية، كما أهلها موقعها هذا لأن تكون ملتقى أهم مسالك التجارة في العصر الوسيط، حيث أن القوافل التجارية آنذاك كانت تسلك طريقين مهمين في الناحية هما :

– مسلك الهضاب العليا والأطلس التلي.

273. البكري، المصدر السابق، ص 60.

– مسلك الحدود الصحراوية، الذي يسير جنوبا بمحاذاة الأطلس الصحراوي.

يعتبر المسلك الأول هو السهل بالنسبة للقوافل التجارية حيث يمر بمنطقة الحضنة والتيطري ثم منهما إلى تيهرت ثم يتجه إلى الجنوب المغربي مرورا بفرندة أو يصعد إلى معسكر وتلمسان.

إن مدينة أشير غير بعيدة عن وادي ملاق (وادي يسر) حيث أن مجرى هذا الوادي يمر بمنطقة جبل الأخضر الجبلية وسهول منطقة البرواقية، وإلى جانب هذا الوادي نجد هناك مجرى وادي آخر هو وادي الحراش حاليا الذي ينطلق من نفس المنطقة ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

إن المتمحص لموقع مدينة أشير وموضعها وما اشتمل عليه من تضاريس ومميزات جغرافية سيدرك لا محالة أن زيري بن مناد لم يختر هذا المكان بسهولة دون دراسته من مختلف الجوانب بل إنه يكون قد اختار هذا المكان بعد تفكير طويل احتاج فيه إلى مشاورة من لهم الدراية بمثل هذه المواضيع.

ولعلنا لن نكون مخطئين إذا قلنا أن مثل هذا الكلام الذي أشرنا إليه حول مدينة أشير لا يمكن أن نستثني منه مدينة منزه بنت السلطان، فقبيلة صنهاجة كانت تقطن منطقة جبال التيطري منذ عهد بعيد، وأن موضع مدينة منزه بنت السلطان لم يكن غريبا عن أفرادها، كونه حصنا استراتيجيا من الدرجة الأولى استغلته القبيلة لتودع فيه أموالها وميرتها (المؤونة) حتى تبقى محفوظة لا تصل إليها أيادي الغزاة.

إن زيري لم يبتعد كثيرا عن المناطق التي تسيطر عليها قبيلته بل أنشأ مدينته بجوارها، والسؤال المطروح لماذا لم يختر مكانا تكثر فيه عيون الماء وسهولة الحياة ؟.

إن أي محاولة للإجابة عن هذا السؤال تبقى نسبية وذلك لصعوبة الموقف ولجهلنا للماضي وللرغبة الملحة التي كان ينشدها أمراء بني زيري، غير أنه إذا ما حاولنا إعطاء تفسير لهذا السؤال فربما أن أول شيء سوف ندركه ويدركه غيرنا هو القول بأن زيري بن مناد أراد لمدينته موقعا استراتيجيا دفاعيا وفضله عن المواقع الأخرى التي يكثر فيها الماء من جانب ومن جانب آخر تمتاز بضعف من ناحية

التحصين، ذلك أن الدولة الزيرية في عهد زيري بن مناد كانت في أول عصور تكوينها وأن الأمير زيري أراد لها أن تكون عاصمة محصنة ضد أعدائها وضد المناوئين له من قبيلة صنهاجة نفسها، أضف إلى هذا كون أن أعلى قمة جبل الأخضر كان يشغلها برج للمراقبة ولإرسال الإشارات وهو نظام للاتصال كثيرا ما استخدم في العصور الوسطى لتبليغ الأخبار خاصة منها التي تتعلق بالحرب والسلم.

فقد كان هذا البرج يستخدم في مراقبة تحركات قبيلة زناتة ونشاطاتها في منطقة الهضاب العليا.

لقد ساعد الخليفة الفاطمي المنصور حليفه زيري بن مناد في تحصين مدينته التي أصبحت من أكبر مدن المغرب تنعم بالسلم والأمان وفد إليها العلماء والتجار فأصبحت تعج بهم وارتقت بهم إلى مصاف الحواضر الإسلامية الأخرى[274].

إن العلاقات الزيرية والفاطمية كانت علاقات وطيدة مهد لها زيري بن مناد آنفا، وهذا ما جعل الفاطميين لم ينسوا نجدة زيري لهم وجرأته في اختراق الحصار الذي ضربه يزيد بن مخلد بن كداد وقوته على مدينته المهدية آخر معاقلهم بالمغرب كله ومقابل كل هذا فقد قام الفاطميون بإرسال وثيقة عرفان إلى زيري بن مناد معترفين له فيها بقيادة قبيلة صنهاجة وسماحهم له بإنشاء القصور والأسواق والحمامات بأشير، ثم منحوه فيما بعد القيادة على مقاطعة تيهرت، كما سمحوا لابنه بلكين بتأسيس ثلاث مدن بالمنطقة واحدة فيها على الساحل وتتمثل في جزائر بني مزغنة[275] (مدينة الجزائر الحالية)، والثانية على الضفة الشرقية لنهر الشلف وهي مدينة مليانة الحالية، أما الثالثة فقد حملت اسم قبيلة بربرية وهي مدينة المدية الحالية[276].

ب - التسمية : يشير أو الأشير[277] يتفق أهل الناحية على إعطاء اسم يشير أو الأشير على الأطلال أو الخرائب الموجودة جنوب جبل الكاف الأخضر، مقابل موقع

274. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 181.
275. للمزيد، انظر كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول، الإسكندرية، 1958، ص 132.
276. انظر البكري، المصدر السابق، ص 65.
277. عن خرائب أشير انظر :دفاتر أشير، المتحف الوطني للآثار، تقرير حفرية سنة 1993، العدد الثالث، 1994.

بنية، إن هذه الأطلال يصعب على الباحث التعرف عليها إلا بعد استكشاف متقن للموضع، هذه الآثار موجودة على هضبة قليلة الانحدار إلى الجنوب يحميها سور يمكن التعرف على حدوده رغم الأضرار الكبيرة التي لحقت به من جراء العوامل الطبيعية وامتداد يد الإنسان إليه، حيث سقطت كثير من أجزائه بما فيها أساساتها إلى الفج المقابل واستعمل من طرف السكان المحليين لبناء منازلهم أو استعملت كحواجز تحمي بساتينهم.

لقد كان متوسط سمك الأسوار يبلغ حوالي مترين، كما أنها كانت مبنية بحجارة الدبش[278]، وقد أتبع في بناء هذه الأسوار نفس الأسلوب المتبع في منزه بنت السلطان من حيث طريقة الدفاع، إذ اقتصر الزيريون في بناء الأسوار وتدعيمها على المناطق التي لا تتمتع بالتحصينات الطبيعية، وربما هذه النقطة تتطلب منا الوقوف قليلا عندها حتى نبين الدافع إلى اتباع هذه الطريقة. ونحن نرجح أنه إذا كان الزيريون قد تفطنوا إلى اتخاذ المواقع المرتفعة لإنشاء مدنهم اتقاء شر الأعداء وتقليصا من خطرهم وذلك انطلاقا من طبيعة حياتهم في المنطقة التي كانت تعتمد أساسا على الغزو مما جعلهم يختارون لمدنهم الثلاثة مواقع محصنة طبيعيا. فإنهم أيضا لجئوا إلى هذه المواقع حتى يكفلوا أنفسهم وسكانهم صرف الأموال الطائلة من أجل عملية التحصين لو أنهم شيدوا مدنهم في أراضي منبسطة، ناهيك عن الوقت الذي قد يستغرقه البناؤون من أجل إحاطة المدينة بأسوار عالية وسميكة قد تتطلب سنوات من العمل الشاق، لذلك اكتفى الزيريون بسد بعض الثغور التي لا تتمتع بحصانة طبيعية بالأسوار، وهكذا جاءت أسوار مدينة أشير عبارة عن أجزاء بسيطة تمتد من الناحية الشمالية البعيدة قليلا عن صخرة جبل الكاف الأخضر، في حين تطل المدينة من الجهتين الغربية والشرقية على فجين طبيعيين عميقين يتراوح انخفاضهما تحت مستوى المدينة بحوالي 25 إلى 40 مترا أما من ناحية الجنوب، فإن المدينة يتقدمها مرتفع ترابي يبلغ ارتفاعه ما بين 5 إلى 10 أمتار.

278. للمزيد انظر : Marçais (G), Manuel d'art musulman, t I, Paris, 1926, p. 112.
Berque (A), L'Algérie terre d'art et d'histoire, Paris, 1937, p. 121.

إن كل هذه التحصينات الطبيعية منها والتي بناها سكان المدينة تجعل من المدينة فضاء يتربع على مساحة تقدر بحوالي خمسة عشرة هكتارا وأن هذه المساحة الأرضية قد زرعت على مر السنين من طرف السكان الحاليين للمنطقة مما جعل معالم الموضع تكاد تنطمس نهائيا.

إن الزائر للمنطقة وقيامه بعملية استكشاف علمية منهجية يستطيع أن يلاحظ بعض آثار البناءات المندثرة التي كانت داخل المدينة وأنه سيخلص لا محالة إلى نتيجة من خلال هذه الشواهد المادية هي :

إن المدينة كان لها مخطط منتظم وأن هذا المخطط لم يوضع هكذا اعتباطا وإنما يكون قد خضع إلى دراسة مطولة قبل البدء في عملية إنشاء هذه المدينة، ودليلنا على ذلك وضعية الكتل البنائية وكيفية انسجامها من جهة ومن جهة أخرى موقع المنبعين اللذين يزودان المدينة بالماء الشروب، حيث جاء موقعهما في الناحية الشمالية للمدينة في مكان مرتفع عنها مقابل جبل الكاف الأخضر دليل على مهارة المعمار الزيري، ذلك أن هذه الجهة تتميز بانعدام البناء فيها حيث لم يعثر فيها إلا على بقايا من حجارة الدبش والقرميد والآجر وليف وبقايا الفخار.

هذا فيما يخص المنشآت التي بداخل الأسوار أما خارج هذه الأسوار فيلاحظ هناك الكثير من الخرائب المتواجدة في أراضي الحرث يمكن أن يرجع إنشاؤها إلى بداية العهد الزيري أي أنها معاصرة للمدينة.

5. وصف أطلال أشير :

لقد سبق وأن أشرنا في بحثنا هذا أن مدينة أشير تتكون من ثلاثة أحياء سكنية هي منزه بنت السلطان، أشير وبنية، فأطلال المدينة الأولى أي منزه بنت السلطان تقع على جبل الكاف الأخضر الشرقي وتحديدا في منازل قبيلة أولاد علان زكري.

إن مجموعة البنايات التي تتكون منها هذه المدينة تدل على أنها كانت حصنا أسس في الفترة التي تم فيها تأسيس مدينتي أشير وبنية واللتان تتخذان من المنطقة نفسها موقعا لهما[279].

أما مدينة أشير كما وردت في بعض المصادر التاريخية[280]، ووردت أيضا في بعض الدراسات الحديثة[281]. فهي تستند إلى السفح الجنوبي للكاف الأخضر في مقابلة مدينة بنية التي لا تبعد عنها إلا بمسافة 2 كلم ونصف، وهذه الأخيرة أي مدينة بنية تقع هي الأخرى على السفح الشمالي الغربي لجبل كاف تيسمسايل الذي يشكل في هذه المنطقة هضبة تطل على سهل وادي الهواد.

إن تاريخ المدن الثلاث يرجع لا محالة إلى فترة واحدة، كما أن الانتشار الواسع لأطلال مدينتين كبيرتين يدل على أنهما كانتا كثيرتي السكان، وأنه بإمكاننا اليوم استنادا إلى شساعة المساحة التي يحيط بها السور، وانطلاقا أيضا من الانتشار الواسع لأطلال الأحياء السكنية أن نتخيل العدد الهائل لسكان المدينة، مما يجعلها مدينة تضاهي الحواضر الإسلامية في تلك الفترة.

والجدير بالذكر أن الزائر لمدينة أشير يلاحظ وجود أحياء شاسعة تقع خارج أسوار المدينة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الزيريين لما وفروا الأمن والأمان والاستقرار لبلاد المغرب الأوسط، كبرت أرباض المدينة التي أصبحت في مساحتها اكبر بكثير من المدينة نفسها، وربما قد لجأ الزيريون إلى هذه الفكرة بعد أن ضاقت المدينة الواقعة داخل الأسوار بالسكان، فاقتضت الضرورة بعد استتباب الأمن إلى التوسع خارج المدينة، وهي الأراضي التي يمكن التوسع عليها إلى أبعد الحدود، خاصة إذا علمنا أن هذه الأرباض لم تكن محاطة بأسوار كما جرت العادة في أغلب المدن الإسلامية، وإنما الذي كان يحيط بهذه الأرباض هو الحدائق والبساتين التي كانت مصدر الرزق أهل المدينة.

---

279. الاستبصار، ص 170.

280. ذكرها البكري أشير.

281. Capitaine Rodet, les Ruines d'Achir, in revue. Africaine, 1908, P86

6. وصف أطلال مدينة منزه بنت السلطان[282] :

إن الحصن المسمى بمنزه بنت السلطان يقع على الجزء الأعلى من قمة صخرية ومستوية تحيط بها فجاج عميقة لا يستطيع أحد عبورها ولم يبق منها إلا بعض النقاط القليلة التي تمكن من الدخول إلى الموضع، هذه الأخيرة فقط هي التي قام الزيريون بتحصينها في حين أبقوا على التحصين الطبيعي بالنسبة للأجزاء الأخرى من المدينة.

يمتد موضع مدينة منزه بنت السلطان من الجنوب إلى الشمال ويمتاز بقلة انحداره من الناحية الشرقية، يبلغ ارتفاعه على مستوى سطح البحر حوالي 1300 م، وأن هذا الموقع في الحقيقة مواز لقمة جبل الكاف الأخضر وهو منفصل عن الكتلة الأساسية لهذا الجبل ويقع في مستوى منخفض عن قمة الجبل بحوالي 150 م.

إن هذا الموضع الحصين طبيعيا محدود بفجاج عميقة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك من النواحي الشمالية والغربية والشرقية وهذه الفجاج تقل عمقا من الناحية الجنوبية مما يجعله موقعا يصعب الوصول إليه بسرعة، غير أنه من ناحية التحصين يعتبر موقعا استراتيجيا ودفاعيا إلا أنه من ناحية المراقبة يعتبر اقل مكانة، حيث تقف قمة جبل الكاف الأخضر حاجزا أمامه على بعد 200 م ولا يستطيع الناظر أن يبلغ مدى بصره ابعد من هذه النقطة كون أن قمة هذا الجبل ترتفع على مستوى موقع منزه بنت السلطان بحوالي 150 م، وهو الأمر الذي تطرقنا إليه في الفقرة السابقة.

إن مساحة الموقع تتراوح أبعادها ما بين 276 م طولا و 25 م عرضا وهذه الأطوال هي في الحقيقة أبعاد الصخرة التي اتخذت موقعا لهذه المدينة، ورغم هذا التحصين الطبيعي إلا أن الزيريين زودوا مدينتهم هذه بأسوار ضخمة لكننا لا نستطيع اليوم معرفة علوها على أرضية المدينة الداخلية بسبب اندثارها في حين يمكننا أن نقدر سمكها بحوالي 2 م.

إن أساسات الأسوار وضعت على الصخرة المدرجة بطريقة تجعلها متينة فاستخدم في بنائها دعامات تشبه في شكل الحرف T اللاتيني تزيدها متانة ودعما لها حتى تجنبها السقوط والانهيار نحو الخارج.

---

282. Marçais (G), Recherches d'archéologie musulmane, Achir, in revue Africaine, 1922, p. .

إن هذا السور لم يبق منه في وقتنا الحاضر إلا بعض معالمه، فإن بعض الكتابات أشارت إلى أنه كانت بعض أجزائه قائمة في بداية القرن العشرين، ففي أعلى قمة الموضع كان هناك برج نصف دائري مكون من غرفة كانت تستعمل كمأوى للجند، وكان هذا البرج يستعمل أيضا كنقطة مراقبة المناطق الشمالية لتحصينات المدينة، أما الجهة الغربية فكان بها أيضا برج آخر وظيفته التحكم في المسلك الوحيد المؤدي إلى الحصن الرئيسي.

وإذا ما حاولنا دراسة المباني التي تتكون منها المدينة والتي ما زال بعض أجزائها قائما إلى اليوم، نقول أن البنايات الداخلية للمدينة الحصن تتكون من برج نصف دائري يقع في أقصى نقطة من الجهة الشمالية للحصن، ومن مجموعة بنائية مركزية تستند إلى صخرة كبيرة من خزان المياه يقع في الجهة الجنوبية للصخرة.

أما عن الأسلوب المتبع في البناء، فقد استعملت فيه الطريقة البنائية العادية والبسيطة ويجدر بنا الوقوف على تفاصيل هذه المجموعات البنائية وذلك للمزيد من التوضيح.

فالخزان مربع الشكل أضلاعه تبلغ عشرة أمتار من الطول، أما عمقه فيصل إلى متر ونصف المتر من العمق وإن سعته من المياه تبلغ 150 مترا مكعبا.

أما مجموعة البناء المركزية فتتكون من عمارتين يفصل بينهما صحن داخلي، وأن كل بناء من هذه البنايات مستطيل الشكل طوله 15 م وعرضه 6 م، وكل بناء مستطيل يقسمه سور داخلي بطريقة يجعل منه مستطيلين، والكتلة البنائية ككل تكون أربع حجرات اثنتين تقعان شمال الصحن الداخلي واثنتين جنوبه.

إن هذه المساحة المبنية يمكن لها أن تؤوي حوالي أربعين رجلا، أما الصحن الداخلي فمن الممكن جدا أن يكون مكانا للتجمع فيه، أضف إلى ذلك أن الحصن الشمالي يمكن أن يؤوي أكثر من عشرة رجال، الأمر الذي يجعلنا نقدر عدد الجند في هذا المجمع الدفاعي بحوالي 50 رجلا، ويمكن أن يرتفع هذا العدد في مناسبات أخرى، أي في أيام الثورات والحروب حيث يمكن لمجموعة من الرجال والنساء والأطفال وبعض مواشيهم أن تجد في هذا المكان مأوى يحميها من

هجمات العدو خاصة إذا علمنا أن هذا الحصن كان منيعا، وأن هذه المنشأة البنائية والدفاعية في آن واحد لم تكن مزودة إلا بباب واحد يربطها بما جاورها من التجمعات السكانية، ولم يعثر له لا على أبواب أخرى ولا على أنفاق تحت الأرض تربط هذه المدينة (منزه بنت السلطان) بما يجاورها وذلك سيرا على نمط بعض المدن الإسلامية الأخرى.

وكان هذا الحصن يأخذ ماءه من عين تسمى عين بن عزوز تقع على بعد 200 م من الجهة الجنوبية الشرقية، وتتخذ من فج عميق موازي لقمة صخرة منزه بنت السلطان موقعا لها، وهي مازالت إلى بدايات القرن العشرين حسب بعض الدراسات الحديثة[283] شاهدة على الماضي التليد لهذا الحصن العتيد، رغم أنها كانت في تلك الأثناء قليلة المياه، تلك المياه التي تمتاز بالعذوبة والبرودة.

إن مدينة منزه بنت السلطان، كانت حصنا يسهل الدفاع عنه، إلا أنه كان ضيقا من حيث المساحة، بحيث لا يستطيع أن يأوي العدد الكبير من المدافعين، علما أنه كان أيضا محدودا جدا من حيث إمداده بالمياه الصالحة للشرب بما يكفي وحاجة الأعداد الهائلة من المدافعين، وهذا ما يجعل الدفاع عنه في حالة الحصار عملية صعبة للغاية، وربما هذه المشاكل ناجمة عن كونه أول مدينة بناها الزيريون قبل بنية وأشير مما يوحي لنا بالبدايات الأولى لاستقرارهم إذ ربما كان الأمر لا يتطلب مساحات كبيرة لاستقرارهم مما يفسر قلة عددهم في الأول.

أما عن الطريق الموصل إليها من مدينة أشير والذي يربطها أيضا بمدينة بنية فكان ينطلق من أشير متتبعا الحافة الصخرية من القاعدة العليا للكاف الأخضر حتى يصل إلى كاف السمير ثم يقطع عنق فج السمير ثم يمر عبر خط من القمم الجبلية ثم ينحدر على السفح الشمالي للكاف الأخضر لينعطف بعد ذلك إلى جنوب الصخرة التي تستند إليها مدينة منزه بنت السلطان ليصل غربا إلى المدرج الذي يصعد به إلى الحصن.

---

283. Capitaine Rodet, *op.-cité.*, p. 89.

7. وصف مدينة بنية :

تقع مدينة بنية في موضع يتربع على السفوح الشمالية الغربية لكاف تيسمسايل، ومقابلة لمدينة أشير حيث لا يفصل بينهما إلا مسافة اثنين كيلومتر ونصف.

إن موضع بنية موضعا استراتيجيا فهو مكون من هضبة تتحكم في المنطقة وتراقبها من ثلاث اتجاهات وهي الغرب والشمال والشرق، والموقع ينتهي من ناحية الجنوب بحصن يتوج قمة الجبل الصخرية لكاف تيسمسايل.

إن هذه المدينة لها موضعا دفاعيا من الدرجة الأولى، أما سورها فيستند إلى قاعدة صخرية وسمكه كسمك سور مدينة أشير ومنزه بنت السلطان أي حوالي مترين، وكان ذا علو محترم إذا ما قدرناه من خلال الأكوام الحجرية المتساقطة، وقد روعي في بنائه اتباع خطوط الانكسار المشكلة للهضبة التي أنشئت عليها هذه المدينة.

وأما أحياء المدينة فتتربع على مساحة إجمالية تقدر بخمسة وثلاثين هكتارا، وهي تنقسم إلى قسمين يختلفان من حيث المظهر العمراني.

فمخطط الجهة العلوية والمحددة بأكوام من التربة المتواجدة ما بين باب الماء وعين بنية يتميز بالانتظام، وقد كان يقطنه علية القوم أي القادة والجند.

أما الجهة السفلية من المدينة وهي التي تتميز بكثرة الاتساع مقارنة بالجهة العلوية فهي مبنية على شكل مدرج واغلب بناياتها مبنية على أرضيات منحدرة.

المحور السادس

مدينة بجاية كحاضرة ثقافية

1. عوامل ازدهار الحركة العلمية في بجاية
2. العلم والعلماء

أ. العلوم النقلية

ب. العلوم العقلية

ج. العلوم التجريبية

د. العلماء

3. المؤسسات التعليمية في بجاية

مدينة بجاية كحاضرة ثقافية

1. عوامل ازدهار الحركة العلمية :

عرفت الدولة الحمادية ازدهارا ثقافيا كبيرا وقد تظافرت مجموعة من العوامل مكنت الدولة من أن توفر مناخ ثقافي يشجع على التطور الفكري والنهوض الحضاري ولعل أهم هذه العوامل : العوامل السياسية والاقتصادية خاصة بعد انتقال العاصمة من القلعة إلى بجاية هذه الأخيرة التي مثلت حقيقة الدور الريادي الحضاري للدولة، حيث ساهمت الجهود السياسية والمتمثلة في سعي الأمراء الحماديين الدؤوب في العمل على نشر الأمن والاستقرار في مختلف أرجاء الدولة.

ويتمثل ذلك في ما قام به الناصر بن علناس 481 – 454 هـ من إخماد للثورات ومقاومة للحركات الانفصالية التي بدأت تبرز كالثورة إلى أشعل فتيلها سكان مدينة بسكرة ببلاد الزاب عندما خلعوا الطاعة وأرادوا الانفصال عن الدولة[284].

كما تمكن المنصور بن الناصر من القضاء على ثورة بنى توجين الزناتيين الذين تحالفوا مع العرب الهلالية، ونشروا الفوضى، وأصبحت الطرق والسبل غير آمنة[285].

إن هذه السياسة الأمنية إن صح التعبير والتي انتهجها الأمراء الحماديون أثرت بصورة مباشرة على تنامي رفاهية المجتمع، وعلى خلق مناخ ساعد على التطور الفكري في مختلف فنون العلم. ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نبعد العامل الاقتصادي وأثره في ازدهار الحياة الثقافية في الدولة.فقد أجمعت المصادر

---

284. ابن خلدون : كتاب العبر، ج 6، ص 354.

285. إسماعيل العربي : دولة بنى حماد، ص 161.

التاريخية والجغرافية على أن الاقتصاد في الدولة كان مزدهرا على الرغم من تأثره في بعض الأحيان بالأحداث السياسية لا سيما مع بداية تأسيس الدولة. ويتمثل هذا الرفاه الاقتصادي في أن القلعة عرفت رفاهية مترفة فكانت ملتقى للتجار من كل حدب وصوب، وبها تحط الرحال من الحجاز والعراق ومصر والشام وسائر بلدان المغرب الإسلامي وربما حتى من بلاد السودان.

وشهدت بجاية بعد انتقال الحماديين إليها نفس الرفاه الاقتصادي فقد وصفها الجغرافي الإدريسي قائلا : {ومدينة بجاية في وقتنا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بنى حماد، والسفن إليها مقلعة وبها القوافل محطة والأمتعة إليها برا وبحرا، والسلع إليها مجلوبة. ..وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار الصحراء وتجار المشرق... ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان بكثرة والتين وسائر الفواكه بها ما يكفي الكثير من البلاد... وبها دار الصناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن... وبها معادن الحديد الطيب، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة}[286].

يتضح من خلال وصف الإدريسي للحياة الاقتصادية في بجاية أن جل القطاعات الاقتصادية كانت في رخاء كبير. هذا الرخاء لاشك أنه جعل الحماديين يهتمون بالحياة العلمية حتى تصبح حاضرة الدولة لا تختلف عن الحواضر العلمية الأخرى المشهورة في بلاد المغرب.

ولا يفوتنا أن ننوه بالعوامل الاجتماعية وأثرها في ازدهار الحياة الثقافية. إذ كان المجتمع الحمادي يتكون من الكثير من الفئات المختلفة في الأجناس والأفكار. فإلى جانب السكان الأصليين من البربر من قبيلة كتامة وبعض بطونها كبني سدويكش وزواوة، والقبائل العربية خاصة الهلالية، وفدت إلى بجاية أعداد كبيرة من

---

286. الإدريسي : المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، حققه محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية (د.ت) ص، 116.

الأندلسيين الذين لجأوا إلى بلاد المغرب بعد أن دب الضعف والهوام بين مسلمي الأندلس وازدياد حركة الاسترداد، وسيطرة نصارى الأندلس على المزيد من أراضي المسلمين. وقد اختاروا بجاية لأنها كانت مركزا حضاريا رائدا.ونذكر المصادر أن هؤلاء الأندلسيين نقلوا معهم تراثهم الفكري والحضاري، وتقاليدهم الاجتماعية. ويبدو أنه كان من بين الوافدين رجال العلم والثقافة. يذكر أن العالم أبا بكر محمد بن محرز (ت 675 هـ) كان يترأس الجالية الأندلسية في بجاية. وكان مسكنه ملتقى لكبار القوم من الأندلسيين. كما تمكن بعض الأندلسيين من الارتقاء في المناصب الحكومية ممن أشتهر بالكتابة والإنشاء، ومنهم من كان حاجبا أو وزيرا[287].

كما استوطنت بجاية جالية مسيحية قدمت من الجمهوريات الإيطالية، والبرتغال وأسبانيا. ولعل وجود هذه الجالية كان بسبب العلاقات التجارية بين بجاية وكافة المدن الأوروبية. كما تواجدت ببجاية جالية يهودية ساهمت في إثراء الحياة الثقافية خاصة وأنه كان من بينهم أطباء وأدباء وصيادلة ورجال الفكر بصفة عامة[288].

لقد كان لهذا التنوع الاجتماعي والديني دور كبير في التفاعل الثقافي، إذ تعددت مشارب الثقافة ومنابعها خاصة وأن الحرية الفكرية والدينية كانت متوفرة في بجاية. والدليل على ذلك أن هذه الجاليات كانت تعامل معاملة كريمة إذ سمح الحماديون لهم ببناء دور العبادة ككنيسة العذراء.ولا يعقل أن تبنى الكنيسة دون وجود من يؤمها، فأثرت بذلك الطوائف المسيحية في المجتمع الحمادي وفي الوقت نفسه تأثرت هي بالثقافة والتقاليد الإسلامية[289].

وتذكر الروايات التاريخية أن الأمراء الحماديين بلغوا درجة كبيرة من التسامح الديني حتى أنهم كانوا لا يعترضون على المطارنة وكبار رجال الدين النصرانيين في

---

287. محمد الشريف سيدي موسى : الحياة الفكرية ببجاية من القرن السابع الهجري إلى بداية القرن العاشر الهجري (13-16م) رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر سنة 2001، ص 42،43.

288. محمد الشريف سيدي موسى : المرجع السابق، ص 43.

289. عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد (صفحة رائعة من التاريخ الجزائري) دار الشروق، الطبعة الأولى، بيروت 1970، ص 237-238.

تعيين ما شاءوا من قساوسة. ففي سنة 469 هـ (1076م) قدم مطران قرطا جنة قسيسا اسمه سيرفاند ليتولى أسقفية كنيسة مدينة بونة، دون أن يعترض الناصر بن علناس بل أنه زكى التعيين ورحب به، وحمله رسالة ودية إلى البابا جرجروا السابع ومعه بعض الأسرى المسيحيين ممن أعتقهم. وكرد على هذه المبادرة جاءت بعثة من الكهنوت أرسلها البابا إلى بجاية لتشكر الناصر على معاملة المسيحيين في بلاده وعلى الحرية التي يتمتعون بها تحت حكمه[290].

2. العلم والعلماء في بجاية :

إن المتصفح لتاريخ الجزائر في العهد الحمادي يجده من أزهى العصور ثقافيا وحضاريا لاسيما في عاصمة الدولة- بجاية-، نتيجة استقطابها للكثير من رجالات الفكر والأدب والثقافة بالإضافة إلى سياسة التسامح الديني التي اتبعها ملوك الدولة الحما دية مما أتاح للحركة الثقافية أن تنمو و تزدهر[291].

ويتجلى هذا الازدهار في المدارس والمعاهد العلمية والمساجد التي كانت حافلة بطلاب العلم، بالإضافة إلى منح الجوائز للمتفوقين وأرباب القرائح البارزين في كل علم وفن، هذا الأمر الذي هو معمولا به إلى اليوم[292]، وإلى جانب المعاهد والمساجد كانت الزوايا والكتاتيب تقوم بدورها في تربية النشء وهي شبيهة بمدارس التعليم الابتدائي. بالإضافة إلى ذلك وجد التعليم العالي، حيث أنشأ الناصر بن علناس في بجاية معهد "التواتي" الذي كان يضم حوالي 3000 طالب وتدرس فيه كل المواد. وخلال لقاء علمي ألقت تلميذة من هذه الجامعة محاضرة دامت ثلاثة أيام حول بروج الشمس أمام مجموعة من العلماء الأجانب.

والملاحظ من خلال هذا العمل أن الفتيات كان مرخصا لهن بتقديم أطروحات باسم الجامعة، كما كان يحاضر في هذه الجامعة علماء، من إسبانيا ومن إفريقيا

290. عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام دار الثقافة، الطبعة الرابعة، بيروت 1980، ج1، ص 189.
291. يحي بوعزيز، ملامح عن قلعة بني حماد و الدولة الحمادية في بجاية، ص 18.
292. عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص 290.

والمشرق. وكان هذا العمل ـ الذي أدى إلى ازدهار الحياة التعليمية والثقافية ـ قد أعطى لبجاية مكانة راقية حتى أطلق عليها لقب "كعبة الشعراء" لأنها كانت مقصدا للطلاب من مختلف المدن المغربية. فقد ارتحل إليها ابن حمديس الصقلي وأبو الفضل النحوي، إلى جانب علماء القيروان والأندلس. وبالتالي برز الفقهاء، والشعراء، والمؤرخون، والأطباء والرياضيون في كل من بجاية وباقي مدن الدولة الحمادية لا سيما في وقت ازدهارها[293] وعلى هذا الأساس كانت الحياة الفكرية مزدهرة جدا من خلال كثرة علومها التي أبدع فيها الحماديون وهي على أنواع :

أ. العلوم النقلية :

ويقصد بها علوم الدين، هذه العلوم التي اهتموا بها، وتشمل القرآن والسنة من خلال دراسة التفسير والقراءات والحديث والفقه والتصوف ويتجلى هذا الاهتمام من خلال تأسيس المساجد والزوايا التي كانت المجال الخصب لازدهار هذه العلوم.

الفقه : لقد شهدت بجاية منذ القرن السابع الهجري تقريبا (الثالث عشر الميلادي) نهضة فكرية كبيرة في العلوم الدينية خاصة الفقه، حيث تعددت تآليف علماء بجاية في هذا النوع من العلوم، وكثرت تعليقاتهم على المؤلفات السابقة كموطأ الإمام مالك، والمدونة، ورسالة أبي زيد القيراوني وغيره من أترابه من الفقهاء. وقد كان لعلماء بجاية دورا كبيرا في توجيه الطلبة إلى دراسة الفقه، والاهتمام بعلومه من عبادات، ومعاملات، والتي يحتاجها الإنسان في حياته اليومية. كما حفلت مدارسهم ومساجدهم بالحلقات العلمية التي أولت عناية فائقة للفقه.

كما اتجهت الحياة الدينية إلى دراسة الأحاديث المجموعة في كتب الفروع وفقا لمدرسة الحديث التي كان قد أسسها الإمام مالك، واهتموا بالكتب المالكية التي جمعتها في فقه المالكية وهي كالتالي موطأ الإمام مالك، التلقين لعبد الوهاب البغدادي، الواضحة لابن حبيب والعتبة للعتيبي.

---

293. عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 253-254.

والملاحظ أن هذه الكتب كانت المرجع الأصلي للفقه المالكي حيث كانت الإجتهادات تستنبط منها...

إن العلوم النقلية في الدولة الحمادية عامة وبجاية خاصة أنها علوم مختلطة، لكونها علوم عقيدة والتخصص فيها قليل. لأن علماءها كانوا على علم ودراية بفروعها.

كما أن الحماديين لم يكونوا يميلون إلى الجدال، وبالتالي فعلم الكلام عندهم لا يحظى بالمكانة التي حظي بها في المشرق.

ومن أشهر فقهاء بجاية وأبرزهم على الإطلاق والذي تنوه المصادر التاريخية بنبوغه في الفقه عبد الله بن الحجاج المعروف بابن السكات (562 – 641 هـ). فقد اشتهر هذا الأخير بنبوغه في الفقه المالكي. والدليل على ذلك أنه ولي قضاء مدينة مالقة بالأندلس عرفانا له بمستواه العلمي. كما اشتهر الفقيه أحمد بن عثمان عبد الجبار المتوسي المليانى بتقييداته المتنوعة والتي درس فيها مؤلفات القاضي عبد الوهاب البغدادي المتوفى سنة 422 هـ، خاصة كتاب "التلقين" الذي حظي كذلك بشرح من الفقيه إبراهيم بن يخلف أبو إسحاق التنسي (ت 670 هـ). وتذكر المصادر أن هذا الشرح جاء في عشرة مجلدات[294].

كما نبغ في بجاية العالم الفقيه أبو يوسف عبد السلام يعقوب الزواوي البجائي (ت 690 هـ)، والذي كان يدرس الفقه على مذهب الإمام مالك في المدينة. كما كان يزور مختلف حواضر المغرب الإسلامي، ويلقي الدروس بها. واستمر النشاط العلمي على هذه الوتيرة حيث قدم إلى بجاية العديد من العلماء المتضلعين في الفقه وفروعه من أمثال أبى عبد الله محمد المقري (ت 759 هـ) الذي عرف بمؤلفه القيم "القواعد الفقهية". "كما وفد العالم أبو البركات محمد بن أبي بكر من الأندلس إلى بجاية، وأستقر بها ردحا من الزمن. وكان هذا العالم مشهورا في الحواضر الأندلسية حيث كانت له حلقات علمية في كل من مدينة المرية ومالقة. وفي بجاية

294. المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1968، مج 5، ص 428، وما بعدها.

اجتمع حوله الطلبة للاستفادة من علمه الغزير، ومن دروسه الفقهية ومواعظه، ودراسة كتابه الشهير الموسوم ب : "المدخل إلى الفقه المالكي". كما زار بجاية العالم الفقيه أبو سعيد عثمان العقباني الأندلسي (720 [811 هـ)، وتولى القضاء فيها. ولا يستبعد أن يكون قد درّس في مساجدها خاصة وأنه كان متضلعا في مختلف فنون العلم النقلية منها أو عقلية. وتذكر له المصادر تصنيفا عنوانه "المختصر عن ابن الحاجب"[295].

ويعد القاضي عبد الرحمن الوغليسي أشهر فقهاء بجاية في القرن الثامن الهجري إذ كان خطيبا في الجامع الكبير ببجاية. وكان يلتف حوله الطلبة والعلماء من مختلف الأعمار. ألف هذا الأخير العديد من الكتب منها : كتاب "الأحكام الفقهية" في الفقه المالكي، وتسميه العامة ب : "الوغليسية". وقد حافظ هذا الكتاب على مكانته إذ ظل يتصدر أهم مصادر الفقه المالكي طيلة القرن الثامن والتاسع، وظل مرجعا مهما يرجع إليه الطلبة في أغلب الحواضر العلمية في بلاد المغرب. وقد تخرّج على يدي هذا العالم العديد من الطلبة النجباء الذين كان لهم الفضل في تكوين مدرسة حملت لواء الثقافة ببجاية، ونافست جاراتها من الحواضر العلمية كتونس وغيرها. فلا غرابة إذن أن تذكر المصادر التاريخية أن أغلب علماء القرن التاسع والعاشر الهجريين كانوا تلامذة للوغليسي بطريقة مباشرة أو تتلمذوا على تلاميذه.

ولما اطلع البجائيون المواكبون لكل ما يظهر في البلاد الأخرى من مؤلفات مثل كتاب "مختصر خليل ابن إسحاق المصري" الذي تزعم المذهب المالكي في مصر، أعجبوا به، واهتموا به اهتماما كبيرا لدرجة أن كثرت حوله الشروح والتعليقات[296].

كما اشتهر في الدولة الحمادية العالم الجليل مروان بن علي الأسدي المعروف بالبوني نسبة إلى مدينة بونة التي استقر فيها زمنا طويلا بعد أن صال وجال مشرقا ومغربا. وفي بونة نظم حلقات العلم، وألتف حوله الطلبة من سائر الأمصار من المغرب والأندلس. وتذكر له المصادر كتابا من تأليفه في شرح موطأ الإمام مالك.

---

295. محمد بن مريم : البستان في ذكر الأولياء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص 102-103.

296. حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار العلوم الحديثة، بيروت، (د.ت)، ص 114.

توفي سنة 440 هـ. ومن العلماء كذلك نذكر موسى بن حماد الصنهاجي المتوفى سنة 535 هـ بمراكش، عرف عنه أنه كان فقيها، تولى القضاء، وكان راوية لأبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي، وغيره من العلماء. كما عرفت أشير نبوغ عالم كبير وهو موسى بن حجاج بن أبي بكر الأشيري. أقام بمدينة تدلس قرب بجاية، وظل يدرس الطلبة بها إلى غاية وفاته سنة 589 هـ. ومن الفقهاء الذين استقروا في حاضرة الدولة الحمادية أحمد بن خصيب بن أحمد الأنصاري الذي ينحدر أصله من مدينة قرطبة الأندلسية. فقد ترك هذا الأخير العديد من المصنفات العلمية. بالإضافة إلى العالم عمر بن عبد الله بن زاهر الذي استقر في مدينة بونة، وعرف برواياته عن شيوخ عصره مثل أبي عمران الفاسي الفقيه، وأبي عبد الملك مروان البوني، وأبى القاسم إسماعيل بن يربوع السبتي. وقد توفي بعد سنة 440 هـ[297].

التفسير : عرف علماء اللغة التفسير كمصطلح بأنه الكشف والإظهار والبيان، بحيث يصبح الكلام لا يعتريه الغموض والضبابية. أما مبحث هذا العلم فهو تفهم معاني القرآن الكريم وتفسير آياته تفسيرا صحيحا لاستنباط أحكام شرعية صحيحة. يقول ابن خلدون : "أما التفسير فأعلم أن القرآن نزَل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه. وكان ينزَل جملا جملا، وآيات آيات، لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع.ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخا له... ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب، فوضعت الدواوين في ذلك، بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب فتتوسي ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان. فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن، لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم. وصار التفسير على صنفين : تفسير نقلي مستند إلى

297. عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد، ص 259-260.

الآثار المنقولة عن السلف، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول... وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين... والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب. وهذا الصنف من التفسير قلّ أن ينفرد عن الأول..."[298].

ولقد اهتم علماء بجاية بهذا العلم لقيمته الكبيرة في فهم القرآن الكريم، وبكتب التفسير المتداولة في ذلك العصر. منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). وكان في طليعة هذه الكتب. التفسير الذي قام به المفسر عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774هـ) والذي يتكون من خمسة أجزاء، وكتاب الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (467 – 538 هـ) الذي يقع في أربعة مجلدات، وكتاب الوجيز في شرح كتاب الله العزيز لابن عطية (481 – 542 هـ). وقد نوه ابن خلدون بكتاب الزمخشري قائلا : "ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير، كتاب الكشّاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة. فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة"[299].

ويبدو من خلال كلام ابن خلدون أن تفسير ابن عطية كان أكثر التفاسير شيوعا وذيوعا بين الناس حيث يقول : "وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى"[300].

ونظرا لتأثر المغاربة بالمصادر المشرقية في التفسير فقد كانت عندهم رغبة شديدة في أن يحذوا حذو المشارقة، والولوج إلى هذا الميدان. فقد ألف محي الدين

---

298. ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتب العلمية،ط1، بيروت 1992، ج1، ص 470-471.
299. ابن خلدون : المصدر السابق، ج1، ص 471.
300. المصدر نفسه، ج1، ص 471.

بن عربي الأندلسي تفاسير كثيرة، لعل أهمها تفسيره الضخم الذي بلغت أجزاءه الستين، ألّفه على طريقة المتصوفة، وتفسيرا ثانيا في ثمانية أجزاء على طريقة المفسرين. ولا يعرف على وجه الدقة هل تمت عملية التأليف في الأندلس أم أثناء استقراره ببجاية.

كما حل ببجاية مع مطلع القرن السابع الهجري العالم الأندلسي أبو الحسن علي بن أحمد الحرّالي التجيبي (638 هـ) صاحب الكتاب المشهور ببجاية والموسوم ب : "مفتاح الباب المقفل عن فهم القرآن المنزل". ولم يكتف أبو الحسن هذا بالتأليف فقط بل كانت له حلقة علمية مشهورة في المسجد الجامع ببجاية[301].

وكان علماء بجاية مقصد الطلبة من الأندلس والبلاد المغربية الأخرى، ومن بين هؤلاء العلماء محمد بن عيسى بن محمد الغزاري، أحد طلبة حلقات بجاية النجباء الذين اهتموا بالمسائل، وسعيد بن عثمان، وأحمد بن واضح، اللذين وليا قضاء بجاية وتوليا الفتوى بها لسعة علمهما، كذلك أبو بكر محمد بن الحسين المتوفي سنة (537 هـ). الذي لجأ إلى بجاية واستقر بها بعد أن هرب من يوسف بن تاشفين[302]، وكان محدثا لا يشق له غبار في بجاية. بالإضافة إلى الفقيه والفيلسوف أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي الذي لقب أبا حامد الصغير المتوفي (580 هـ – 1185 م).

أما سبب تلقيبه بأبي حامد الصغير فذلك بسبب مراجعته لمؤلفات أبي حامد الغزالي ولأنه تطرق إلى كتبه في الأحياء فكان كلامه على رأي بعض المؤرخين أحسن من كلام الغزالي وأسلم، حتى أن كتابه كان كثير الانتشار بين الناس وهذا ما هو إلا اعتزاز الناس بصاحبه[303]. والملاحظ أن أبا علي المسيلي كان "قد جمع بين العلم والعمل الورع وبين علمي الظاهر والباطن، كما كان تذكرة في أصول علوم الدين"[304].

---

301. محمد الشريف سيدي موسى : الحياة الفكرية ببجاية، ص 116.

302. عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 258-260.

303. رشيد مصطفاي، بجاية في عهد الحماديين، مجلة الأصالة، مطبعة البعث وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، قسنطينة، الجزائر العدد1، سنة 1971، ص 90.

304. أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية وتحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.ط)، الجزائر،1970، ص 66.

ومما يمكن ملاحظته أن الدارس لسير علماء الدين في بجاية الحمادية يستنتج أنهم كانوا مقلين في الإنتاج الفكري المدون وذلك لأنهم يعتمدون على التعليم الشفهي، الذي يتلقاه التلميذ... لكن ورغم هذا فقد وجدت كتب لبعض هؤلاء العلماء الإجلاء[305] أما بالنسبة لطريقة تدريسهم فإنها كانت تتمثل في نوعين من التعليم:

* **طريقة التدريس بالرواية :** يراد بها العلوم التي يتوصل إلى معرفتها بالرواية والسماع[306] وتقوم هذه الطريقة على أساس تدريس كتب مختلفة من شيوخ أجلاّء مجازين من شيوخ مشهورين وهكذا حتى يصلوا إلى الشيوخ الذين تلقوا محتويات الكتاب من المؤلف نفسه بحيث يستطيعون فهم معانيه ثم بعد ذلك يلقونها على تلاميذهم تلقينا صحيحا.

* **أما طريقة التدريس الثانية فهي الدراية :** والتي تقوم على أساس طرح الأسئلة والمحاورة والمذاكرة حتى يفهم الطالب[307]، أي العلوم التي يحتاج فيها إلى استعمال الفكر والنظر والاستنباط.

ب. العلوم العقلية : ومن بين فروعها نجد :

* **الأدب واللغة :** كانت هذه العلوم قد أخذت الصدارة في مجال النشاط العقلي سواء كان الأدب شعرا أو نثرا، فلقد لقيت عناية فائقة واحترام كبير من كل الطبقات سواء كانوا ملوكا أو وزراء، أورجال دولة أوعلماء بالإضافة إلى الطبقتين العليا والسلفي.

وكانت اللغة العربية الفصحى هي لغة الثقافة والفكر مع وجود البربرية اللغة المحلية والتي كانت متواجدة حتى في البلاط لكونه بربري يحكم شعبا وبلادا بربرية. وبما أنها اللغة العامية بين المجتمع فهي بذلك لعبت دورا كبيرا في الحياة الاجتماعية إذ كانت الوعاء الذي حمل الأدب العامي في تلك الفترة التي كانت من الفترات الذهبية

---

305. عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 262.

306. القبريني، المصدر السابق، ص 25.

307. رشيد مصطفاي، المرجع السابق، ص 89.

لكن رغم ذلك نجحت العربية في أن تكون اللغة الحية القومية السهلة للتعبير في الفكر العلمي لتصبح فيما بعد اللغة السياسية ولغة التخاطب الأدبي ومن خلال العربية الفصحى قدمت الجزائر الحمادية مجموعة كبيرة من الشعراء واللغويين[308].

ومن بين الكتاب الذين كانت لهم شهرة نجد : ابن العالمي البجائي، الذي تولى الكتابة لأمراء الدولة الحمادية بالإضافة إلى أبي حفص عمر بن فلفول الذي كان كاتبا ليحي بن عبد العزيز الحمادي، وإلى جانبه أبو عبد الله محمد بن أبي دفرير. أما الحديث عن الشعراء فلقد أهمل التاريخ تدوينهم إلا أن بعضهم وجدت أسماءهم في بعض المصادر[309]. مثل أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الأزدي والملقب بابن حمديس الصقلي، الذي ولد في سرقوسة بجزيرة صقلية سنة (447 هـ – 1055 م)، ثم سافر إلى الأندلس (471 هـ – 1088 م)، ليستقر بعد ذلك في بجاية وأصبح شاعر المنصور بن الناصر، وله ديوان شعر يشتمل على عدة قصائد في مختلف المواضيع والأغراض الشعرية سواء في المدح أوفي الرثاء[310]. كما كان شعراء آخرون مثل يوسف بن مبارك الذي كان من الموالين لبني حماد وله في مدائحهم شعر طويل وأيضا الشاعر والفقيه أبو الطاهر عمارة بن يحي، له علم وأدب وفضل ونبل. كان متقدما في العلوم العربية والأدبية وله تآليف في علم الفرائض منظوم وتواشيحه من الحسن يضرب بها المثل، أما شعره فلقد جمعه في ديوان[311].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن بجاية كانت لطائفة الأدباء والشعراء، بالإضافة إلى العدد الكبير منهم في المدن الحمادية الأخرى مثل الشاعر القسنطيني الكبير حسن بن الفكون، وعز الدولة بن صمادح الذي كان من أمراء الأندلس وملوك الطوائف بها، ولما خلعه يوسف بن تاشفين عن إمارته التحق ببجاية حوالي سنة 488 هـ حيث كان أديبا وشاعرا[312].

---

308. عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص (262-263).
309. رابح بونار، المرجع السابق، ص (262-263).
310. رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، ص (176-184).
311. الغبريني، المصدر السابق، ص 76.
312. الغبريني، المصدر نفسه، ص 38.

وعلى هذا الأساس، وأمام هذا العدد الكبير من الكتاب والشعراء الذين ذكرهم الغبريني في كتابه كانت المنافسة في مجال الأدب شديدة لاسيما وأن الحماديين كانوا يتفاخرون بهم أمام أهل الأندلس وأهل المشرق. وكان أدباء الدولة الحمادية يطلعون على المؤلفات الأدبية في المشرق وما يقال من شعر هناك خاصة شعر أبي تمام (180 هـ – 288 هـ)، والمتنبي (303 هـ – 354 هـ)، والمعري (363 هـ – 449 هـ)، والدارس لشعر هؤلاء يجده مليء بالحكمة والرجولة وهذا العرض من الشعر اهتم به الشعراء والأدباء الحماديون نتيجة ذوقهم الرفيع.

ولكن الأدب في الدولة الحمادية لا سيما في فترة ازدهارها لم يكن مقتصرا على الرجال فحسب بل شمل حتى النساء أيضا، فبرز بعضهنّ في ميدان الأدب مثل الأديبة عائشة بنت عمارة المشهورة بالنسخ لحسن خطها، التي كانت تجالس الأدباء من بينهم أبا الحسن بن فكون الشاعر القسنطيني. ومن هنا يمكن القول أن الحياة الأدبية في بجاية الحمادية كانت مزدهرة وتعج بالأدباء والشعراء المنافسين لأهل المشرق.

الفلسفة : إلى جانب الأدب واللغة كانت الفلسفة تدرس هي أيضا للطلبة النوابغ، وتقوم دراسة الفلسفة على المحاورات والمذكرات بين الأستاذ والطلبة النوابغ الذين يبدون وجهات نظرهم لكي لا يأخذوا العلوم كقضايا مسلمة لا تقبل الجدل بل يناقشون الأمور حتى يستقر فهمهم وإدراكهم للمسائل على أمر صحيح. ومن هذا المنطق فأن هذه الطريقة تساهم في التأليف والإنتاج الأدبي والعلمي والاستقلال في الرأي، وبالتالي نتج عن هذا العمل أن كثر الأدباء والمثقفين في بجاية.

التاريخ والجغرافيا : أما علم التاريخ والجغرافيا فلم يحظ بعناية البجائيين كالعناية التي أولوها للعلوم الأخرى لأن الاهتمام كان منصبا على علوم العربية والإسلام باعتبارهما الأساس الذي تقوم عليه عملية تعريب بلاد المغرب. وعلى الرغم من ذلك نجد من البجائيين ممن اهتم بعلم التاريخ مثل أبي محمد القلعي الذي كانت له حلقة علمية بالمسجد الجامع ببجاية، ومحمد بن ميمون حفيد ميمون قاضي القلعة. ويروى أن حماد بن إبراهيم ابن أبي يوسف المخزومي قد ألف كتابا

في التاريخ للأمير العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد الصنهاجي – الأمير الحمادي الثامن –[313]

ومن المؤرخين المنسوبين للدولة أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي مؤلف كتاب "النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة" و "كتاب أخبار ملوك بني عبيد" و "كتاب الإعلام بفوائد الأحكام". وعلى الرغم من أننا لا نعرف الكثير عن مدى اهتمام الحماديين بعلم الجغرافيا إلا أن هنا ك قرائن تؤكد اهتمامهم بهذا العلم، خاصة وأن العديد من المغاربة كانوا يرتحلون مشرقا ومغربا فضلا عن رحلة الحج المألوفة[314].

ج. العلوم التجريبية :

بعد دراستنا للعلوم النقلية والعقلية وما تضمنته من فروع مختلفة، نشير إلى اهتمام الحماديين بالعلوم الأخرى التي لها صلة بالصناعات والحياة المدنية كالطب وغيره. وتسمى هذه العلوم بالعلوم التجريبية، فلقد كان لها أثر كبير وأهمية بالغة في العصر الحمادي لكونها من الضروريات، والملاحظ أن أصحاب هذه العلوم لم يكونوا منفصلين عن باقي العلوم مع أن العصر الحمادي هو عصر التخصص. فقد شهدت بجاية مع مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) نهضة علمية راقية في مختلف العلوم التجريبية خاصة الطب. فقد ذكر الغبريني أن الأبحاث في علم الطب كانت تتم وفق القوانين النظرية والاستدلالات الجليلة، مما جعلها مقصد طلبة علوم الطب والأطباء من مختلف الأمصار خاصة من الأندلس، حيث مارس هؤلاء التطبيب في بجاية وروجوا لمؤلفاتهم الطبية. ومن أشهر هؤلاء الطبيب أبا القاسم محمد بن أنداراس المرسي[315].

ومن بين الذين اهتموا بهذه الدراسات نجد الطبيب ابن المليح والذي كان مشهورا[316]، أما عن أطباء قلعة بني حماد فنذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر

313. عبد الحليم عويس : المرجع السابق، ص 269.
314. عبد الحليم عويس : المرجع السابق، ص 269.
315. محمد الشريف سيدي موسى : الحياة الفكرية في بجاية، ص 212.
316. رشيد مصطفاوي، المرجع السابق، ص 89.

عمر بن البيذوخ، أبو جعفر القلعي الذي كان خبيرا في الأدوية المركبة والمنفردة وعارفا بالأمراض وطرق علاجها.

ولقد ترك الكثير من الكتب مثل "حواشي على كتاب القانون" لابن سيناء، وشرح الفصول لأبقراط في "الأرجوزة"، ولقد توفي في (575 هـ)، كذلك كان الطبيب أبو بكر المنصور القلعي الذي نبغ في الطب والرياضيات والحساب[317].

ومما لا شك فيه أن كل علم لا بد له من مواد أولية تسيره، مثل النباتات التي تستغل في الصناعات الطبية مثل "شجر الحضن والسقولوفند، وديون، البرماريس والقنطوريون، والراوند، والقسطون، والأفستين... وغير ذلك من الحشائش"[318]. والملاحظ أن وجود مثل هذه اللباتات في بجاية ما هو إلا دليل على إهتمام أهلها بعلوم الصيدلية والطب.

أما فيما يخص علم الفلك فقد اشتهر علي بن أبي الوجال التاهرتي والذي عرف بآثاره العلمية الكثيرة خاصة كتاب "البارع في أحكام النجوم" ولقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية واللاتينية، وكذلك كتاب الأرجوزة في الأحكام الفلكية[319]. أما فيما يخص علم الرياضيات، وهو العلم الذي يبين حقيقة دور بجاية الثقافي والحضاري حيث خطي المسلمون في المغرب الإسلامي بصفة عامة وبجاية بصفة خاصة خطوات كبيرة من أجل تطوير علم الحساب والهندسة والجبر والميكانيك وحساب المثلثات وأيضا الفلك.

وما دام أن كل حضارة تستمد وتستقي علومها من الحضارات السابقة لها، فان علماء بجاية استفادوا من علوم الأولين ونقلوا أصول هذه العلوم كالحساب من الإغريق والهنود ثم قاموا بعد ذلك بدراستها والاستفادة منها، فأصلحوا ما بها من أخطاء وأكملوا ما فيها من نقص ثم أضافوا إليها بعد ذلك معلومات قيمة خاصة في علم الحساب[320]. و نتيجة لهذا التطور الحضاري والعلمي الذي اتسمت به بجاية في

317. عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 270.

318. الإدريسي، المصدر السابق، ص 115، عبد الحليم عويس : المرجع نفسه، ص 270-271.

319. عبد الحليم عويس، المرجع نفسه، ص 271.

320. يحي بوعزيز، مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا، ص 10.

هذه الفترة المزدهرة من عمر الدولة الحمادية حتى غدت حاضرة من الحواضر الإسلامية وأصبح يفد اليها الطلبة من كل قطر وحتى من الأقطار الأوروبية مثل إيطاليا[321] فقد زارها ليوناردو ديفنشي (1180 م)، باستدعاء من والده ليقيم فيها.

وأثناء إقامته في بجاية كان يختلط بتجار الفرو والجلود، فسلمه أبوه إلى معلم عربي هو سيدي البجائي وعلمه مختلف العلوم الخاصة كعلم الحساب الذي يبدو أن ليوناردو قد شغف به وخاصة الأرقام الهندية وطرق استخدامها فتعلم أيضا الضرب والقسمة، كما تعلم أيضا حساب الكسور على أحدث الطرق التي كانت تدرس في المدارس العليا ببغداد[322]. وبالتالي يكون ليوناردو قد تعلم الرياضيات العربية، وعند عودته إلى إيطاليا ألف كتاب العد Liber-abaci سنة 1202 م، وكتاب Practica Geamitrica (الهندسة التطبيقية) عام 1220 م، بالإضافة إلى كتابين آخرين ابتكر فيهما طرق جديدة لكل المعادلات الحسابية والهندسية[323].

وبالتالي أصبح ليوناردو دفنشي بمثابة خوارزمي الغرب في أوربا ليظهر مدى تطور علم الرياضيات في بجاية حيث استعملت الأرقام العربية في كل المعاملات نتيجة سهولتها عكس الأرقام اللاتينية سواء في الدولة الحمادية أو في أوروبا. وبعد أن تعرفنا على مختلف العلوم التي كانت في بجاية يتضح لنا أنها كانت مزدهرة ومتطورة لاسيما في علم الحساب لذلك أطلق الأوروبيون عليها لقب "Bougie وهو اسم بجاية في لغة أهل بيزا الإيطاليين" وهي تعني الشمعة لكون أن أوربا قد استفادت - خاصة أهل بيزا الذين كانوا ينزلون بجاية - من صناعة الشمع كهرباء ذلك العصر من مدينة بجاية.

ومن هنا كان لبجاية دور علمي وحضاري لا سيما في قيام النهضة في أوربا من خلال استفادتها من علوم الرياضيات كما مر بنا في هذه العجالة.

---

321. رشيد مصطفاوي، المرجع السابق، ص 90.

322. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية في أوربا نقله عن الألمانية فاروق بيضون كمال دسوقي راجعه مارون عيسى الخوري، منشورات دار الآفاق الجديدة ط 6، بيروت، ص 90.

323. يحي بوعزيز، مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا، ص 11.

هذه الفترة المزدهرة من عمر الدولة الحمادية حتى غدت حاضرة من الحواضر الإسلامية وأصبح يفد اليها الطلبة من كل قطر وحتى من الأقطار الأوروبية مثل إيطاليا[321] فقد زارها ليوناردو ديفنشي (1180 م)، باستدعاء من والده ليقيم فيها.

وأثناء إقامته في بجاية كان يختلط بتجار الفرو والجلود، فسلمه أبوه إلى معلم عربي هو سيدي البجائي وعلمه مختلف العلوم الخاصة كعلم الحساب الذي يبدو أن ليوناردو قد شغف به وخاصة الأرقام الهندية وطرق استخدامها فتعلم أيضا الضرب والقسمة، كما تعلم أيضا حساب الكسور على أحدث الطرق التي كانت تدرس في المدارس العليا ببغداد[322]. وبالتالي يكون ليوناردو قد تعلم الرياضيات العربية، وعند عودته إلى إيطاليا ألف كتاب العد Liber-abaci سنة 1202 م، وكتاب Practica Geamitrica (الهندسة التطبيقية) عام 1220 م، بالإضافة إلى كتابين آخرين ابتكر فيهما طرق جديدة لكل المعادلات الحسابية والهندسية[323].

وبالتالي أصبح ليوناردو دفنشي بمثابة خوارزمي الغرب في أوربا ليظهر مدى تطور علم الرياضيات في بجاية حيث استعملت الأرقام العربية في كل المعاملات نتيجة سهولتها عكس الأرقام اللاتينية سواء في الدولة الحمادية أو في أوروبا. وبعد أن تعرفنا على مختلف العلوم التي كانت في بجاية يتضح لنا أنها كانت مزدهرة ومتطورة لاسيما في علم الحساب لذلك أطلق الأوروبيون عليها لقب "Bougie وهو اسم بجاية في لغة أهل بيزا الإيطاليين" وهي تعني الشمعة لكون أن أوربا قد استفادت - خاصة أهل بيزا الذين كانوا ينزلون بجاية - من صناعة الشمع كهرباء ذلك العصر من مدينة بجاية.

ومن هنا كان لبجاية دور علمي وحضاري لا سيما في قيام النهضة في أوربا من خلال استفادتها من علوم الرياضيات كما مر بنا في هذه العجالة.

---

321. رشيد مصطفاوي، المرجع السابق، ص 90.

322. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية في أوربا نقله عن الألمانية فاروق بيضون كمال دسوقي راجعه مارون عيسى الخوري، منشورات دار الآفاق الجديدة ط 6، بيروت، ص 90.

323. يحي بوعزيز، مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا، ص 11.

و يقول مفدي زكريا في هذا الصدد :

وأرقامنا العربية مالت وأوروبا العجوز لها طوعنا[324]

ورغم أن الأرقام العربية وجدت صعوبة كبيرة في تقبل الإيطاليين لها إلا أنها أثبتت وجودها وذلك بربط الإيطاليين الأرقام العربية بأشكال أخرى فتكون الأرجوزة بخليط من الكلمات اللاتينية، فالواحد كلسان الميزان، والاثنان تشبه العكاز، والثلاثة كذيل الخنزير والأربعة تشبه السجق، أما الخمسة فتشبه الموج، والستة كالنفير، والسبعة تشبه الحربة، والثمانية كالسلسلة، والتسعة كالصولجان والصفر خاتم، والخاتم إلى جوار لسان الميزان يكون عشرة، والخاتم بمفرده لا قيمة له، فأخذ الناس يغنون هذه الكلمات إلى أن أسقطت الأرقام اللاتينية صريعة الأرقام الجديدة.

وعلى هذا الأساس تكون بجاية الإسلامية قد لقنت أوروبا الرياضيات بلغة العروبة لأن بجاية في عهد الحماديين كانت بمثابة الجسر الذي ينتج آفاق العلوم الجديدة أمام العديد من الطلبة مثل ليوناردو والبيزي.[325]

د. العلماء :

برز في الدولة الحمادية العديد من العلماء الموسوعيين الذين بلغت شهرتهم الآفاق نذكر منهم على سبيل لا الحصر :

1. مروان بن علي الأسدي المعروف بالبوني :نسبة إلى بونة التي استقر بها بعد رحلته الطويلة، وعقد بها مجالسا للعلم. وتشير الروايات التاريخية أن الطلاب وفدوا إلى حلقته من مختلف أرجاء البلاد . عرف هذا العالم بالصلاح والتقوى، ألف العديد من التصانيف منها شرح لمختصر الموطأ، وصفته المصادر بالقول : "كان فقيها محدثا وله كتاب الكبير شرح فيه الموطأ"[326].

---

324. مولود قاسم، بجاية الإسلامية لقنت أوروبا الرياضيات بلغة العروبة، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية الجزائر، ج1، 1985، ص 96.

325. زيغريد هونكة، المرجع السابق، ص 96.

326. عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 355.

2. أبوعلي حسن بن علي بن محمد المسيلي ت 431 هـ : عرف بأبي حامد الصغير، درس ببجاية، وأسند اليه القضاء. قال عنه الغبريني بأنه : "جمع بين العلم والعمل، وبين علمي الظاهر والباطن"[327] ألف العديد من الكتب أهمها التذكرة في علوم الدين، وكتاب النبراس في الرد على منكر القياس، والتفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات، وسمي بأبي حامد لكونه سلك مسلك أبي حامد في كتابه الأحياء[328].

3. عبد الحق البجائي : عرف عن عبد الحق أنه كان شاعرا بالإضافة إلى اهتمامه بالعلوم الدينية. وقد ألف كتبا في هذا التخصص مثل كتاب العاقبة، التهجد، الرقائق والأسير،التوبة، مقالة في الفقر والغنى، كتاب الأحكام الكبرى، الأحكام الوسطى، الأحكام الصغرى. وتذكر المصادر أن كتاب العافية كان له تأثير على المتصوفة.

4. أبو القاسم البسكري : وهو المقرئ تتلمذ في بلاد المشرق على يد شيوخ إصفهان منهم الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني وغيره من العلماء المشهورين. كما درس ببغداد على يد أبي القاضي محمد بن علي بن محمد بن يعقوب الواسطي. كما ارتحل إلى نيسابور سنة 458 هـ والتحق بمجلس أبي القاسم الفسيتري حيث درس الأصول[329]. وقد وصفه ابن الجزري قائلا : "فلا أعلم أحدا في هذه الأمة رحل في القراءات رحلته، لاقى من لقي من الشيوخ" وقد ألف العديد من التصانيف مثل كتاب الكامل في القراءات، وكتاب الوجيز والهادي[330].

5. محمد بن علي بن جعفر المعروف بابن الرمامة : تلقى تعليمه بالقلعة، وكان من أساتذته ابن النحوي. تأثر بأبي حامد الغزالي مثل أستاذه ابن النحوي.كما عرف نبوغه في الفقه على المذهب الشافعي.

---

327. رشيد بورويبة : الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ص 192.
328. رابح بونار : المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص 268.
329. عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق، ص 268-269.
330. رابح بونار : المرجع السابق، ص 268.

3. المؤسسات التعليمية في بجاية :

كانت كل من القالة وبجاية تتوفر على مؤسسات تعليمية كالكتاتيب والمساجد التي تلقي فيها دروس العلم. فالمسجد والمسيد لعبا دورا تعليميا كبيرا وهاما . فكان كل مسجد يتوفر على مدرسين على الأقل. وقد عرف سكان المغرب الإسلامي المسيد والذي تطور كثيرا في القرن الخامس الهجري، واستقل عن المسجد، وصار مؤسسة تعليمية قائمة بذاتها من حيث البناء، ولكن لم يمنع هذا من احتفاظ المسجد بدوره التعليمي بل ارتقى فصار بمثابة مؤسسة للتعليم الثانوي والتعليم العالي. ولعل أشهر مؤسسة تعليمية اشتهرت بها بجاية هي الجامع الأعظم[331].

وإلى جانب المسجد والمسيد عرفت بجاية الزوايا التي كانت تلقى فيها الدروس. وكانت الكتاتيب أشهر أنواع التعليم الابتدائي، ويرجح أنها كانت من عمل المسيد على الرغم من أنها كانت تتمتع بنوع من الملكية الخاصة. كما عرفت الدولة الحمادية ما يسمى ب : "الشريعة" الذي كان يحل محل الكتاب وهو عبارة عن خيمة مدرسة تنتشر خاصة في البادية. فبالإضافة إلى كونه مصلى كبيرا تقام فيه صلاة العيدين وربما صلاة الجماعة كذلك كان مكانا لتعليم أطفال البادية. ويحتمل أن الشريعة تنتقل من مكان إلى آخر بحكم تنقل البدو بأغنامهم بحثا عن الكلأ[332].

كما اهتمت الدولة الحمادية بإنشاء المكتبات. ولعل أشهر هذه المكتبات المكتبة الموجودة بجامع الناصر بالقلعة وهي مليئة بالكتب المحمولة من كافة أقطار المغرب الإسلامي. ولا شك أن الحماديين ببجاية اهتموا كذلك باقتناء الكتب وتجميعها في المكتبات العامة والخاصة[333].

ولعل ما نخلص إليه مما سبق تتضح لنا أن مدينة بجاية في العهد الحمادي كانت تمثل مرحلة التحضر والانفتاح الثقافي والعلمي وفي الوقت نفسه تمثل الشوط

---

331. عبد الحليم عويس : دولة بني حماد، ص 254.
332. المرجع نفسه، ص 253-254.
333. نفسه، ص 254.

الأخير الذي انتهى بسقوط الدولة بعد سبعة وثمانين عاما من العطاء المعرفي والحضاري. وكان العنصر الأمازيغي بكل تراثه الثقافي وموروثه الحضاري واحدا من أبرز المكونات الثقافية للمجتمع الحمادي إلى جانب الموروث الثقافي العربي حيث استقرت بعض القبائل العربية بالمنطقة منذ الفتح الإسلامي. وتجدر الإشارة إلى أن البربر بذلوا مجهودات كبيرة في تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم،وعلوم الدين حتى أنهم أصبحوا ينافسون ويتفوقون على العرب خاصة في المناظرات وقواعد الأصول والفقه وعلم الكلام.

لقد استفادت الدولة الحمادية من الهجرة الهلالية في تعريب البربر ونشر اللغة العربية وعلومها. ويمكن القول أن الدور الذي عرفته الدولة الحمادية من تعريب للبلاد خلال القرن الخامس الهجري يعد بداية لدخول المغرب الأوسط في عداد الدول المعربة والتعامل مع الثقافة العربية كثقافة حياة ومعايشة لا ثقافة تعلم فحسب. ويشكل المذهب المالكي عنصرا هاما من عناصر التكوين الثقافي التي لا يمكن تجاهلها بأي حال من الأحوال. وقد ساهم احتكاك الحماديين بالأندلسيين والأفارقة والصقليين وغيرهم إلى تفاعل في الثقافات، مما ساعد في تشكيل الملامح الأساسية للشخصية الثقافية وازدهارها ورقيها.

إن أهم ظاهرة يلحظها الباحث في دراسته للحياة الفكرية هي ظاهرة التنافس الثقافي بين المشرق والمغرب الإسلامي والأندلس خاصة بين عواصمها، واشتهار إن لم نقل تخصص كل حاضرة بلون معين من العلوم وكان سبب نجاح هذا التنافس بالنسبة للحماديين رعاية أئمتهم للعلماء والمفكرين وتشجيعهم وإغداق الأموال عليهم. ومما زاد في أن تشهد بجاية إشعاعا فكريا هو تنقل طلاب العلم والمشائخ بين الحواضر الإسلامية في شكل بعثات ورحلات علمية[334].

334. أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956، ص 81.

المحور السابع

مدينة تلمسان كمركز من المراكز الحضارية

1. العوامل المساعدة على ظهور مدينة تلمسان كحاضرة ثقافية

أولا : عناية الملوك الزيانيين بالعلم والعلماء

ثانيا : المدارس التلمسانية في عهد بني زيان

ثالثا : الرحلات العلمية

2. نماذج من الرحالة التلمسانيين

1) الفقيه ابا إسحاق إبراهيم التنسي (ت 1287 – 680 م)

2) ابا عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي (681 هـ – 757 هـ)

3) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام

4) أبي حجيلة

5) أبا يحيى عبد الرحمن بن محمد بن أحمد التلمساني (ت 826 هـ / 1422 م)

3. التعليم ومراحله

1) المرحلة الأولى من التعليم "التعليم الابتدائي"

2) البرامج المقررة في المرحلة الأولة "المرحلة الابتدائية"

3) المرحلة الثانية من مراحل التعليم (المرحلة الثانوية)

4) المرحلة الثالثة من التعليم (المشيخة أو التعليم العالي)

مدينة تلمسان كمركز من المراكز الحضارية

تعد مدينة تلمسان من مدن المغرب الأوسط التي نالت شهرة كبيرة كمركز ن المراكز الحضارية والثقافية التي عرفتها المنطقة، وسوف نقتصر في دراستنا هذه على الفترة الزيانية، بداية بالعوامل المساعدة على نمو الحركة الثقافية بتلمسان وبروزها كحاضرة من الحواضر الثقافية في الجزائر ومدى الاهتمام الذي أولاه الزيانيون للحركة الثقافية وما صاحبه من انتشار للمدارس في المدينة والارتحال في طلب العلم مبرزا عيّنة من الرحالة.

1. العوامل المساعدة على ظهور مدينة تلمسان كحاضرة ثقافية

قبل الحديث عن العوامل التي ساعدت على ظهور مدينة تلمسان كحاضرة من الحواضر الثقافية في الجزائر يجدر بنا العودة باختصار إلى الأحداث السياسية الكبرى التي شهدتها بعض الأقطار الإسلامية في كل من المغرب والمشرق خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، والتي برزت فيها مدينة تلمسان كحاضرة سياسية وعلمية في المغرب الأوسط (الجزائر).

فمن المعروف أن العالم الإسلامي آنذاك بجناحيه الشرقي والغربي كان يعاني من وطأة الحركة الصليبية، والغزو المغربي، وحركة الاسترداد الإسباني، هذا فضلا عن نشوب بعض النزاعات والفتن الداخلية بين الأسر الحاكمة في بعض الأقاليم تسببت في ظهور نكسة ثقافية واضحة المعالم أصابت دار الإسلام.

ولعل أصدق وصف لما آل إليه الأمر ما نستشفه مما ردّده ابن الأثير في قوله "لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدن بمصائب لم يبتل أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر – قبحهم الله – أقبلوا من المشرق ففعلوا من الأفعال التي يستعظمها كل من يسمع بها... ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام ومقصدهم ديار مصر... وأشرفت ديار مصر وغيرها على أن يملكوها – لولا لطف الله ونصره عليهم، وفيها أن الذي سلم من هاتين الطائفتين، فالسيف بينهم مسلول والفتن قائمة على ساق"[335] هذا هوالحال الذي كانت عليه بلاد المشرق، أما بلاد الأندلس فقد كانت مسرحا لحرب صليبية مدمرة بين المسلمين والإسبان لم تتوقف عند إبادة المسلمين وتشريدهم بل طالت أيديهم كل ما له صلة بالجانب الفكري والثقافي في المدن الأندلسية التي استولوا عليها. فالنصوص التاريخية تشير إلى ما أقدم عليها الإسبان من حرق وإتلاف لنحو مائة ألف مخطوط في مدينة غرناطة لوحدها سنة 904 هـ / 1492 م[336]. ناهيك عن مصادرتهم للكتب العلمية القيمة التي هم بحاجة إليها. كما طالت أيديهم تحطيم معظم المؤسسات التعليمية والدينية المنتشرة في أرجاء المدن الأندلسية.

ولم يكتفوا بذلك فقط بل وصل بهم الحد إلى قتل العلماء والفقهاء وتشريدهم من ديارهم وتجريدهم من ممتلكاتهم، فهلك من هلك. وفّر من تبقى منهم إلى بلاد المغرب والمشرق بحثا عن أماكن آمنة[337].

كان هذا الحال الذي آلت إليه بلاد المشرق والأندلس بسبب الحروب والأزمات السياسية، مما أثر كثيرا على الحركة الثقافية فقلّت المؤلفات العلمية والفقهية في المشرق وخاصة في بغداد والبصرة والكوفة بسبب التتار، وعلى يد الإسبان في الأندلس[338] فنقصت بذلك الذخائر العلمية.

---

335. ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 7، ص 330.
336. ابن الخطيب : الإحاطة جـ، ص 8.
337. ابن خلدون : العبر جـ 7، ص 232.
338. ابن خلدون : المقدمة ص 774.

وفي هذا الأثناء ارتسمت في أرض بلاد المغرب خريطة سياسية جديدة على يد ثلاث قبائل مغربية على أنقاض دولة الموحدين، وهي دولة بني حفص ودولة بني زيان ودولة بني مرين وكانت هذه الدول قد ورثت جميعا ذلك الإرث الثقافي والفكري الموحدي وحافظت عليه وزادته جرعة إضافية بفضل السياسة المنتهجة من طرف حكامها ونظرتهم إلى العلوم العقلية والنقلية على السواء[339].

ومما لا شك فيه أن الظروف السياسية المضطربة التي عرفتها مدينة تلمسان في بعض الفترات من تاريخها وما سببته الفتن الداخلية والحملات المرينية والحفصية على عاصمة الدولة الزيانية لم تؤثر كثيرا على الحياة الثقافية السائدة في المدينة حتى في أحلك ظروفها السياسية والفضل في ذلك يعود إلى جملة من العوامل المستمدة من البيئة التلمسانية نفسها، وإلى واقعها المادي والبشري، وتركيبتها الاجتماعية والفكرية[340] ومن جملة تلك العوامل رغم اختلافها نذكر:

أولا : عناية الملوك الزيانيين بالعلم والعلماء :

إن المتتبع للحركة الثقافية والعلمية التي كانت تتميز بها مدينة تلمسان يعود في الأساس إلى جملة من العوامل المشجعة على ذلك كالنزعة العلمية والفكرية التي اتصف بها بعض سلاطين وأمراء بني زيان بداية من مؤسس الدولة كتشجيعهم للعلماء ونصرتهم لهم، زيادة على مشاركتهم العامة في الاحتفاء بهم وتبجيلهم وهذا ما تؤكده المصادر التاريخية والتراجم التي تزخر بأمثلة كثيرة على ذلك، ولعل ما أورده محمد التنسي[341] في كتابه "نظم الدر والعقيان" من أخبار حافلة عن المدارس التي شيدها الأمراء الزيانيون، وحفاوتهم لأهل العلم وتبجيلهم لأصدق دليل على ذلك سواء أكان هؤلاء العلماء من سكان القطر أو القادمين إليه من مختلف الحواضر المغربية والإسلامية، وما لاقاه علماء العدوة الأندلسية خصوصا لدليل على ذلك[342].

---

339. ابن خلدون : العبر جـ 6، ص 266.

340. فيلالي عبد العزيز : تلمسان في العهد الزياني جـ(2)، ص 300.

341. التنسي : ص161 ،179.

342 فيلالي عبد العزيز : المرجع السابق ص 300.

وقد كان للجوء علماء الأندلس إلى مدينة تلمسان وما حملوه معهم من علم وفكر ذا وقع كبير على مجريات الحياة الثقافية بالمدينة وهذا ما أكده ابن خلدون في قوله : "وأما المغرب فانتقل إليه من دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة، واستحكمت من عوائدها، لما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس"[343].

ومما لاشك فيه أن سلاطين وأمراء بني زيان قد أسهموا إسهاما كبيرا في تنشيط الحركة الثقافية لأن من بينهم من كان فقيها وشاعرا وأديبا وفنانا مثل السلطان أبي تاشفين الأول المولع بالفن والعمران [344].

والأمير الفقيه أبي محمد عبد الله بن عثمان بن يغمراسن المعروف بابن أبي حفص والشيخ الفقيه أبي سليمان داوود علي كبير بنى عبد الواد وشيخ دولتهم.

والفقيه أبي عبد الله محمد بن السلطان أبي يحي يغمراسن المعروف بابن شانشة[345] والشاعر السلطان الأديب أبي حمو موسى الثاني والسلطان أبي زيان محمد الثاني[346] فكان هؤلاء الأمراء والسلاطين يشجعون العلماء على المزيد من الاجتهاد، وتحرير الأفكار من الركود وتنشيط الحركة الفكرية والثقافية بالعاصمة الزيانية، فكانوا يشرفون بأنفسهم على المهرجانات الشعبية التي ينظمها أكثر السلاطين كل سنة بحلول ليلة المولد النبوي الشريف[347].

ولم يكتفوا بذلك بل تعدى الأمر بهم إلى الإشراف المباشر في بعض الأحيان على المجالس والمنابر التي تلقى فيها الدروس العلمية المتعلقة بالعقيدة والتاريخ، والعلوم العقلية الأخرى. كما كان عليه الحال في عهد أسلافهم الموحدين الذين تميز عهدهم بالاجتهاد وحرية الفكر خاصة في المعتقدات والفقهيات، فتأثرت

---

343. ابن خلدون : المقدمة، ص 668.
344. يحي بن خلدون : بغية الرواد ج، ص 216.
345. فيلالي عبد العزيز : المرجع السابق، ص 301.
346. التنسي : الدرر والعقيان، ص 210-211.
347. محمد زلاقي : شعر المولديات في المغرب العربي الإسلامي ص 37.

مدينة تلمسان بهذه النهضة الفكرية وبمختلف التيارات السائدة آنذاك[348] والأكيد أن لهذا الإرث الفكري والثقافي دور في تنشيط الحركة العلمية بها.

وهذا ما فتح مجالا أمام العلماء للحوار والمناظرة والتعمق في البحث والإقبال على مختلف المؤلفات الفقهية وغيرها، فصارت بذلك مدينة تلمسان مقصدا لطلاب العلم من كل صوب وحدب وهذا ما نستشفه من قول ابن الخطيب في الإحاطة إذ يقول "فتفرغت بحول الله عز وجل – للقراءة، فاستوعبت، أهل البلد لقاء وأخذت عند بعضهم عرضا ولقاءا سواء المقيم القاطن أو الوارد الظاغن"[349].

ويعد السلطان يغمراسن أول من عمل على تشجيع الحركة الثقافية والتعليمية بمدينة تلمسان فحرص على استقدام رجال العلم إلى عاصمته وشجعهم على التدريس والتأليف، بعد إعلاء مراتبهم، كما أغدق عليهم الأموال والهدايا، فاستقر في عهده بعاصمة تلمسان الشيخ العالم أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي كبير علماء زمانة وأخوه أبو الحسن.

ومما لا شك فيه فإن حدة المنافسة بين سلاطين المغرب على استقطاب واختيار كبار الكتبة والأدباء والفقهاء وإدراجهم في المجالس العلمية وبعض الدواوين شجع على استقرار بعضهم ولعل ما فعله يغمراسن مع أبي بكر محمد بن عبد الله بن خطاب المرسي الأندلسي (ت 686 هـ / 1287م)[350] الذي اختاره ككاتب له لكتابة الرسائل إلى الخليفة الحفصي وإلى الأقطار الإسلامية الأخرى لخير دليل على ذلك.[351]

ويذكر أن المستنصر أبا عبد الله بن أبي زكريا الحفصي (647 هـ – 675 هـ / 1249 م – 1277 م) عمل كل ما في وسعه لاستقدام ابن الخطاب للكتابة فأرسل له أموالا كثيرة لهذا الغرض إلا أن ابن الخطاب اعتذر وردّ له أمواله، وهذا ما زاد في

348. نفسه، ص 37.
349. يحي بن خلدون : المصدر السابق، ص 114.
350. ابن مريم : المصدر السابق، ص 227.
351. ابن الخطيب : الاحاطة ج (2)، ص 426، 427.

شأن هذا الكتاب وبعد همّة لدى الخليفة الحفصي، ونستشف ذلك مما جاء في كتاب ابن الخطيب إذ يقول : "وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله ابن الأمير أبي زكريا استقدمه على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء وبعث إليه ألف دينار من الذهب العين، فاعتذر ورد عليه المال، وكانت أشق ما مر على المستنصر وظهر له علو شأنه وبعد همته"[352].

كما عمل السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن على تشجيع العلماء والفقهاء، فاحتفظ بمن كان في بلاط أبيه من العلماء والفقهاء والأدباء، وأضاف إليهم الشاعر الصوفي والكاتب المتميز أبي عبد الله محمد بن خميس (ت 708 هـ / 1308 م) وقلده خطة الكتابة سنة (671 هـ / 1272 م)[353].

أما السلطان أبو حمو موسى، فقد جعل مدينة تلمسان منارة للعلم ومقصد العلماء وأهل الفكر نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الفقيهين الكبيرين ابني الإمام أبي زيد وأبي موسى اللذين قربهما إليه وأكرم وفادتهما بعد أن بنى لكل واحد منهما منزلا كما بنى لهما مدرسة تعد المدرسة الأولى التي شيدت في بداية عهده ونظر لمكانتهما وعلمهما الغزير كان أبو حمو هذا لا يفارق مجلسهما للاستماع إلى نصائحهما، بعد أن خصّهما بالفتوى والشورى[354].

أما السلطان أبو تاشفين الأول فقد قرب إليه أبا موسى عمران المشدالي البجائي، الذي يعد من أعرف أهل عصره بمذهب أنس بن مالك وعينه مدرسا بالمدرسة التي أسسها بمدينة تلمسان وأراد بذلك أن تضاهي عاصمته كلا من فاس وتونس وغرناطة[355].

كما اشتهرت أسرة بني الملاح[356] وقاضى الجماعة أبو عبد الله محمد بن منصور (ت 735 هـ / 1335 م) هذا الأخير الذي تولى قضاء الجماعة بتلمسان وكتابة

352. نفسه : ص 127-426.
353. يحي بن خلدون : بغية الرواد ج، ص 208.
354. التنسي : نظم الدر والعقيات ص 139، وانظر أيضا : يحي بن خلدون : بغية الرواد ج، ص 208.
355. أبو الأجفان محمد الهادي : الإمام أبو عبد الله محمد المغرب التلمساني، ص 63.
356. ابن خلدون : العبر ج 7، ص 217، 218.

السر والخطابة في المسجد الجامع، ميّزه أبو تاشفين الأول عن غيره وخصه بمكانة تليق بمقامه[357].

وحرص أبو تاشفين الأول على إقامة المجالس العلمية والأدبية في قصره ولا يفارقها أبدا نظرا لما يدور فيها من مناظرات بين الفقهاء والعلماء والأدباء. وكان من بين العلماء الذين كان لهم ظهورا قويا ومتميزا في تلك المناظرات نذكر منهم الشيخ الفقيه موسى بن عمران بن موسى المشدالي خاصة في ميدان الفقه وأصول المذهب المالكي[358]. ولما استولى السلطان أبو الحسن المريني على المغرب الأوسط قام ببناء مدرسة العباد سنة (748 هـ / 1348 م)[359] وجلب لها الأساتذة كما خص طلابها بالمنح والأرزاق.

وقد وصف لنا ابن مرزوق اهتمام أبي الحسن بدراسة الحديث وكتب السيرة وتقريبه للعلماء ومجالستهم وحضوره المجالس العلمية بقوله : "وكان – أبو الحسن – أبر الناس بأهل العلم واعرفهم بقدرهم استخلصهم لنفسه، وجمع من سائر بلاده في حضرته، إذا سمع بمن له رسوخ قدم في العلم أقدمه على حضرته، وجعله من خواص أهل مجلسه، وأجرى عليهم الجرايات التي تكفيهم حضرا وسفرا، فاجتمع بحضرته أعلام، ثم ضم من كان بتلمسان وأحوازها حين استيلائه عليها[360]. كما حذى حذوه ابنه أبي أبي عنان، حيث بنى مدرسة أخرى بتلمسان إلى الغرب من ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الحلوي سنة 754 هـ / 1343 م[361].

أما السلطان أبو حمو موسى الثاني مجدد الدولة الزيانية فعني هو الآخر بالعلوم والآداب عناية فائقة خاصة وأنه كان يقرض الشعر ويحب أهله[362] وخلف لنا كتابا ذا قيمة كبيرة في السياسة سماه "واسطة السلوك في سياسة الملوك"[363].

---

357 النباهي : المرقبة العليا، ص 134.

358. المقري : نفخ الطيب ج 5، ص 218، 219 ،223.

359. ابن مرزوق: المسند، ص 260.

360. نفس المصدر والصفحة.

361. يحي بن خلدون : بغية الرواد ج، ص 127، 128.

362. المقري: أزهار الرياض ج 1، ص249.

363. فيلالي عبد العزيز : المرجع السابق، ص 305.

ولعل ما يدل دلالة أكيدة على اهتمام أبو حمو موسى الثاني بالعلم والعلماء ما وصفه به صاحب "نحلة اللبيب" إذ يقول بأنه كان "طالب للعلم في صغره معتنيا به في كبره، مكرما للعلماء في أيام دولته مجلاً لهم"[364].

كما عمل السلطان أبو زيان محمد الثاني (796 هـ – 801 هـ / 1499 م – 1394 م) على حث العلماء على التأليف ونسخ الكتب واقتنائها وحبسها في خزائنه التي شيّدها بالجامع الأعظم بتلمسان ونحى بنفسه نحو العلماء في التأليف حيث صنف كتابا أسماه" الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمّارة"[365].

أما السلطان أبو العباس احمد بن زيان (834 هـ – 866 هـ / 1462 م – 1431 م) فأولى هو الآخر عناية فائقة بالعلماء فجالسهم وشجعهم على التأليف مع الحرص على حضور دروسهم ومحاضراتهم والمشيء في جنائزهم[366].

ثانيا : المدارس التلمسانية في عهد بني زيان

يعود ظهور المدارس بمدينة تلمسان إلى بداية العقد الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وانتشرت عبر أحياء المدينة خلال هذا القرن، غير أن وجودها قد تأخر مقارنة ببلاد المشرق بنحو قرنين وعن إفريقية والمغرب الأقصى بنحو قرن من الزمن[367].

والمعروف أن المدارس في بلاد المشرق قد وجدت في البداية من اجل المذهب الشافعي، ثم تطورت إلى أن شمل التنافس المذاهب السنية الأربعة المختلفة. أما مدارس تلمسان خاصة والمغرب عامة فقد وجدت من اجل المذهب المالكي واطراح بدعة الموحدين، ومذهبهم في الاعتقاد[368].

---

364. ابن عمار : ص 166.
365. التنسي : نظم الدر والعقيان، ص 210، 212.
366. فيلالي عبد العزيز المرجع السابق، ص 307.
367. ابن خلكان : وفيات الأعيان ج (1)، ص 8.
368. القبلي : مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الأوسط، ص 69.

والراجح أن المدارس التلمسانية كانت مدارس حكومية رسمية تابعة للدولة هي التي تتولى الإشراف عليها بالتمويل وتعيين الأساتذة والمدرسين، ومعظم مدرسيها من المالكية[369].

وقد قامت الدولة بتخصيص الرواتب والأجور للمدرسين، والعاملين في المدارس، ولم تستثني من ذلك حتى الطلبة حيث تكفلت بإعانة الطلبة ماديا مع الحرص على تحمل نفقاتهم ومصارفهم وعمل المشرفون على إنشاء المكتبات لتلك المدارس وزودها بالكتب حسب التخصصات والفنون وللتسهيل على الدارس الحصول عليها رتبت حسب التخصصات، كما لم يبخل موظفي المكتبات على تقديم كل ما يحتاجه الناسخ من أوراق النسخ كالأوراق والأقلام وغيرها[370].

والراجح أن سلاطين الدولة الزيانية كغيرهم من ملوك وسلاطين الدول الإسلامية كانوا يهدفون من وراء إنشائهم للمدارس في المقام الأول إلى نشر التعليم والثقافة من جهة وتوجيه الرعية حسب مصلحة المذهب وما يتماشى ومصالح الدولة. وعليه فانهم كانوا يشرفون إشرافا مباشرا على تلك المدارس.

ومن بين المدارس التي اشتهرت بمدينة تلمسان ونالت شهرة كبيرة المدرسة التي بناها أبو موسى الأول لابني الإمام أبى زيد وأبى موسى[371]. هذا إلى جانب المدرسة التي بناها السلطان أبو تاشفين الأول والمعروفة باسم المدرسة الجديدة بتلمسان، التي أراد أبو تاشفين الأول أن تكون في مقام أو تضاهي جامع القرويين بفاس والقيروان بتونس[372].

كما ساهم أبوالحسن المريني في المجال الثقافي ببنائه مدرستين الأولى معروفة باسم مدرسة العباد والتي تم إنشاؤها سنة 748 هـ / 1348 م أما الثانية وهي

---

369. الفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 354.
370. حسين آمين : المسجد وأثره في تطوير التعليم، ص 9.
371. التنسي : نظم الدر والعقيان، ص 139.
372. أبوالأجفان : المرجع السابق، ص 63.

المدرسة التي بناها بجانب مسجد وضريح الولي الصالح أبي عبد الله الحلوي سنة 754 هـ / 1343 م[373].

وإلى جانب المدارس التي أشرنا إليها، فالأكيد أن للمساجد المعروفة بمدينة تلمسان كان لها دور في تنشيط الحركة الثقافية والتعليمية بالمدينة وساهمت إسهاما كبيرا في توحيد الفكر الإسلامي والمذهبي في حاضرة الدولة الزيانية.

ثالثا : الرحلات العلمية :

لقد عمل سلاطين بني زيان وفقهائها على توطيد العلاقات الثقافية مع أهل المغرب خاصة وبلاد المشرق والأندلس على وجه العموم، ولعل ما نشط هذا الاتصال هو ربط الدولة الزيانية لعلاقات دبلوماسية مع جيرانها المغاربة والمشارقة والأندلسيين[374] فتبادلت معهم الرسائل الديوانية والاخوانية[375].

كما كان لأداء الفرائض والشعائر الدينية كالحج إلى البقاع المقدسة دور في دعم تلك الروابط، وأدى هذا إلى تلاقي فكري بين علماء تلمسان ونظرائهم من حواضر الدول الإسلامية.

وعلى هذا الأساس فان الدارسين التلمسانيون قد تنقلوا إلى مشارق الأرض ومغاربها لطلب العلم والاستزادة منه، لأن الرحلة لطلب العلم كانت من الأمور المحمودة وسبيلهم في ذلك التحصيل العلمي وتبادل الآراء في شتى أنواع العلوم العقلية منها والنقلية، مما مكن من مد جسور العلم وتبادل المعارف والثقافات عبر الأجيال بالرغم من التجزئة السياسية التي عرفتها الأقطار الإسلامية حينذاك.

وعليه كان الاتصال بتداول المعارف والكتب، وتبادل الإجازات إما باللقاء المباشر أوبالمكاتبة[376] وعلى هذا الأساس كانت الرحلة إلى تونس للمزيد من الدرس والتحصيل على يد شيوخ الزيتونة وإلى مدينة فاس للإجازة على مشايخ جامع

---

373. يحي بن خلدون : بغية الرواد ج 1، ص 127، 128.

374. عطاء الله دهينة : مساعدة الزيانيين لمسلمي الأندلس، ص 7-17.

375. المقري : نفح الطيب ؛ ج 6، ص 204، 205، 388، 389.

376. حسين الوراكلي : المشيخة العلمية في المغرب والأندلس، ص 78.

القرويين أو الأخذ من فقهاء غرناطة بالأندلس[377] وبجاية[378] ومدارس الإسكندرية والجامع الأزهر بالقاهرة، أو الانتساب إلى مراكز التعليم بالمدينة المنورة ومكة المكرمة[379].

ولم يستثنوا من ذلك معاهد الشام وبغداد للتعمق في دراسة الفقه وأصوله والإطلاع على المدارس النحوية واللغوية وغيرها من علوم العصر[380] وتنافسوا مع غيرهم في تنشيط المجالس العلمية وحلقات الدروس، كما أسهموا في نشر ما لديهم من علم ومعارف وتركوا آثار علمية وبصمات فكرية ذات سمعة طيبة لدى أهل المشرق والمغرب والأندلس[381].

ومما لا شك فيه أن المشيخة التلمسانية العلمية منها والأدبية كانت على درجة كبيرة من النضج والاستواء مما جعلها تفرض نفسها في الأوساط العلمية مغربا ومشرقا[382] نظرا لتميز شيوخها بقراءاتهم المتنوعة لكتب الحديث وأمهات كتب السنة والمسانيد والموطأ[383].

كما كان لرحلات العلماء التلمسانيين غربا وشرقا ثم عودتهم إلى ديارهم دورا في التواصل الثقافي والفكري بين الأقطار الإسلامية وعاصمة الزيانيين، بعد أن عمد البعض منهم إلى إدخال بعض المؤلفات والمختصرات سواء أكانت مشرقية أو أندلسية إلى عاصمة الدولة لتدريسها في المدارس التلمسانية، ونذكر من هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر مختصر ابن الحاجب في الأصول والفروع، الذي أتى به أبو علي ناصر الدين المشدالي إلى بجاية وقرره على طلاب مدارسها[384] ثم نقله تلميذه أبو موسى عمران بن موسى المشدالي إلى تلمسان فدُرس بمدارسها.

---

377. مطيع محمد : كفاية المحتاج بمن ليس في الديباج ج (2)، ص 333.
378. ابن خلدون : التعريف بابن خلدون، ص 38.
379. ابن مريم : البستان، ص 185.
380. ابن مريم : المصدر نفسه، ص 123، 124.
381. حسن الوراكلي : المرجع السابق، ص 64.
382. نفسه، ص 64.
383. ابن خلدون : التعريف بابن خلدون، ص 303، 304.
384. ابن خلدون : المقدمة، ص 809، المقري : نفح الطيب ج 5، ص 221. نفس المصدر : ص 773.

كما أدخل الفقيه محمد بن الفتوح التلمساني (ت 818 هـ / 1415 م) مختصر خليل بن إسحاق المالكي إلى بلاد المغرب، ناهيك عن شروح ومختصرات أخرى التي أصبحت مقررات أساسية للطلاب والدارسين[385].

وإلى جانب المؤلفات المشرقية أدخلت بعض المصادر الأندلسية في حلقات الدروس بحاضرة تلمسان، واعتمدها الطلاب والمدرسين في دراساتهم وأبحاثهم، نذكر منها مثلا كتاب : الدار النثير والعذب المنير في شرح كتاب التسير لأبى أبي السداد المالقي، وكتاب الأماني المعروف بالشاطبية لأبي القاسم بن غيرة الشاطبي، وكذا كتاب التجريد لأبي الحسن بن علي بن سليمان القرطبي وغيرها من المصادر الأندلسية وهي كثيرة[386].

مما سبق يتضح لنا أن عاصمة الزيانيين كانت تتبوأ مكانة مرموقة كحاضرة من الحواضر الثقافية في المغرب الأوسط لأنها تغذت بروافد عديدة، كرافد المشرق الإسلامي، ورافد الأندلس، فضلا عن الإرث المحلي والمغربي، فكان لهذا التمازج والتلاقي الفكري والثقافي في أن تخرج من تلمسان كوكبة من الأساتذة والعلماء تميزوا بغزارة التحصيل وعمق التفكير، فأصبحوا حجة في العلوم العقلية والنقلية[387].

2. نماذج من الرحالة التلمسانيين :

يعرف على طلاب العلم من أهل تلمسان أنهم شدوا رحالهم إلى مختلف أنحاء الحواضر المغربية والمشرقية والأندلسية ورغبتهم التحصيل العلمي على يد كبار مشايخ تلك الحواضر، والنماذج التي نوردها هنا على سبيل المثال لا تمثل إلا العدد النادر من عدد الشيوخ والعلماء التلمسانيين الذي تحملوا مشقة الترحال بين أقطار المشرق والمغرب وبلاد الأندلس، وسبيلهم في ذلك المزيد من الدرس والتحصيل، حتى أصبحوا شيوخا وعلماء، ذو أثر كبير في إثراء الجانب الفكري والثقافي خلال العهد الزياني.

---

385. الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف ج 2، ص 339.

386. بغية الرواد، ج (1)، ص 100.

387. ابن خلدون : المقدمة، ص 780، 798، وانظر أيضا : الونشريسي : المعيار ج (2)، ص 456.

هذه النماذج التي نوردها هنا تعطي انطباعا كافيا وصورة واضحة على رغبة التلمسانيين في طلب العلم والرحلة من أجله كآل التنسي وآل الإمام وآل الشريف التلمساني وغيرهم من الأسر التي أنجبت العديد من العلماء في مختلف الميادين ومن هؤلاء نذكر

1) الفقيه أبا إسحاق إبراهيم التنسي (ت 680 هـ – 1281 م)

ولد الفقيه أبا إسحاق التنسي بمدينة "تنس"، وزاول دراسته الأولى بها، ثم انتقل إلى مليانة وشلف إلى أن استقر به المقام بحاضرة تلمسان[388] حيث أخذ العلم على يد الشيخ سيدي واضح وبلال الحبشي، وبعد أن استوى عوده انتقل إلى بجاية فدرس بها مع مجموعة من معاصريه كالشيخ أبي فارس عبد العزيز كحيلا وأبي علي المشدالي، ثم رحل إلى تونس، فدرس على مشايخها[389].

ونظرا لنبوغه في العلم عرض عليه الأمير المصري "الصالح طبرس" وظيفة التدريس في المدرسة "الطبرسية" بعد أن خصه بمرتب شهري مغر إلا أن أبا إسحاق رفض العرض الذي قدم له رغم المحاولات التي قام بها العديد من الأعلام لإقناعه، إلا أنه أصر على موقفه، وفضل أن يدرس بالمدينة المنورة ومكة المكرمة.

ونظرا لمكانته العلمية وليّ بعض المهام الدبلوماسية في العهد الزياني، واستغل تنقلاته بين حاضر تلمسان وفاس لإلقاء دروس في الحديث على جمع كبير من فقهاء فاس[390] كما كان يحضى بهيبة كبيرة لدى الفقهاء والأمراء، وهذا ما نستشفه من قول السلطان المريني عنه إذ يقول : "ما صافحني أحد قط إلا أحسست بارتعاش يد لهيبة السلطان، إلا الفقيه أبا إسحاق التنسي، فعندما يصافحني تدركني منه مهابة، فكانت يدي ترتعش من هيبته"[391].

388. عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق، ص 317.
389. نفس المرجع والصفحة.
390. عبد العزيز فيلالي المرجع السابق، ص 317.
391. نفس المرجع والصفحة.

2) أبا عبد الله محمد بن ابراهيم الأبلي (681 هـ – 757 هـ)

ولد أبوعبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي بتلمسان سنة (681 هـ – 1280 م) وأسرته من أبله بالأندلس، ونزحت إلى تلمسان حيث كان والده أحد أعوان الأمير يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية[392] أخذ العلم عن ابني الإمام، واعتنى بالرياضيات والعلوم العقلية، وبرع مبكرا في علم المنطق وهذا ما أهلّه لأن يُعيّن مدرسا رغم حداثة سنه.

وفي سنة 700 هـ / 1302 م فر من تلمسان عندما حاصرها جيش بني مرين، ثم توجه لأداء فريضة الحج، وفي طريقه مكث بالقاهرة، واتصل بعلمائها ومشايخها ومنهم العلامة ابن دقيق العيد، وأثناء عودته توقف بمدينة بجاية، ودرس فيها مختصر ابن الحاجب في الفقه، ولما بلغه أن حصار تلمسان قد انتهى قرر العودة إلى مسقط رأسه "تلمسان"، وسمع ثانية من ابني الإمام، إلا انه اختلف مع السلطان أبي حمو ساعتها قرر مغادرة تلمسان إلى فاس فمراكش وفيها درس الرياضيات على يد الرياضي المشهور العلامة أبي العباس ابن البناء. بعدها طلب منه أحد وجهاء منطقة الأطلس أن ينتقل إلى منطقته لتدريس الطلبة، فلبى الدعوة وأقام بمنطقة الأطلس ردحا من الوقت ثم غادرها إلى فاس، حيث واصل مهنة التدريس إلى أن توفي سنة 757 هـ / 1356 م[393].

3) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام :

يعتبر أبو زيد عبد الرحمن أشهر علماء المالكية بالمغرب، نشأ ببركش من عمالة تلمسان، وهو أكبر الأخوين المعروفين بأولاد الإمام، كان والده إمام ببركش وقتله زيري بن حماد، انتقل أبو زيد وأخوه أبو موسى إلى تونس طلبا للعلم فأخذ عن ابن جماعة وأب القطان واليفرني وغيرهم كثير. ثم عاد إلى الجزائر إلا أنه لم يستقر

---

392. ابن مريم : البستان، ص 215.

393. ابن مريم : المصدر السابق، ص 214، 215، وانظر أيضا : ابن خلدون : التعريف بابن خلدون، ص 37-34، 221، 222.

بتلمسان بسبب الحصار الذي فرضه الأمير يوسف بن يعقوب المريني على المدينة، فأقام بمليانة ودرس بها مع أخيه، وذلك سنة (700 هـ / 1301 م) ثم رحل إلى المغرب الأقصى.

ولما استقرت الأمور بتلمسان عاد إليها فقربه الأمير أبوحموالأول واختط له مدرسة اشتهرت باسم مدرسة ابن الإمام فتولى التدريس والإفتاء بها[394].

وبعد مدة انتقل ابن الإمام إلى بلاد المشرق، وهناك التقى مع بعض العلماء أمثال علاء الدين القونوي وجلال القزويني، وشيخ الإسلام ابن تيمية ويذكر أنه ناظر هذا الأخير، ثم رجع قافلا إلى تلمسان ومكث بها ولم يغادرها حينما استولى عليها الأمير أبو الحسن المريني فقربه الأمير وحضر ابن الإمام معه معركة طريف سنة 740 هـ / 1340 م ثم توفي بعد ذلك بقليل[395].

وقد ألف ابن الإمام مؤلفات مفيدة منها شرح عظيم لابن الحاجب، وأخذ عنه وعن أخيه عدد من العلماء منهم الشريف التلمساني وأبو عثمان العقباني والخطيب ابن مرزوق الجد وغيرهم[396].

4) أبي حجلة :

هو شهاب الدين أبوالعباس احمد بن يحي بن أبي بكر عبد الواحد التلمساني المعروف بابن حجلة، ولد بتلمسان وتوفي بالقاهرة[397] رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج، ثم عرج على دمشق فدرس فيها الأدب ثم عاد ثانية إلى القاهرة حيث تولى فيها مشيخة الصوفية بصهريج منحك خارج القاهرة، نبغ في العلوم الشرعية والعقلية كالحديث والفقه والطب والشعر الصوفي. ونظرا لنزعته السنية المعتدلة في التصوف هاجم القائلين بوحدة الوجود وخاصة عمر بن الفارض المغالي في

394. يحي ابن خلدون : بغية الرواد ج 1، ص 208.
395. ابن مرزوق : المسند، ص 66-265، وانظر أيضا : التنسي :نظم الدر والعقيان، ص 139.
396. يحي ابن خلدون : المصدر السابق ج 1، ص 208.
397. الحفناوي : تعريف الخلف ج 2، ص 42.

ذلك، حيث عارض قصائده بمدائح نبوية وتوفي تاركا وراءه إرثا كبيرا يتمثل في حوالي ثمانين مؤلفا[398].

5) أبا يحي عبد الرحمن بن محمد بن أحمد التلمساني (ت 826 هـ / 1422 م)

ولد أبو يحي عبد الرحمن بتلمسان وزاول دراسته الأولى بها بعدها انتقل إلى فاس بالمغرب للمزيد من التحصيل والاحتكاك بعلمائها[399] بعد أن درس الموطأ على يد أبيه واصلا ابن الحاجب علي سعيد العقباني، وكذا التفسير والنحو وأخذ العربية عن الأستاذ ابن حياتي فكان كغيره من طلاب العلم الذين كانوا يتنقلون بين مختلف المناطق والحواضر الإسلامية لأجل حضور المجالس العلمية لكبار الشيوخ والعلماء. فكان لهذه اللقاءات العلمية أن نتج عنها تواصل فكري وثقافي[400].

3. التعليم ومراحله :

يعتبر التعليم الركيزة الأساسية والهامة التي تساهم في دفع عجلة الحركة الثقافية والفكرية نحو التقدم والرقي في مجالات العلوم المختلفة، ويساهم إسهاما كبيرا في نشر الثقافة بين أفراد المجتمع فيرتقي سلوكه أخلاقيا وحضاريا.

وتعد مدينة تلمسان كغيرها من المدن الإسلامية التي شهدت نهضة فكرية وتعليمية، فهي بذلك لا تختلف عن مثيلاتها في المشرق والمغرب. وكان التعليم يمر بعدة مراحل :

1. المرحلة الأولى من التعليم "التعليم الابتدائي" :

تبدأ المرحلة الأولى من التعليم والاحتكاك بالكتاب لما يبلغ الطفل السن السابعة من عمره[401]. وهي نفس السنة التي أمر فيها الرسول (ص) بتعليم الصبيان أداء

398. خير الدين الزركلي : الاعلام م (1)، ص 255.
399. مطيع محمد : كفاية المحتاج ج 2، ص 322.
400. المرجع نفسه، ص 222-223.
401. المغراوي : جوامع الاختصار والتبيان، ص 47.

فريضة الصلاة وهي نفس السن التي كانت تتبعها عادة الشعوب القديمة مثل الرومان والفرس، ويتم التعليم في هذه المرحلة في الكتّاب، وتجمع بين الذكور والإناث معا، غير أن تعليم الإناث كان يقتصر على تحفيظ القرآن الكريم وبعض المتون من الأحاديث النبوية الشريفة[402].

أما عن تكاليف التعليم في الكتاب في المرحلة التعليمية الأولى فقد أشارت المصادر التاريخية إلى أنها كانت على عاتق الأولياء، لأن الدولة لا تتدخل في شؤون التعليم بالكتاب بصفة عامة. وكان دورها يقتصر فقط على المراقبة التي يقوم بها المحتسب في معرفة كيفية تعامل المعلمين مع الأطفال وسلوكهم معهم، في حين كان القاضي يتولى السهر على تعليم اليتامى، وهذا ما نستشفه من رأي القابسي إذ يقول : "أعلم أن أئمة المسلمين في صدر هذه الأمة فما منهم إلا النظر في جميع أمور المسلمين لما يصلحهم في الخاصة والعامة ويجعلون لهم على ذلك نصيبا من مال الله عز وجل"[403].

وقد زودتنا الكتب الفقهية بمعلومات ثرية عن أسلوب المعلم وطريقته في التعليم، وتحصيل الصبيان المبادئ الأولى من العلوم، والصفات الواجب توفرها في المعلم، وقدراته العلمية كحفظ القرآن، والمعرفة الكاملة بأحكامه وتجويده وكتابته[404]. ولم يستثنوا من ذلك حتى العقاب الذي يناله الطفل في هذه المرحلة. إذ أجازوا معاقبة الأطفال في حالة قيامهم بمخالفات، مع التأكيد على المعلمين على مراعاة التدرج في العقاب بدءا بالتنبيه إلى التفزيع ثم الضرب كمرحلة أخيرة شريطة أن لا تكون هناك مبالغة في العقاب حتى ينجر من وراء ذلك انعكاسات سلبية تعيق من تحصيل الصبيان[405].

ونظرا لكثرة الإقبال على التحصيل العلمي عادة ما يلجأ بعض المعلمين إلى إيجار الدكاكين لاستعمالها ككتاب، وفي هذه الحالة كانوا يتقاضون أجورهم من

---

402. فؤاد الأهواني : التربية في الإسلام، أو التعليم في رأي القابسي، ص 292.
403. فؤاد الأهواني : المصدر نفسه، ص 295-296.
404. المغراوي : المصدر السابق، ص 24.
405. ابن خلدون : المقدمة، ص 1042-1043.

أولياء الصبيان من ميسوري الحال فقط خاصة وأن الفقيه سعيد العقباني أفتى بجواز أخذ الأجرة على تعليم العلم معللا ذلك بضعف مدا خيل المعلمين، ومنهم من كان يعزف عنها خاصة إذا تعلق الأمر بتعليم القرآن الكريم. ومثالنا على ذلك الشيخ الزاهد إبراهيم يسول الأشبيلي المتوفى سنة 539 هـ / 1140 م الذي كان يدرس القرآن بحضرة تلمسان محتسبا لله دون أخذ أجرة. بالرغم من أن فقهاء تلك الفترة أجازوا الأجرة على تعليم العلم معللين ذلك بضعف مدا خيل المعلمين[406].

الراجح أن المكانة الاجتماعية والمادية لمعلمي الصبيان في تلمسان أوفي الأرياف لا تتناسب والمستوى المعيشي في تلك الفترة، ونستشف ذلك من إلحاح المعلمين على الأطفال بتقديم المكافئات والمعونات المختلفة في المناسبات المعتادة لدرجة أنهم كانوا يقبلون حتى شموع المولد النبوي الشريف[407].

2. البرامج المقررة في المرحلة الأولى "المرحلة الابتدائية" :

إن البرامج الدراسية في هذه المرحلة ترتكز أساسا على القرآن الكريم باعتباره أصل التعليم ومنبع الدين والعلم. وعليه كان في مقدمة المواد التي تدرس للطفل حفظا وكتابة وتعويد الصغار على الحفظ والكتابة في سن مبكرة اشد رسوخا خاصة وأن القرآن اصل لما بعده. وعليه كان تعليمه هو الشائع في جميع مدن المغرب الأوسط[408] في المرحلة الابتدائية.

وبداية من القرن الثامن الهجري أضيفت مواد أخرى إلى جانب القرآن الكريم خاصة بعد استقرار بعض علماء الأندلس وعودة شيوخ تلمسان إلى حضرتهم متأثرين بما كان يجري في بلاد المشرق وأفريقية، فعمدوا إلى إدخال مواد مختلفة كالقراءات المختلفة للقرآن لتكون للدارس ملكة في اللسان العربي إلى جانب الحديث وتحفيظهم لقواعد اللغة العربية وعلم الحساب وغيرها من المواد...

---

406. الونشريسي : المعيار ج 8، ص236-237.

407. الونشريسي : المصدر نفسه، ج 8، ص 160-162.

408. ابن خلدون : المقدمة، ص 1038-1039.

أما مدة الدراسة التي يقتضيها الأطفال في هذه المرحلة فهي محددة بسبع سنوات، وهي المدة التي تمكن الطفل من حفظ القرآن الكريم في حالة عدم انقطاعه عن مزاولة الدراسة بالكتاب[409]. وحددت أيام التدريس من خمسة إلى ستة أيام في الأسبوع ووضع توقيتا محددا تحديدا دقيقا حيث قسمت فترة الدراسة على مرحلتين أساسيتين تبدأ الأولى من بعد صلاة الفجر حتى تحين صلاة العصر، وعادة ما تدرس في هذه الفترة المواد الصعبة إلى جانب حفظ القرآن، ثم يركن الصبيان إلى الراحة لتناول غذائهم لتحين الفترة المسائية والتي عادة ما تخصص لاستظهار الطلبة ما حفظوه على شيوخهم[410] وأما يوم الجمعة فقد خصص للراحة باعتباره يوم عيد. وعلى هذا المنوال تستمر الدراسة طوال السنة عدا أيام العطل والمناسبات الدينية، والأيام التي يختم فيها الصبيان القرآن الكريم[411].

3. المرحلة الثانية من مراحل التعليم : "المرحلة الثانوية"

تبدأ هذه المرحلة مباشرة بعد مرحلة الدراسة بالكتاب والتي يكون فيها الدارس قد حفظ فيها القرآن الكريم وتعرف على قراءاته المختلفة وأحكامه، وألم بالمبادئ الأساسية للكتابة والقراءة وقواعد اللغة العربية وبعض العلوم الأخرى لينتقل بعدها إلى المساجد والمدارس التي شيدت في مدينة تلمسان.

وما يميز هذه المرحلة عن سابقاتها أن الطلبة فيها تكون لهم الحرية في اختيار المواد التي يدرسونها وغير مقيدين ببرنامج دراسي معين في حد ذاته، نظرا لانعدام أي وصاية أو سلطة تفرض عليهم ذلك، بل أن الطلبة يختارون ما يناسبهم حسب ميولهم وطاقاتهم وإمكانياتهم الفكرية، ليس هذا فحسب بل يحق لهم حتى اختيار أساتذتهم الذين يرون فيهم الكفاءة العلمية، وعليه فعادة ما كان هؤلاء الأساتذة يحترمون ميول الطلبة، ولعل أصدق مثال على ذلك ما كان يتبعه الشيخ

---

409. الوازان : ج1، ص 203.

410. المغراوي : جامع جوامع الاختصار، ص 50-53.

411. الدرعي محمد بن ناصر : أجوبة محمد بن ناصر الدرعي، ص 85، وأنظر أيضا للمزيد : المغراوي : المصدر السابق، ص 50-53.

الشريف أبي عبد الله محمد التلمساني المتوفى سنة)771 هـ – 1370 م) مع طلبته ونستشف ذلك من قوله : {من رزق في بابه فيلازمه}.

وعلى هذا الأساس فالراجح أن لاحترام ميول الطلبة في اختيار المواد التي يدرسونها دور إيجابي على الكثير منهم. وعليه فقد نبغ الكثير منهم في مختلف العلوم نقلية كانت أو عقلية، ولعل ما بلغه الآبلي المتوفى سنة (775 هـ – 1356 م) لخير دليل على ذلك. غير أن هذه الحرية عادة ما تعترضها بعض العوائق كتدخل بعض الأساتذة والأولياء في تحديد توجهات الطلبة وأصدق مثال على ذلك ما أوصي به أحد الفقهاء ابنه بعد توديعه أثناء الخروج لطلب العلم فقال له : {وما رأيت الناس مجتمعين على حمده فاجتلبه، وما رأيتهم مجتمعين على ذمه فاجتنبه، والأعدل الأقسط أن تسلك السبيل الوسط}[412].

ولم يكن تدخل الأساتذة والأولياء العائق الوحيد في توجيه مسار الطلبة وتحديد مجال تخصصه بل تعداه إلى بعض التأثيرات الخارجية المرتبطة عموما بمستوى معيشة البعض التي يجعل منها هدفا لتحسين مستوى دخله، كما كان تأثير الفقهاء على بعضهم في ذلك واضح لأن هؤلاء كانوا حريصين أشد الحرص على تدريس الفقه. ويتضح لنا جليا من بعض الأقوال المأثورة والأبيات الشعرية في مدح الفقه وتفضيله عن بقية العلوم الأخرى، وأنه هو أهم سبيل للوصول إلى الجاه والمال[413].

ولعل حرص بعض الفقهاء على تدريس هذه المادة وتفضيلها عن غيرها من المواد الأخرى ما يؤكده قول أحمد الونشريسي إذ يقول : {من لا يعرف الفقه لا يعرف غيره}[414].

كما كان للتوجه المذهبي والسياسي للدولة دور في تحديد مضمون البرامج خاصة وأنه لا يخفى على أحد أن الدولة تقدم على تشجيع ما يناسب مذهبها ومناخها السياسي العام خدمة لمصالحها، وهي الراعية الأساسية لفتح مجال

412. ابن القاضي : جذوة الاقتباس، ص 503.

413. وأنظر أيضا الديباج، ص 78، ابن عبد الملك : الذيل والتكملة، ج 2، ص 101.

414. عن تفضيل الفقه على غيره من العلوم الأخرى أنظر : القاضي عياض : الغنية، 65-72.

الحركة الثقافية والعلمية في المدينة عن طريق الأموال التي تقدمها لرجال العلم من فقهاء وأدباء ومساهمتها في بناء المدارس والمجالس العلمية في البلاط الزياني، وعادة ما كان الأمراء يميلون إلى الثقافة الأدبية كالشعر والتاريخ، ويتدخلون أحيانا لمنع تدريس بعض العلوم التي تخالف المذهب المالكي[415].

والأكيد أن للرأي العام أيضا جانب مهم في اختيار مواد التدريس إذ عادة ما كان الأساتذة ينصحون طلابهم بالابتعاد عن دراسة بعض العلوم المشبوهة كالفلسفة والمنطق وغيره[416].

وعلى العموم فإن الطالب بمدينة تلمسان بإمكانه أن يدرس العلوم النقلية والعقلية المتداولة في شتى أنحاء العالم الإسلامي، والتي تقارب أربعين علما[417] غير أن للأسباب السالفة الذكر كانت العلوم المدرسة عمليا في المدينة لا تتجاوز النصف موزعة بين علوم دينية وعقلية وطبيعية[418].

4. المرحلة الثالثة من التعليم المشيخة أو "التعليم العالي"

بعد مرحلة التعليم الثانوي يتدرج الطلبة إلى مرحلة المشيخة أو ما يعرف في عصرنا الحديث (التعليم العالي)، ويتولى التدريس فيها شيوخ متضلعون وذوو كفاءات علمية بارزة في مواد مختلفة يتم تعيينهم في المؤسسات التعليمية بمدينة تلمسان بواسطة قرارات سلطانية شريطة أن تتوفر في الأساتذة المعينين مسبقا صفات معينة كأن يكونوا وافري العلم ملمين بأمهات الكتب متمكنون من السيطرة على المجالس العلمية بحسن حديثهم وخفة روحهم وسرعة بديهتهم. ويمتازون بالنزاهة العلمية، وما تتطلبه من صرامة، إلى غيرها من الصفات التي يطول المجال لذكرها هنا.

---

415. فيلالي عبد العزيز : المرجع السابق، ص 344-345.

416. ابن خلدون : المقدمة، ص 894.

417. علي زيغور : من صياغات التربية ونفسانية المتعلم في الفكر العربي الإسلامي، مجلة الفكر العربي عدد 19 سنة 1981، ص 273.

418. محمد حجي : الحرية الفكرية في المغرب في عهد السعديين، ص 85-86.

والراجح أن لهؤلاء الأساتذة مساعدين ونواب، فالمساعد هو الذي يتولى إعادة الدرس للطلبة بعد إلقائه من طرف الشيخ، أما النائب فهو المدرس الذي يحل محله في حالة غيابه، لأنه عادة ما يكون الشيوخ منشغلين بمهام أخرى سواء في الإدارة أو القضاء، وهذا ما يمكن النائب من الاستمرار في تلقين الطلبة الدروس دون توقفهم عن التحصيل العلمي[419].

وقد برز الكثير من الشيوخ في مختلف العلوم نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ الفقيه المحدث القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الحق اليعفري التلمساني، الشيخ أبي إسحاق إبراهيم التنسي، أبي عبد الله محمد الشريف التلمساني وغيرهم كَثير. وعلى يد هؤلاء يتلقى الطلبة دروسهم فينتقل إليهم الطلبة من مختلف الأقطار والبقاع للسماع عنهم، آخذين بيدهم مرشدين لهم يمدونهم بأصول المعارف الصحيحة دالين طلبتهم على أخبار العلماء البارزين في أنحاء الأقطار الإسلامية[420].

---

419. فيلالي عبد العزيز : المرجع السابق، ص 348.

420. المرجع نفسه، ص 349.

الخاتمة

إن أهم النتائج التي يمكن أن نخرج بها من هذه الدراسة هي:

– أن حواضر المغرب الأوسط (الجزائر) لا تختلف عن غيرها من الحواضر التي عرفها العالم الإسلامي، وإذا كانت هذه الحواضر لم تبرز كغيرها فهذا لا يرجع إلى كونها لم تقم بدورها أو لم ترق إلى مستوى هذه الحواضر بل يعود ذلك إلى كونها لم تنل حضها الكافي من الدراسة العلمية.

فمن خلال الدراسة اتضح لنا أن المغرب شهد خلال الفترة الإسلامية قيام عدة حواضر بلغت شأنا لا يستهان به، فبرزت في المرحلة الأولى من الفتوحات الإسلامية منطقة الزاب وتحديدا مدينة طبنة على أساس أنها الحاضرة الأساسية لبلاد الزاب، وقد أنجبت علماء اشتهروا بعلمهم الوفير أسهموا إسهاما كبيرا في رفع مكانتها العلمية.

أما في عهد الدول المستقلة فبرزت مدينة تاهرت باعتبارها أول عاصمة مستقلة في أرض المغرب الأوسط، كحاضرة ومركزا من المراكز والحواضر الثقافية التي بلغت سمعتها الآفاق، خاصة وأن معظم أئمتها كانوا ذوو علم ومعرفة، فأولوا رعاية كبيرة للعلم والعلماء، كما سهروا على إنشاء المؤسسات العلمية المختلفة، وربطوا علاقات بالمشرق الإسلامي ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل اشتهروا باقتنائهم الكتب خاصة من المشرق، وكذا التأليف في مختلف العلوم، وهذا ما أثرى مكتباتهم التي تعد بمثابة الوسيلة التي تقوم بتغذية الحركة الفكرية، ولعل أصدق دليل على ذلك ما وصلت إليه مكتبة المعصومة من شهرة وتنوع ما احتوته من مصادر وكتب علمية في مختلف المجالات العلمية سواء أكانت منها العلوم العقلية أو العلوم النقلية فاقت سمعتها بلاد المغرب.

وبعد أفول نجم مدينة تاهرت خلفتها مدينة ورجلان كوريثة للحركة العلمية إذ برز في هذه الحقبة نظام خاص للتعليم لم يعرفه أتباع المذهب الإباضي بعد حيث تم إرساء تقاليد ونظام خاص للحلقة، وقد أهلها موقعها الاستراتيجي الواقع في مفترق طرق القوافل التجارية أن تتبوأ مكانة علمية، فكانت كانت مقصدا للعلماء على مختلف مذاهبهم وهذا ما نشّط المناظرات العلمية بينهم، فكان التنافس العلمي هو الطابع المهيمن أو الغالب على حياة العلماء في تلك المدينة.

ولم تقتصر حواضر المغرب الأوسط على الحواضر السالفة الذكر فقط بل عرف المغرب الأوسط حواضرا أخرى كالمسيلة وأشير والقلعة وبجاية الناصرية، هذه المدن مجتمعة نقلت المجتمع الصنهاجي من مجتمع بدوي كثير الترحال إلى مجتمع مستقر نظمته وفق الأنظمة السائدة في المدن الإسلامية الأخرى، وهذا دليل ملموس على التطور الحضاري الذي شهدته هذه المراكز بالمغرب الأوسط، وقد عمد أمراء هذه المراكز إلى جلب بعض الأسر التي اشتهرت في المجالات العلمية والفنية مما ساعد على إضفاء طابع المزج بين البداوة والحضارة عملت على تنشيط الحركة الفكرية في تلك المدن فأصبحت مقصدا لطلاب العلم والعلماء كما تخرج منها علماء مشهورون فاقت سمعتهم الآفاق، فقربهم بعض الأمراء ليتميزوا بهم عن عامة الناس.

ولا يمكن الحديث عن المراكز والحواضر الثقافية في المغرب الأوسط (الجزائر) دون الإشارة إلى مدينة تلمسان التي تعد من المدن الجزائرية التي نالت شهرة واسعة فاقت شهرتها حدود بلاد المغرب لأنها كانت تتغذى بروافد عديدة، كرافد الأندلس والمشرق العربي ضف إلى ذلك الإرث الحضاري والثقافي المغربي خاصة وأن موقعها قد ميزها عن غيرها من المدن الجزائرية باعتبارها قفل بلاد المغرب الأوسط فبرزت كحاضرة مميزة ساهمت في دفع عجلة الحركة الفكرية والثقافية نحو التقدم والرقي في مجالات العلوم والفنون المختلفة، وأسهمت بذلك إسهاما كبيرا في صقل معارف طلبة العلم وخلق جو من المنافسة بين العلماء وقد انعكس هذا على أفراد المجتمع فرقّاهم أخلاقيا وحضاريا.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر

1. ابن الأثير (علي بن محمد بن عبد الكريم الجزيري) الكامل في التاريخ، ج7، عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت، 1984

2. أبو زكرياء (يحيى بن أبي بكر) : كتاب سير الأئمة و أخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء حققه إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984 م.

3. أبو عبد الله محمد بن بكر : سير الحلقة، نشر ضمن، 1960،

Annali : Instituto Universitario Orientali Di Napoli, Nuova Serie 10 Napoli

4. الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشرة دي غويه ودوزي، ليدن، 1894.

5. البكري، (أبو عبد الله) ت 487 هـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريس، 1965.

6. التنسي (أبي عبد الله بن عبد الجليل الحافظ) نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان، ملوك الدولة الزيانية الجزائرية، تقديم وتحقيق وتعليق بوطالب محي الدين، منشورات دحلب، د ت.

7. الحموي (ياقوت) : معجم البلدان، تحقيق عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

8. الحميري (محمد عبد المنعم) : كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، دار القلم للطباعة، بيروت، لبنان.

9. ابن حوقل، (أبو القاسم محمد البغدادي) ق 4 هـ صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979.
10. ابن الخطيب (لسان الدين) الإحاطة في أخبار غرناطة، حققه وقدم له محمد عبد الله عنان، دار المعارف، مصر، د ت.
11. ابن خلدون (أبو زكريا يحيى بن محمد) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، نشره وترجمه إلى الفرنسية ألفريد بل، مطبعة فرطان، الجزائر، 1910-1903.
12. إبن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) (ت 808 هـ) :كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1968 م. ودار الكتب العلمية ط 1، بيروت 1992
13. ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمان بن محمد) المقدمة، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1968.
14. ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد)، التعريف بابن خلدون رحلته غربا وشرقا، تعليق محمد بن تاويت، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951.
15.ابن خلكان (أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1، تحقيق إحسان عباس، مطبعة الغرب، بيروت، 1968.
16. الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد) (حوالي 670 هـ) : طبقات المشائخ بالمغرب، مطبعة البعث، قسنطينة – الجزائر.
17. ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى) ت685 هـ، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 1982.
18. الشماخي (ابو العباس أحمد بن سعيد) : كتاب السير، طبع حجرية، قسنطينة – الجزائر 1301 هـ .
19. ابن الصغير المالكي : (القرن الثالث الهجري)، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق الدكتور محمد ناصر، والأستاذ بحاز إبراهيم بكير، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1986 م .
20. الصنهاجي (ابو عبد الله محمد) أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

21. ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق و مراجعة ج – س كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت – لبنان.

22. الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد) : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ش.و.ن.ت الجزائر، 1970.

23. القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) ت 821 هـ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، عرض وتحليل عبد اللطيف حمزة، المؤسسة العامة للطباعة والنشر، القاهرة، د، ت.

24. ابن مرزوق (أبو عبد الله محمد الخطيب)، المسند الصحيح، تحقيق ماريا خيسوس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

25. ابن مريم (أبو عبد الله محمد) : البستان في ذكر الأولياء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1986.

26. المقدسي (شمس الدين) ت 388 هـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ط (2) ليدن، 1906.

27. المقري (أحمد بن محمد التلمساني)، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج1، نشر مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، 1942.

28. المقري (أحمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.

29. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، الاسكندرية، 1958.

30. النباهي (أبو الحسن علي بن محمد المالقي)، تاريخ قضاة الأندلس، المعروف باسم كتاب المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948.

31. النويري (أحمد بن عبد الوهاب) نهاية الإرب في فنون الأدب، ج6، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1923.

32. الوسياني (أبو الربيع) : سير مشائخ المغرب، تحقيق : إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، الجزائر، (د.ت).

33. الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى)، المعيار، ج2، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

ثانيا :المراجع

1. أبو الأجفان (محمد الهادي)، الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني، الدار العربية للكتاب، تونس، 1988.

2. ألفريد (بل)، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح إلى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

3. باجية (صالح) : الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، دار أبو سلامة، ط1، تونس، 1976.

4. الباروني (عبد الله بن يحي) : رسالة سلم العامة والمبتدئين على معرفة أئمة الدين، مطبعة النجاح، القاهرة 1324 هـ.

5. بحاز (إبراهيم بكير)، الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية مطبعة لافوميك، ط1، الجزائر،1985 م.

6. بورويبة (رشيد وآخرون) الجزائر في التاريخ، ج3، .....

7. جهلان (عدون)، الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ يوسف اطفيش، نشر جمعية القرارة – الجزائر 1236-1332 هـ / 1818-1914 م.

8. الحريري (محمد عيسى) الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقتها بالمغرب و الأندلس) 160 هـ -296 دار القلم، ط2، الكويت،1987 هـ.

9. الحفناوي (أبو القاسم محمد) تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، تونس، 1985.

10. خطاب (محمود شيت)، قادة الفتح الإسلامي – قادة فتح المغرب العربي – الطبعة السابعة دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، 1984 م.

11. خليفات (محمد عوض) : النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، عمان، 1982.

12. خليفة (حاجي) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار العلوم الحديثة، بيروت (د.ت).
13. دبوز (محمد علي)، تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابلي الحلبي و شركاه، 1383 هـ / 1963 م.
14. دهينة (عطاالله)، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
15. الزركلي (خير الدين)، الأعلام، قاموس تراجم، المكتبة المصرية القاهرة، 1927.
16. سالم (عبد العزيز السيد)، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر – بيروت،1981 م.
17. العبادي (أحمد مختار)، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997 م.
18. عبد الحميد (سعد زغلول)، تاريخ المغرب العربي – تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية، 1979.
19. عبد الرازق (محمود إسماعيل)، الخوارج في المغرب الإسلامي -ليبيا، تونس، الجزائر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1976 م.
20. العدوي (إبراهيم أحمد) بلاد الجزائر، تكوينها الإسلامي والعربي، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1983.
21. العربي (إسماعيل) دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
22. القبلي (محمد)، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987.
23. قويدر (بشار)، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، منشوارت دحلب الجزائر.
24. لقبال (موسى)، المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج سياسة ونظم – الطبعة الثالثة، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر.

25. المدني (أحمد توفيق)، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956.
26. مزهودي (مسعود)، الإباضية في المغرب الأوسط، المطبعة العربية، غرداية، 1996.
27. معمر (علي يحي) : الإباضية بالجزائر، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ط1، القاهرة، 1964.
28. مؤنس حسين، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر (من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلاديين)، الطبعة الأولى بيروت – لبنان، 1992 م.
29. الميلي (مبارك بن محمد)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.
30. هونكه (زيغريد)، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمه فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، ط6، بيروت (د.ت).
31. الوراكلي حسن، المشيخة العلمية في المغرب والأندلس خلال القرن الثامن الهجري، طنجة.، 1990
32. يوسف (جودت عبد الكريم)، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 م .
33. بن يوسف (الشيخ سليمان)، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة ابو داوود، 1993.

ثالثا : الرسائل الجامعية

1. زلاقي (محمد)، شعر المولديات في المغرب العربي الإسلامي، رسالة ماجستير، القاهرة، 1990.
2. سيدي موسى (محمد الشريف) : الحياة الفكرية في بجاية من القرن السابع الهجري إلى بداية القرن العاشر الهجري (13-16 م) رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، سنة 2001.

3. عبد الحفيظ (منصور) : السياسة الداخلية للإمارة الرستمية (160هـ -296هـ / 777-909 م). مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة السنة الجامعية : 1421 هـ / 2001 م.

4. عبد الحفيظ منصور : قيام الإمارة الرستمية في تاهرت، بحث في المنهجية لتحضير رسالة الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، جامعة قسنطينة، السنة الجامعية : 1399-1398 هـ / 1979-1978 م، رجب 1399 هـ جوان 1979 م.

5. عبد الحفيظ منصور : الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية في عهد الإمارة الرستمية، 144-296 هـ / 761-909 م. رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة، جامعة قسنطينة، السنة الجامعية : 1403-1404 هـ / 1983-1984 م.

6. فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية، أطروحة دكتوراه دولة، ج1، 2، جامعة الجزائر، 1995.

7. مطيع محمد، كفاية المحتاج بمن ليس في الديباج لأحمد بابا التمبكتي، ج2، دراسة وتحقيق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987.

رابعا : الدوريات

1. أمين (حسين)، المسجد وأثره في تطوير التعليم، مجلة دراسات تاريخية، عدد5، دمشق، تموز، 1981.

2. بن يوسف (سليمان داود)، مجهودات الدولة الرستمية في نشر الحضارة الإسلامية الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية العدد. 49-50 :

3. بوعبدلي المهدي، لمحات من دور الدولة الرستمية في ميادين الحضارة والفكر لبعض الباحثين القدامى والمتأخرين، الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، العدد 41.

4. عباس (إحسان)، المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين،الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، العدد 45.

المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954
المكتبة

5. القاضي (وداد)، ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية، الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، العدد 45.
6. مصطفاي (رشيد)، بجاية في عهد الحماديين، مجلة الأصالة، عدد1، سنة 1971.
7. محمد عبد القادر (عثمان)، المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، الكويت، 1988.
8. النامي (عمر وخليفة)، ملامح عن الحركة العلمية بورجلان ونواحيها منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس هجري، الأصالة منشورات وزارة الشؤون الدينية العدد : 42-43.
9. نايت بلقاسم (مولود قاسم)، بجاية الإسلامية لقنت أوروبا الرياضيات بلغة العروبة، كتاب الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، عدد1، سنة 1985.
10. دفاتر أشير، المتحف الوطني للآثار، تقرير حفرية سنة 1993، العدد3، 1994.

خامسا : المراجع الأجنبية

1. Berque (A.), L'Algérie terre d'Art et d'histoire, Paris, 193.
2. Camard (M.), Une famille de portrais puis adversaires des Fatimides en Afrique du nord, mélange d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman.
3. Cambuzat (P. L.), L'évolution des cites du tell en Ifrikya du VII au XI siècle, t2.
4. Capitaine (Rodet), Ruines d'Achir, Revue Africaine, 1908.
5. Edmant Pauty, Ville spontanées et villes crées en Islam, communication faite à l'institut des hautes études Marocaines le vendredi 18 avril 1947.
6. Feraut (M. L.), Histoire des Villes de la province de Constantine, receuil des mémoires de la société archéologique de la province de Constantine, 15ème volume, 1872.
7. Golin (L.), Le Maghrib Centrale) l'époque des ZIRIDES, Paris, 1957.
8. Marçais (G.), Manuel d'art musulman, T1, Paris, 1926.
9. Marçais (G.), Recherches d'archéologie musulmane, Achir, Revue Africaine, 1922.